(٧١) سورة نوح مكية وآياتها ثمان وعشرون

● **سورة** نوح مكية ، شأنها شأن سائر السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة ، وتثبيت قواعد الإيمان ، وقد تناولت السورة تفصيلاً قصة شيخ الأنبياء « نوح » عليه السلام ، من بدء دعوته حتى نهاية حادثة الطوفان ، التي أغرق الله بها المكذبين من قومه ، ولهذا سميت « سورة نوح » ، وفي السورة بيانٌ لسنة الله تعالى في الأمم التي انحرفت عن دعوة الله ، وبيان لعاقبة المرسلين ، وعاقبة المجرمين ، في شتَّى العصور والأزمان .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بإرسال الله تعالى لنوحٍ عليه السلام ، وتكليفه بتبليغ الدعوة وإنذار قومه من عذاب الله ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أَنْ أَنْذِرْ قومك من قبل أن يأتيهم عذابٌ أليم﴾ .

● **ثم ذكرت** السورة جهاد نوح ، وصبره ، وتضحيته في سبيل تبليغ الدعوة ، فقد دعا قومه ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، فلم يزدهم ذلك إلا إمعاناً في الضلال والعصيان ﴿ قال ربِّ إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدهم دعائي إلاَ فراراً﴾ .

● **ثم تتابعت** السورة تذكّرهم بإنعام الله وإفضاله على لسان نوح عليه السلام ، ليجدّوا في طاعة الله ، ويروا آثار قدرته ورحمته في هذا الكون ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات ٍ طباقاً ؟ وجعل القمر

فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ! والله أنبتكم من الأرض نباتاً ! ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً﴾ ! !

● **ومع كل هذا** التذكير والنصح والإرشاد ، فقد تمادى قومه في الكفر والضلال والعناد ، واستخفوا بدعوة نبيهم نوح عليه السلام حتى أهلكهم الله بالطوفان ﴿قال نوحٌ ربِّ إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده مالُه وولده إلا خساراً . ومكروا مكراً كُبَّاراً . وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرنَّ وداً ولا سُواعاً ..﴾ الآيات .

● **وختمت** السورة الكريمة بدعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك والدمار ، بعد أن مكث فيهم تسعمأة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله ، فما لانت قلوبهم ، ولا انتفعت بالتذكير والإنذار ﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً . رب اغفر لي ولوالديَّ ولمن دخل بيتي مؤمناً ، وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تباراً﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة نوح عليه السلام[١]

بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١]

قوله عز وجل:[٢] **إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم.** في ذكر نبأ نوح عليه السلام دلالة رسالته وآيةُ نبوته لما ذكرنا[٣] أن هذا لم يكن من علمه ولا علم قومه، و لم يختلف النبي صلى الله عليه وسلم إلى مَن عنده علم به فيتعلمه[٤] منه، فعُلم أنه بالله تعالى عَلمه لا بأحد من خلقه فيكون فيه إلزام الحجة عليهم. وفيه إعلام لرسول[٥] الله عليه السلام ما لقي نوح عليه السلام من قومه ليصبّره بذلك[٦] على أذى قومه إذ السورة مكية. ثم أمره بالإنذار و لم يذكر معه البِشارة فكذلك قال نوح عليه السلام: إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ،[٧] و لم يقل: "بشير" وقد كان هو[٨] بشيرا ونذيرا. فجائز أن يكون اقتصر على ذكر النِّذارة لأن في ذكرها ذكرَ البشارة.

---

[١] ر – سورة نوح عليه السلام؛ ن + وهي مكية؛ ث + وهي ثمانون وعشرون آيات؛ م + مكية.

[٢] ن – قوله عز وجل.

[٣] ر ث م: إنما ذكرنا؛ ن: كما ذكرنا. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٤ظ.

[٤] جميع النسخ: فتعلمه. والتصحيح من المرجع السابق.

[٥] جميع النسخ: رسول. والتصحيح من المرجع السابق.

[٦] ر م: وبذلك.

[٧] الآية التالية.

[٨] ر م – هو.

وذلك أنهم[١] استوجبوا العذاب إذا داموا[٢] على ما هم فيه من الضلالة وعبادة غير الله تعالى، فهم[٣] إذا انتهوا عن ذلك استوجبوا العفو، واستيجاب العفو وقوع البِشارة. فإذا كان ذكر أحد الوجهين يقتضي ذكر الآخر اُكتُفِيَ بذكر أحدهما عن ذكر الآخر. وجائز أن يكون خَصَّ النذارة بالذكر لأن الحال كانت حال الإنذار، لأنهم كانوا معرضين عن طاعة الله تعالى ومقبلين على عبادة[٤] غيره. فكانوا مستوجبين للنذارة و لم يكونوا من أهل البشارة؛ وإنما يصيرون من أهلها إذا انتهوا عما هم عليه؛ فيكون قوله: **أَنْذِر قومك**، إن داموا على ما هم عليه. وفي هذا دلالة على أن المرء[٥] إذا أخذ غير طريق الهدى[٦] فالسبيل فيه أن يُفْسدَ عليه[٧] مذهبه. ثم إذا ظهر فساده عنده أُمر له باتباع سبيل الهدى وبُيِّن له الحجج والدلائل لِيَنْجَع فيه ذلك. ليس[٨] أن يُحتجَّ عليه[٩] بالحجج التي[١٠] هي حجج مذهبِ أهل[١١] الحق قبل أن يبين له[١٢] فساد ما هو فيه، فإن ذلك لا ينجع فيه ولا يدعوه إلى قبول الحق والتزامه؛ بل يبين له قبح ما هو فيه وفساد ما اعتقده، فإذا بان له ذلك يحتاج إلى أن يسأله عن سبيل الهدى فيه ليعرفه بالتعليم.

ثم الأصل أن الدنيا هي سبيل الآخرة. والضلال سبيل يفضي بمن سلكه إلى العذاب الدائم، والهدى سبيل يفضي إلى الثواب الدائم. فالنِذارة هي تبيين ما ينتهي إليه عاقبة من يَلزم الضلال، والبشارة هي تبيين ما ينتهي إليه عاقبة من يلزم الهدى. وإن شئت قلتَ: إن النِذارة هي أن تبين[١٣] عُسْر ما يَحُلّ به في العاقبة، والبشارة هي أن تبينه[١٤] بما يصير إليه في العاقبة من اليسر.

---

[١] ر ن م: + إذا.
[٢] ث: إذ داموا.
[٣] ر ث م: بهم.
[٤] ر م: عن عبادة.
[٥] ر م: على أن المراد.
[٦] ر م – الهدى.
[٧] ر م – عليه.
[٨] ر – ليس.
[٩] ن ث + ذلك.
[١٠] ر م – التي.
[١١] جميع النسخ – أهل. والزيادة من *الشرح*، ورقة ٢٧٤ظ.
[١٢] ر ن م – له.
[١٣] جميع النسخ: أن يبين. والتصحيح من المرجع السابق.
[١٤] ث: أن ينبه.

ثم في قوله عز وجل: **أَنْ أَنْذِر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم،** / دلالة أن حجة[١] [٨٤٧و] الإيمان[٢] تلزم[٣] الخلق قبل أن يأتيهم النذير، لأنها لو كانت لا تلزمهم لكانوا في أمن من نزول العذاب بهم قبل أن يأتيهم النذير[٤] فلا يُخَوَّفون[٥] بنزول العذاب بهم قبل أن يُنْذَروا. فلما خُوِّفوا بنزول العذاب بهم[٦] قبل أن يأتيهم النذير دل أن الحجة لازمة عليهم وأن لله[٧] تعالى أن يعذبهم لتركهم التوحيد وإن لم يرسل إليهم الرسل؛ فيكون تأويله قوله عز وجل: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً،[٨] على عذاب الاستئصال في الدنيا ليس على عذاب الآخرة. *والله أعلم.*

﴿قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[٢]

وقوله عز وجل: **قال يا قوم إني لكم نذير مبين،** أي مُبيِّن[٩] لما يقع[١٠] به الإنذار والتخويف، فتكون[١١] الإبانة منصرفة إلى النذارة.[١٢] ويحتمل أن يكون هذا الوصف راجعا إلى نفسه خاصة، كأنه قال: نذير لكم مبين، أي إني لم أَقُمْ في دعائي إياكم إلى عبادة الله تعالى وإنذاركم من عند نفسي ولكن بما اختصَّني[١٣] الله تعالى وولَّاني ذلك.

ثم الأصل أن في الإنذار نهيا وفي النهي[١٤] أمرا لكن الإنذار يقتضي نهيا وَكِيدا، والنهي الوكيدُ يقتضي الأمر بالخلاف أمرا وكيدا. وأما البشارة فهي[١٥] تقتضي الأمر الوكيد وغير الوكيد،

---

[١] م: أن الحجة.
[٢] م - الإيمان.
[٣] ر ث م: يلزم.
[٤] ر ث م - لأنها لو كانت لا يلزمهم لكانوا في أمن من نزول العذاب بهم قبل أن يأتيهم النذير.
[٥] م: فلا يخافون.
[٦] ر م - قبل أن ينذروا فلما خوفوا بنزول العذاب بهم.
[٧] ر ن م: وأن الله.
[٨] سورة الإسراء، ١٧/١٥.
[٩] ر م: يبين.
[١٠] جميع النسخ: بما يقع. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٤ظ.
[١١] ر م: فيكون.
[١٢] ن: منصرفه إلى النذاره.
[١٣] م: اقتضي.
[١٤] ن: ومن النهي.
[١٥] ن - فهي.

لأنه يستوجب البشارةَ بكل خير[١] يفعله وإن كان للمرء ترك ذلك الخير بخير آخر يأتي به[٢] فلا يفهم بنفس البشارة[٣] الأمر الوكيد، ويفهم بتصريح النذارة تأكيد الوجهين اللذين ذكرنا هما. وإذا كان كذلك فمطلق البشارة[٤] لا يدل على تحقيق النذارة. وأما النذارة[٥] فهي تدل[٦] على البشارة، لأن النذارة على ما هو فيه من الفعل[٧] يَلزم النهي، وإذا انتهى عنه فقد حصل العفو وفي حصول العفو ارتفاع ما خُوِّف وذهابُه.[٨]

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [٣]

وقوله عز جل: **أن اعبد الله واتقوه**، فكأنه قال: أنذرهم على عبادة غير الله ومُرْهم بعبادة من يستحق العبادة وهو الله تعالى، إذ الأمر بالإنذار يقتضي النهي عما هم عليه ويدعو إلى خلافه ويبين[٩] لهم الخلاف الذي دُعوا إليه، لقوله عز وجل: **اعبدوا الله واتقوه**، وقيل: اعبدوا الله أي وحِّدوه. وقال قتادة: كل عبادة جرى بها الأمر في القرآن على الإرسال فهي منصرفة إلى التوحيد.[١٠] فكأن الذي حملهم على هذا التأويل هو أن الآيات التي فيها أمرٌ بالعبادة نزلت في أهل الكفر، لأنه خاطب بقوله عز وجل: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ،[١١] ولم يخاطب بقوله عز وجل: يا أيها الذين آمنوا اعبدوا ربكم. وإذا ثبت أنها في أهل الكفر والكافرُ أولَ ما يؤمر يؤمر بالتوحيد، ليس يخاطَب بعبادة أخرى سواه، لأنه ما لم يأت بالتوحيد لم يقبل منه شيء من العبادات، فجعلوا تأويل العبادة التوحيدَ لهذا، لا أن يكون العبادة عبارة عن التوحيد خاصة. بل العبادة يراد بها التوحيد مرة إذا ذكرت[١٢] عقيب الكفر،

---

[١] ث م: خير.
[٢] ن: نهيه.
[٣] ن + إذا كان.
[٤] ن – تأكيد الوجهين اللذين ذكرنا هما وإذا كان كذلك فمطلق البشارة.
[٥] ر م – وأما النذارة.
[٦] ر م: يدل.
[٧] جميع النسخ: في الفعل. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٤ظ.
[٨] م: خوف ذهابه.
[٩] جميع النسخ: وبين. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٥و.
[١٠] قارن بما ورد في *بحر العلوم* للسمرقندي، ١٠١/١.
[١١] سورة البقرة، ٢١/٢.
[١٢] ن – إذا ذكرت.

وإذا ذكرت في أهل الإيمان فالعبادة منهم أن يَفُوا بمعاملة ما اعتقدوه بالقول وأن يُنجزوا ما وعدوا من أنفسهم.[١] وهذا كما ذكرنا في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة أنهما إذا ذكرتا[٢] في أهل الكفر انصرف المراد من ذلك إلى الاعتقاد لا إلى الفعل، لأنهم ليسوا من أهل الفعل، وإذا ذكرتا[٣] في أهل الإسلام أريد بالإقامة والإيتاء إيجاد الفعل. فكذلك الحكم في العبادة بقوله: **اعبدوا الله**، أي وحدوه **واتقوه**، أي اتقوا الإشراك في عبادته **وأطيعونِ**،[٤] فيما أمركم به من توحيد الله تعالى وأن لا تشركوا[٥] به شيئا.

وجائز أن يكون قوله: **واتقوه**، أي اتقوا[٦] المهالك كلها واتقوا النار، كما قال الله تعالى: وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ،[٧] وقال[٨] تعالى: قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا.[٩] فالتقوى[١٠] إذا ذكر على الانفراد مرسلا[١١] اقتضى الانتهاء عما فيه الهلاك واقتضى الأمر بالعبادة والطاعة، وإذا جُمع بين العبادة والتقوى كانت العبادة انصرفت إلى إتيان الأفعال[١٢] والتقوى إلى اتقاء المهالك. وهو كما قلنا في البر والتقوى: إن كل واحد منهما إذا ذكر مفردا اقتضى ما يقتضيه الآخر، وإذا جمعا في الذكر صُرف أحدهما إلى جهة[١٣] والآخر إلى جهة أخرى. وكذلك الإسلام والإيمان إذا أُفرد بذكر أحدهما يكون معنى كل واحد منهما هو معنى الآخر، وإذا جمعا في الذكر صرف كل واحد منهما إلى جهة على حدة. وقال الحسن: في قوله عز وجل: **واتقوه**، أي اتقوا الله في حقه أن تضيّعوه، فهو يجمع ما يؤتى[١٤] وما يُتقى.

---

[١] انظر لذكر العبادة في أهل الإيمان: سورة الأنبياء، ٩٢/٢١؛ وسورة الحج، ٧٢/٢٢؛ وسورة العنكبوت، ٥٦/٢٩.
[٢] ث م: إذا ذكرنا.
[٣] ن ث م: وإذا ذكرنا.
[٤] جميع النسخ: وأطيعوني.
[٥] ر ن م: وأن لا يشركوا.
[٦] ر ث م – أي اتقوا.
[٧] سورة آل عمران، ١٣١/٣.
[٨] جميع النسخ: وقوله. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٥و.
[٩] سورة التحريم، ٦/٦٦.
[١٠] ر م: واتقوا؛ ث: والتقوى.
[١١] ر: ومرسلا.
[١٢] ر ث م + انصرف.
[١٣] ث: إلى جهته.
[١٤] ر ن م: ما يؤدى.

ثم الأصل أن الطاعة قد تكون لمن سوى الله والعبادة لا تكون إلا لله تعالى. فلذلك قال عند الأمر بالعبادة: **اعبدوا الله**، فأضافها إلى الله تعالى وأضاف الطاعة إلى نفسه بقوله: **وأطيعونِ**. ففيه دلالة أن ليس في الطاعة لآخر إشراك بالله تعالى،[1] بل الله تعالى جعل الإشراك في الطاعة بقوله: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ،[2] وذَمَّ من يَعدِل بالله تعالى في العبادة بقوله تعالى: وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ.[3] فالعبادة كأنها تقتضي الخضوع والتضرع على الرجاء والخوف، والله تعالى هو الذي يرجى منه ويخاف من نقمته. فأما الطاعة فهي تقتضي[4] فعلا على الأمر لا غيرُ، وعلى ذلك لَمَّا صرفت الكفرة الرجاء والخوف إلى الأصنام بقولهم: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى،[5] وقولهم: هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ،[6] سُموا عُبّاد الأصنام. فكل من يفعل الفعل على الخوف والرجاء فذلك[7] منه عبادة له.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٤]

[٨٤٧ظ] وقوله عز وجل: **يغفر لكم من ذنوبكم**، إن صرفتَ قوله: اِتَّقُوهُ،[8] إلى اتقاء الشرك / يرجع قوله: **يغفر لكم من ذنوبكم**، إلى ما سلف من الذنوب في حالة الشرك، كقوله عز وجل: إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ،[9] وإن صرفته إلى سائر وجوه المهالك رجع إلى السالف وإلى الآنف[10] جميعا، وهو كقوله تعالى: إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ؛[11] فيكون قوله: **من**، صلة على ما ذكره أهل التفسير ومعناه يغفر لكم ذنوبكم. وجائز أن يكون قوله: **من**، على التحقيق ليس على حق الصلة، لأنه قد يكون من الذنوب ذنوب يؤاخذ بها بعد الإسلام،

---

[1] جميع النسخ + في الطاعة.
[2] سورة النساء، ٤/٨٠.
[3] سورة الأنعام، ٦/١٥٠؛ وانظر أيضا نفس السورة، الآية ١.
[4] ث: فأما بطاعة وقوله فهي يقتضي؛ ن: فأما بطاعة فهي تقتضي.
[5] سورة الزمر، ٣٩/٣.
[6] سورة يونس، ١٠/١٨.
[7] ث: فلذلك.
[8] من الآية السابقة.
[9] سورة الأنفال، ٨/٣٨.
[10] ر م: وإلى الآلف.
[11] سورة هود، ١١/١١٤.

وهي التي تكون[١] بينه وبين الخلق من القصاص وغيره، فالمأثم بالقتل وإن زال عنه بالتوبة فإن القصاص لا يرتفع عنه. وقوله عز وجل: **ويُؤَخِّرْكم إلى أجل مسمى**، فجائز أن يكون أولئك[٢] القوم كانوا يخافون على أنفسهم الإهلاك[٣] من قومهم بإيمانهم وإجابتهم لنوح عليه السلام فيخرج قوله: **ويؤخركم إلى أجل مسمى**، مخرج[٤] الأمان لهم أنهم بإيمانهم يَبْقون[٥] إلى الأجل الذي ضُرب لهم لو لم يؤمنوا، إذ يكون[٦] معناه أنكم إن أسلمتم بقيتم إلى انقضاء أجلكم[٧] المسمى سالمين آمنين لا يتهيأ[٨] لعدوكم[٩] أن يمكروا بكم.

وقوله عز وجل: **إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون**، وقال في موضع آخر: فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ،[١٠] وجائز أن يكون قوله: لَا يَسْتَأْخِرُونَ، أي لا يتأخرون[١١] عن آجالهم أو لا يؤخَّرون بما يطلبون من التأخير، فيكون في هذا إياس لهم أنهم لا يؤخرون إذا طلبوا التأخير.[١٢] قال الله تعالى: وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ،[١٣] فأخبر جل جلاله أن الموت إذا أتاه طلب التأخير ليبدِّل ما طُلب منه البدل[١٤] قبل ذلك من التصدق والإيمان به، فقطع[١٥] عنهم طمعَهم[١٦] بقوله: وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا،[١٧]

---

[١] ر م: يكون؛ ث – تكون.
[٢] ر – أولئك.
[٣] ن: إلا المهالك.
[٤] ن: فخرج.
[٥] ر ث م: يتقون.
[٦] ث: أن يكون.
[٧] ر ث م: يقسم إلى انقضاء آجالكم.
[٨] ث + لكم.
[٩] ر ن: كعدوكم.
[١٠] سورة النحل، ١٦/٦١.
[١١] م – أي لا يتأخرون.
[١٢] ث: التأخر.
[١٣] سورة المنافقون، ٦٣/١٠.
[١٤] ث: ليبذل ما طلب منه البذل.
[١٥] ن: فتطمع.
[١٦] ن ث م: طمعم.
[١٧] سورة المنافقون، ٦٣/١١.

وبقوله: لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ،[1] وبقوله: **إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر**. وهذه الآية تنقض على المعتزلة قولهم،[2] لأنهم يقولون بأن رجلا لو جاء وقتل[3] آخر فإنما قتله قبل انقضاء أجله. والله تعالى يقول:[4] لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ.[5] والأصل أن الله تعالى إذا علم أنه يُقتل[6] رجل[7] فإنما يجعل انقضاء أجله بالقتل ليس بغيره، لأنه لا يجوز أن يجعل انقضاء أجله بموته حتف أنفه[8] ثم ينقض أجله[9] بغير ذلك، لأنه لو جاز هذا لأدى ذلك إلى الجهل بالعواقب، والجهل بالعواقب يُسقط الربوبية ويثبت[10] الجهل.[11]

وقوله عز وجل: **لو كنتم تعلمون**، أي لو كنتم تعلمون ما يَحُل بكم من الندامة عند انقضاء أجلكم[12] لكنتم تبذلون[13] للحال ما أريد[14] منكم لئلا يحل بكم العذاب. أو أن يكون معنى قوله: **إن أجل الله إذا جاء**، أي أجل العذاب إذا حل وقع لا محالة، فلو علموا بوقوعه لا محالة لارتدعوا عنه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾[٥]

وقوله عز وجل: **قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا**، يحتمل أن يكون هذا من نوح عليه السلام بعد أن أُخبر أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ،[15] فيكون القول منه قول مُعْذِر أنه لم يقصِّر في دعوة قومه إلى الإسلام وأنه قد دعاهم إلى الإسلام في كل وقت وحال

---

[1] سورة النحل، ٦١/١٦.
[2] جميع النسخ: قوله. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٥ظ.
[3] ر م + ليس بغيره.
[4] م: بقوله.
[5] سورة النحل، ٦١/١٦.
[6] ر م: يقبل.
[7] جميع النسخ – رجل. والزيادة من المرجع السابق.
[8] ر ن م: نفسه؛ ث: أنفسه. والترجيح مستفاد من المرجع السابق.
[9] ر ث م: أصله.
[10] جميع النسخ: فثبت. والتصحيح من المرجع السابق.
[11] ر ث م – بالعواقب والجهل بالعواقب يسقط الربوبية ويثبت الجهل.
[12] ر ث م: آجالكم.
[13] ر م: تبدلون؛ ن: يبدلون.
[14] ر م: ما ارتد.
[15] ﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ (سورة هود، ٣٦/١١).

وأنه[١] قد أبلى عذره[٢] في ذلك وإنما جاء التفريط والتعدي من جهة قومه. ويحتمل أن يكون هذا منه على الإشفاق والرحمة والتعرض لاستنزال اللِّين والرحمة لعل[٣] الله تعالى بلطفه يُليّن قلوبهم فينقادوا للحق ويرغبوا في الإجابة ليتخلصوا من العذاب ويستوجبوا[٤] المغفرة من ربهم. فهو يُخرَّج على أحد هذين الوجهين: إن كان قبل الإخبار فهو على التعرض منه لاستنزاله اللين والرحمة، وإن كان بعده فهو على إبلاء العذر لا على الدعاء والرجاء بأن يلين قلوبهم بلطفه فينقادوا للحق، إذ لا يجوز أن يخبر اللهُ تعالى أنهم لا يؤمنون وهو يطمع منهم أن يؤمنوا. ثم قوله: **إني دعوت قومي ليلا ونهارا**، أي دعوت في كل وقت وكل ساعة من الليل والنهار أمكنني فيه الدعاء.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾[٦]

وقوله عز وجل: **فلم يزدهم دعائي إلا فرارا**، وأصل هذا أن عداوتهم كانت قد اشتدت[٥] لنوحٍ عليه السلام وكانوا قد استثقلوه وابغضوا كلامه فحدث لهم ببغضهم[٦] كلامه واستثقالهم إياه معنًى حَمَلَهم على الفرار،[٧] فنسب ذلك إلى الدعاء، لأن حدوث ذلك المعنى كان عند وجود الدعاء، فنسب إلى الدعاء على معنى المجاورة[٨] والقرب لا أن يكون الدعاء في الحقيقة سببا لزيادة الفرار، وهو كقوله تعالى: وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ،[٩] والقرآن لم يُجعل سببا لزيادة الرجس ولكنهم لما أحدثوا بغضا عند ما تُلي عليهم القرآن فحدث لهم بذلك معنى حملهم على ذلك الوجه فأضيفت تلك الزيادة إلى القرآن، إذ عند ذلك حدث ذلك السبب الزائد في الرجس، فنسب إليه على معنى المجاورة.[١٠]

---

[١] ر ث م: وآفة.
[٢] أبليتُ فلانا عذرا، أي بينت وجه العذر لأزيل عني اللوم. وأبلاه عذرا: أدّاه إليه فقبله (*لسان العرب*، «بلا»).
[٣] ر: لعلي.
[٤] ر م: ويستوجب.
[٥] ر ث م: استبدت.
[٦] ن: يبغضهم.
[٧] عن قتادة في قوله: ﴿فلم يزدهم دعائي إلا فرارا﴾ قال: بلغني أنه كان يذهب الرجل بابنه إلى نوح، فيقول لابنه: احذر هذا لا يغرنك فإن أبي قد ذهب بي، وأنا مثلك فحذرني كما حذرتك (*الدر المنثور* للسيوطي، ٢٧٩/٨).
[٨] جميع النسخ: المجاوزة. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٥ظ.
[٩] سورة التوبة، ١٢٥/٩.
[١٠] ر ث م: المجاوزة.

وقال الله تعالى: فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي،[1] وهم لم يكونوا مُنْسِين[2] بل كانوا مذكِّرين[3] يذكّرونهم مرة بعد مرة، لكن بغضهم إياهم[4] واتخاذُهم[5] سخريا أوقع[6] لهم النسيان، فنسب إليهم الإنساء.[7] فعلى ذلك لما أبغضوا واستثقلوا كلامه ودعاءه أحدث لهم ذلك البغضُ زيادةَ نِفارٍ[8] وجحود.[9] ثم نُسب[10] النفار إلى الدعاء للوجه[11] الذي / ذكرنا لا[12] أن يكون الدعاء [٨٤٨و] في الحقيقة منفِّرا.[13]

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾[٧]

وقوله عز وجل: **وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم**، وقال في موضع آخر: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ -إلى قوله- فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ.[14] فيجوز أن يكون هذه الآية فيما كانوا[15] يَدْعُون رؤساءهم وأشرافهم والأَجِلَّة منهم، فإذا دعاهم ردوا[16] أيديهم في أفواه الأنبياء عليهم السلام وضربوهم على ما ذكر في الأخبار. وأما الأتباع منهم والمقلِّدون لهم كانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم

---

[1] سورة المؤمنون، ٢٣/١١٠.

[2] ر ث م: منسيين.

[3] ر م: مذكورين.

[4] ث: اتاهم.

[5] م: واتخذهم.

[6] ر: أو وقع.

[7] جميع النسخ: الإنشاء. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٥ظ.

[8] ر: نفاد.

[9] ر: وجحور.

[10] جميع النسخ: ثم سبب. والتصحيح من المرجع السابق.

[11] جميع النسخ: الوجه. والتصحيح من المرجع السابق.

[12] ر: إلا.

[13] ر ن م: منفر.

[14] ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فرَدُّوا أيديَهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أُرسِلتُم به وإنا لَفِي شك مما تدعوننا إليه مُريب﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/٩).

[15] ر ث م – كانوا.

[16] ن: يردوا.

ويُغَطُّون وجوههم ورُءُوسهم كي لا يسمعوا كلامه فيقع شيء منه[١] في قلوبهم لِما حذَّرهم رؤساؤهم عن ذلك. أو يكون هذا في طائفة منهم وهذا في طائفة إذا كان أيس من قوم وأقبل على آخرين فاختلفت معاملتهم معه على ما كان من أمر نبينا محمد صلى الله. ثم هذا يحتمل وجهين. أحدهما على التحقيق على[٢] ما ذكرنا ليؤيسوه[٣] من الإجابة. والثاني جائز أن يكون على التمثيل؛ فضَرب مَثَلَهم في تركهم الإجابة مثل من جعل أَصْبَعَيْه[٤] في أذنيه واستغشى ثيابه لئلا يسمع ولا يجيب.[٥] وهو كقوله عز وجل: فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ،[٦] ولم يوجد منهم نَبْذٌ ولكنهم أعرضوا عنه إعراض من يَنْبِذه[٧] وراء ظهره، وكذلك في قوله عز وجل: فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ، على التمثيل، وهو أنهم تركوا الإجابة إلى ما دُعوا إليه كترك[٨] الإجابة من الذي يَرُدّ يدَه في فِيهِ لئلا يتكلمه.[٩] *والله أعلم.*

وقوله عز وجل: **وَأَصَرُّوا**، أي داموا على ما هم عليه وثبتوا على كفرهم. وقال قتادة: **وأصروا**، أي صاحوا في وجوه الأنبياء عليهم السلام ردا عليهم، أو مغالبة في الدعاء، كقوله: وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ.[١٠] وقوله عز وجل: **واستكبروا استكبارا**، أي استكبروا عن طاعة الله تعالى وامتنعوا عن الإجابة لرسوله عليه السلام.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾[٨] ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾[٩]

وقوله عز وجل: **ثم إني دعوتهم جهارا، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا**، ففي هذا إخبار أنه دعاهم إلى عبادة الله في كل وقت تهيَّأ له من ليل أو نهار ولم يقصّر فيها

---

[١] جميع النسخ: منها. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٦و.

[٢] ر م – على.

[٣] جميع النسخ: ليؤيسوهم. والتصحيح من المرجع السابق.

[٤] جميع النسخ: من أصبعه. والتصحيح من المرجع السابق.

[٥] ث: لئلا يجيب ولا يسمع.

[٦] ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتُبَيِّنُنَّه للنَّاس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٨٧).

[٧] ر ن م: نبذه.

[٨] ر ث م: ترك.

[٩] ث: لئلا يكلمه.

[١٠] ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ (سورة فصلت، ٤١/٢٦). قال قتادة: قدمًا قدمًا في معاصي الله للتهائهم عن مخافة الله حتى جاءهم أمر الله (*النكت والعيون* للماوردي، ٦/١٠٠).

ودعاهم في كل وقت رجاء الإجابة منهم. ويحتمل **إني دعوتهم جهارا**، أي إذا بَعُدوا مني وازدحموا وكَثُروا[١] فدعاهم جهارا ليعمّهم الدعوة. وقوله عز وجل: **وأسررت لهم إسرارا**، إذا قربوا منه وقلُّوا، فلما أدخلوا أصابعهم في آذانهم واستغشَوا ثيابهم أعلن في الدعاء. ثم جائز أن يكون الجهر والإسرار منصرفا إلى الدعوة ويكون الإعلان إعلانا بالحجج وإظهارا للبينات، وإلى هذا يذهب أبو بكر الأصم.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾[١٠]

وقوله عز وجل: **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا**، فالاستغفار طلب المغفرة بما[٢] ذكر من قوله عز وجل: أَعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ،[٣] فيكون هذا منه أمرا لهم بإتيان[٤] الإيمان الذي هو سبب المغفرة لا أمرا[٥] بسؤال المغفرة نفسها[٦] من الله تعالى؛ إذ استغفار كل قوم يرجع إلى أحوالهم، فإن كانوا[٧] كَفَرَةً فهو إيمان بالله تعالى، وإن كانوا أصحاب ذنوب فالتوبة إلى الله تعالى، وإن كانوا مخلصين فمما سلف من ذنوبهم مما لا يعلمونها[٨] ونحو ذلك.

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾[١١] ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾[١٢]

وقوله عز وجل: **يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا**، فيحتمل إنما قال هذا لأنهم كانوا في شدة عَيشٍ وضيقِ حال فوعد[٩] أنهم أن انتهَوا عن الكفر وأجابوا إلى ما يدعوهم إليه غفر الله لهم[١٠] ذنوبهم، وأرسل[١١] السماء عليهم

---

[١] ر م: وأكثروا.
[٢] م + بما.
[٣] الآية ٣ من هذه السورة.
[٤] ر م: بإتياء.
[٥] ر ث م: لا أمر.
[٦] ر ن ث: نفسه؛ م – نفسها.
[٧] جميع النسخ: إذا كانوا. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٦و.
[٨] ر م: يعملوهما؛ ن: يعملوها؛ ث: يعلمونها. والتصحيح من المرجع السابق.
[٩] ر م: توعد.
[١٠] ن – لهم.
[١١] ن: وليرسل.

مِدْرارا فيتوسعوا به، على ما قال[١] بعض أهل التأويل: إن الله تعالى قد حبس[٢] عنهم المطر وعقُمت أرحام نسائهم وهلكت مواشيهم وجناتهم لتمام أربعين سنة.[٣] ثم أُهلكوا بعد ذلك وكانوا كلهم كفارا ليس فيهم صغير فلذلك كان نوح عليه السلام يَعِدُهم[٤] بما ذكرنا. ***والله أعلم***.

ويحتمل أن يكونوا[٥] خافوا انقطاع النعمة عنهم بالإجابة وزوال السعة عنهم،[٦] ومن الناس من يترك[٧] الإيمان خشية هذا، فأخبر عز وجل أن الذي هم فيه من رغد العيش لا ينقطع عنهم بالإسلام بل يرسل عليهم المطر من السماء مدرارا متتابعا ويمددهم بأموال وبنين مع ما يجعل لهم من الجنات[٨] والأنهار؛ لكن ذووا[٩] الألباب والعقلاء ينظر إلى حسن العاقبة وما إليه مردُّه[١٠] دون الحال، فذلك الذي يُرغِّبه فيه. ولذلك اختلفت دعوة النبي عليه السلام لأمته، فمنهم من بشره[١١] بكثرة أمواله وبنيه،[١٢] ومنهم من رغَّبه في آخرته، [كقوله:][١٣] فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ،[١٤] وقال: قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ،[١٥] الآية. ونظير الأول كقوله عز وجل: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.[١٦] والأصل أن الرسل عليهم السلام بعثوا مبشرين ومنذرين[١٧] داعين زاجرين محتجِّين مُدْحضين.

---

[١] ر ث م + به.

[٢] ر: قد جلس.

[٣] *تفسير مقاتل بن سليمان*، ٤٠٢/٣.

[٤] ن: بعدهم.

[٥] ن: أن يكون.

[٦] ر م + بالإسلام.

[٧] ث: من ترك.

[٨] ر م: من الجنان.

[٩] ر ث: ذوى؛ ن م: ذو. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٦و.

[١٠] ر ن م: مودة.

[١١] ر ث م: يسره.

[١٢] ث: وبنيته.

[١٣] الزيادة من المرجع السابق.

[١٤] ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ (سورة يونس، ٥٨/١٠).

[١٥] ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله﴾ (سورة آل عمران، ١٥/٣).

[١٦] سورة الأعراف، ٩٦/٧.

[١٧] ن ث: منذرين.

فما تلوا[1] عليهم من أنباء الأولين دخل فيهم جميع الأوجه الثلاثة؛ إذا النِّذارة والبِشارة مرة تقع[2] بالابتداء ومرة بذكر[3] ما ينزل بالمتقدمين المصدقين منهم والمكذبين أن كيف كان عواقب [٨٤٨ظ] / هؤلاء وهؤلاء. وكذلك الدعاء والرحمة يكون مرة بابتداء الدعاء والزجر، و[مرة][4] بذكر[5] الأمم السالفة، وأن الرسل كيف كانوا يدعونهم ثانيا. ***والله أعلم.***

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[١٣] ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[١٤]

وقوله عز وجل: **ما لكم لا ترجون لله وقارا**، قال[6] أبو بكر الأصم: تأويله كيف لا ترجون[7] لله ثوابا فتعبدوه[8] فيثيبكم[9] بها وقد علمتم أن الخير كله في يده وأن الذي تعبدونه[10] من دون الله لا يملك[11] لكم نفعا ولا يدفع[12] عنكم ضرا، فجعل قوله: **وقارا**، مكان عبادة. ***والله أعلم.*** وقال غيره:[13] **ما لكم لا ترجون لله وقارا**، أي[14] ما لكم لا ترجون لأنفسكم عند الله منزلة وشرفا وقدرا. وقال بعضهم: أي ما لكم لا تخافون عظمة الله وقدرته[15] عليكم فتنتهُون[16] عما نهاكم[17] وتأتون ما أمركم به. وحملُ الرجاء على الخوف لما قد ذكرنا أن الرجاء المطلق يقتضي الخوف والرجاء جميعا، وكذلك الخوف المطلق يقتضي الرجاء.[18] ***والله أعلم.***

---

[1] جميع النسخ: فما بلوا. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٦و.
[2] ن: يقع.
[3] ر م – بذكر.
[4] ر م: ويذكر؛ ن ث: وبذكر. والزيادة من المرجع السابق.
[5] ر م: ويذكر.
[6] ر ث م: وقال.
[7] ر ن م: لا يرجون.
[8] ر م: فيعبدوه.
[9] ر ن م: فينبئكم.
[10] ر ث م: تعبدون؛ ن يعبدونه. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٦ظ.
[11] جميع النسخ: ما لا يملكون. والتصحيح من المرجع السابق.
[12] جميع النسخ: ولا يدفعون. والتصحيح من المرجع السابق.
[13] ث + وقوله عز وجل.
[14] ر م – ما لكم لا ترجون لله وقارا أي.
[15] ن: وقدرة الله.
[16] ر م: فينتهون.
[17] ث + عنه.
[18] جميع النسخ: رجاء. والتصحيح من المرجع السابق.

والأشبه بالتأويل عندنا أن الرجاء لله[١] تعالى على مثال[٢] الغضب لله والحب لله والبغض لله؛ أي ما لكم لا تسعوْن سعيَ من يرجو ما عند الله على الوقار والهيبة بعد أن شاهدتم من نعم الله تعالى وإحسانه إليكم من خلق السماوات والأرض وتسخير الشمس والقمر وما ذكر من مننه في الآيات التي تتلوها.[٣] وذلك أن المرء إذا سعى لآخر على غير رجاء أو لم يرج أحدا استخف[٤] به. فألزمهم[٥] نوح عليه السلام [فَقْرَهم وحاجتهم إلى ربهم ثم عاتبهم على ترك السعي لله][٦] سَعْيَ من يرجوه على التوقير والهيبة؛[٧] على ما عليه في الشاهد أن الساعي للملوك والكبراء[٨] على الرجاء كيف يكون منهم توقيرهم إياهم وهيبتهم عنهم.[٩] ***والله أعلم.***

وقوله عز وجل: **وقد خلقكم أطوارا**، فمن حمل قوله: **لا ترجون لله وقارا**، على حقيقة الرجاء فتأويله كيف لا ترجون[١٠] أن يَعْظُم قدركم عند الله عز وجل إذا أجبتم إلى ما دعاكم إليه. وفيما ذكر من خلقه إياهم أطوارا[١١] تذكير[١٢] لهم حسن صنيعه لهم فيما قلبهم من حال إلى حال من أول ما أنشأهم[١٣] إلى حالهم التي هم فيها، وكيف لا يرجون[١٤] إحسانه في حادث الأوقات إذا أقبلوا على طاعته واشتغلوا بعبادته. وإن كان قوله عز وجل: **لا ترجون لله وقارا**، على الخوف ففي ما ذكر من قوله عز وجل: **وقد خلقكم أطوارا**، تذكير العظمة والسلطان والقدرة. وهو أنه دبَّركم في تلك الظلمات الثلاث،[١٥] ولم يخفَ عليه أحوالكم فيها

[١] ر ن م: الله.

[٢] ر م: على مال؛ ن ث: على ما له. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٦ظ.

[٣] جميع النسخ: يتلوها. والتصحيح من المرجع السابق.

[٤] جميع النسخ: أو لم يرجو أحدا استحقر. والتصحيح من المرجع السابق.

[٥] ر م: ما لزمهم.

[٦] الزيادة من المرجع السابق.

[٧] ن: والهينة.

[٨] ر م: والكبرياء.

[٩] ر م: عليهم.

[١٠] ر ن م: لا يرجون.

[١١] ر: طوارا.

[١٢] جميع النسخ: تذكر. والتصحيح من المرجع السابق.

[١٣] ر: ما أنساهم.

[١٤] ر ث م: لا ترجون.

[١٥] يشير المؤلف رحمه الله إلى قوله تعالى: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٦). انظر لتأويل «الظلمات الثلاث» تفسير الآية من *تأويلات القرآن* (١٢/٣٠٣).

بل قَلَبَكم من حال إلى حال كيف شاء، فكيف يخفى عليه أفعالكم في حال بروزكم وظهوركم؟ فيكون في ذكر هذا تنبيه أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمال الخلق، فيدعو ذلك إلى[1] المراقبة ويُلزم[2] التيقظ والتبصّرَ في كل[3] حال لئلا يُتعدى حدود الله ولا يضيَّع حقوقُه، فيحُلَّ به البوار والهلاك. فإذا حملتَ[4] التأويل على الرجاء فهو يخرج على غير الوجه الذي حملته على الخوف، لأنك إذا حملته على الرجاء[5] كان فيه تذكير عظيم نعمه عليهم من أول ما أنشأهم إلى الوقت الذي انتهوا إليه، فيحملهم ذلك على طلب ما يَشْرُف قدرهم عند الله تعالى وتحمد[6] عاقبتهم. وإن حملتَه على الخوف كان فيه تذكير القدرة والسلطان فيحملهم على المراقبة والاتقاء في حادث الأوقات. ومن حمل قوله عز وجل: **وقارا**، على العبادة فهو يخرج على غير الوجهين اللذين ذكرنا هما في الخوف والرجاء إذا صُرف إليهما التأويل، كأنه يقول:[7] إن الذي خلقكم أطوارا قد تعلمون أنه حكيم ومن هو حكيم[8] لا يسفه[9] وترْكُكم سدًى لا يأمركم ولا ينهاكم ولا يستأدى منكم شكر النعم سفه. فيكون في ذكر هذا ترغيب في العبادة وإخلاص الطاعة. ويكون في ذكر هذا أيضا تثبيت الربوبية وإلزام القول بالوحدانية، لأنه أنشأهم من أول ما أنشأهم نطفة ثم علقة ثم مُضغةً إلى أن خلقهم بشرا سويا.[10] فلو لم يكن المدبر والمنشئ واحدا[11] لكان يعجز عن تقليبه من حال إلى حال، لأنه إذا أراد أن ينشئ من النطفة[12] علقة ومن العلقة مضغة كان للآخر أن يمنعه عن تدبيره فلا يتهيأ له إنشاء علقة ولا مضغة.

---

[1] ر: ما لا.
[2] ن: ويلتزم.
[3] ث - كل.
[4] ر م: حمل.
[5] ر ث م - فهو يخرج على غير الوجه الذي حملته على الخوف لأنك إذا حملته على الرجاء.
[6] جميع النسخ: ويحمد.
[7] ن: يقوله.
[8] م - ومن هو حكيم.
[9] ن م: لا بسفه.
[10] ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عِظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ (سورة المؤمنون، ١٢/٢٣-١٤).
[11] ر: واحد.
[12] جميع النسخ: من النطف. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٦ظ.

فارتفاع المانع دليل على أن لا مدبر سواه ولا خالق غيره. فإذا ثبت انفراده بما ذكرنا ثبت أنه هو المستحِق للعبادة من الخلائق. وقال بعضهم معنى قوله: **وقد خلقكم أطوارا**، أي مختلف الأخلاق والصور والألوان والألفاظ والأصوات[١] والنغم[٢] حتى لا تَرَى[٣] أحدا يشبه[٤] آخر بجميع خلقته، وهذا من عظيم[٥] ما يستدل به على قدرته وحكمته. ***والله الموفق.***

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾[١٥]

وقوله عز وجل: **ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا**، قد ذكرنا أن قوله: **ألم تروا**، يقتضي تذكير أمر عرفوه فأغفلوا عنه، وقد يقتضي[٦] تذكير أعجوبة لم يَسبِق من الخلائق العلم بها[٧] يقول: قد رأوا أنه خلق سبع سماوات طباقا بغير علائق فوقها ولا أَعْمِدَةٍ[٨] تحتها، ومن قدر على خلق مثله لقادر على خلق كل ما يريد. فيكون فيه إيجاب القول[٩] بالبعث، إذ إعادتهم ليس بأعسر[١٠] من خلق السماوات في تقدير عقولكم، ومن قدر على خلقهن لقادر على البعث. ***والله الموفق.***

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[١٦]

وقوله عز وجل: **وجعل القمر فيهن نورا**، منهم من يذكر أنه جعله نورا في السماء الدنيا وأضافه إلى جملة السماوات. وقد يجوز أيضا أن يضاف الشيء إلى العدد وإن لم[١١] يوجد ذلك إلا في البعض، يقال: في سبع قبائلَ مسجد واحد، والمسجد إذا كان واحدا فهو لا يكون في سبع قبائل وإنما يكون في قبيلة / واحدة. ويقال فلان توارى[١٢] في دُور قوم، [٨٤٩و]

[١] ن - والأصوات.
[٢] ر ث م: والنعم.
[٣] ر ن م: لا يرى.
[٤] ن: تشبيه.
[٥] م: أعظم.
[٦] جميع النسخ: فقد يقتضي. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٧و.
[٧] ن - بها.
[٨] م: ولا عمد.
[٩] ث م: لقول.
[١٠] ن: بأعوز؛ ث: بأعور.
[١١] ر م + يكن.
[١٢] ر ث م: يوارى؛ ن: بوارى. والتصحيح من المرجع السابق.

وهو لا يكون متواريا في دور[١] جملتهم وإنما يكون متواريا[٢] في واحدة[٣] منهن، ثم أضيف التواري إلى الجملة. فكذلك أضاف نور القمر إلى السماوات السبع وإن كان القمر في سماء واحدة. ومنهم من ذكر أن نور القمر قد أحاط[٤] بجميع السماوات. وزعم أن وجهه إلى السماوات وظهره إلى أهل الأرض، ولهذا ما يعمل عليه السواتر[٥] من السحاب وغيره، فأما نور وجهه فإنه لا يستره شيء من السواتر. لكن هذا إنما يعرف بالخبر، فإن صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر فذلك هو وإلا فالإمساك عن مثله أحق.

وقوله عز وجل: **وجعل الشمس سراجا**، فذكر السراج هاهنا مكان الضوء في موضع آخر. وهو قوله: جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً،[٦] فذكر في القمر النور[٧] وفي الشمس الضياء، لأن القمر يكون في وقت الحاجة إلى النور، وذلك في ظلمة الليل. ثم الله تعالى أنشأ الليل ليُسْكَن فيه لكن قد يبدو للخلائق[٨] بالليل حوائج يحتاجون إلى قضائها،[٩] فمنَّ الله تعالى عليهم بنور القمر ليتوصلوا بنوره إلى قضاء حوائجهم،[١٠] وجعل الشمس ضياء ليخْتَطِف ضوءها نورَ الليل ويغلب عليه ولا يختطف نور النهار نورَ الشمس. ***والله أعلم.***

﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[١٧]

وقوله عز وجل: **والله أنبتكم من الأرض نباتا**، فجائز أن يكون أضاف الإنبات إلى الأرض ويُرَدُّ ذلك إلى الأصل الذي خُلق من التراب وهو آدم عليه السلام، فنسب الفرع إلى الذي خلق [منه][١١] الأصل[١٢] لحدوثه منه، لا أن يكون خلق الجملة من التراب؛ وهو كقوله عز وجل:

---

[١] م + وهو لا يكون متواريا في دور قوم.
[٢] ر م – في دور جملتهم وإنما يكون متواريا.
[٣] ن ث: في واحد.
[٤] ر ث م: أخلط.
[٥] م: السوائر.
[٦] ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا﴾ (سورة يونس، ٥/١٠).
[٧] ر م: نورا.
[٨] م: للخلق.
[٩] ث: إلى قضائهن.
[١٠] ن: ليتوصلوا إلى قضاء حوائجهم بنوره.
[١١] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٢٧٧و.
[١٢] ر ث م – وهو آدم عليه السلام فنسب الفرع إلى الذي خلق الأصل.

وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ،[١] والذي لنا في السماء هو المطر لا الذي نرتزق به ولكن الذي نرتزق[٢] به أصله[٣] المطر، فنسب إلى المطر،[٤] لأنه هو الأصل الذي يتوصل به إلى الأرزاق. فكذلك الخلائق لما كانوا من نسل آدم عليه السلام وكان هو أصلا لهم أضيف النسل إلى الذي حدث منه الأصل. ويحتمل أن يكون يرجع هذا[٥] إلى كل في نفسه، وذلك لأن حياة الأبدان وقوامها بالذي يخرج من الأرض وينبت منها من أنواع الأغذية. فإذا كان قوامها بما ينبت منها فكأنما أَنْبَتَنَا منها، فاستقام أن يضاف الإنبات إليها كما يستقيم أن يضاف خروج الثمار إلى الأرَضين وإن كان حدوثها من الأشجار، إذ قوام الأشجار[٦] وبقاؤها بها، فنسب ما يخرج منها إلى الأرضين[٧] على التقدير الذي ذكرنا.

ففي قوله: **والله أنبتكم من الأرض نباتا،** على التأويل الأول إثبات القدرة على البعث وإلزام الحجة على من يجحد كونه، لأنه يذكّرهم قدرته أنه أنشأهم من الأرض ولم يكونوا شيئا، فمن قدر على إنشائهم من الأرض بعد أن كانوا ترابا لقادر على أن يعيدهم إلى الحالة التي كانوا عليها من كونهم بشرا سويا وإن صاروا عظاما رفاتا،[٨] لأنهم كانوا يزعمون أن كيف يُعادون[٩] خلقا جديدا بعد أن صاروا ترابا،[١٠] فاحتج عليهم بأمر[١١] الابتداء من الوجه الذي ذكرنا. وإن كان على التأويل الثاني ففيه تذكير نعمه أن قد أخرج لهم من الأرض ما يتعيشون به ويقيمون[١٢] به أَوَدهم[١٣] ليستأدي[١٤] منهم الشكر. وفيه تذكير قوته وسلطانه ليخوّفهم عقابه فيتقوا سخطه ويطلبوا مرضاته.

---

١ سورة الذاريات، ٥١/٢٢.
٢ جميع النسخ: يرزق به ولكن الذي يرزق. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٧و.
٣ ر م: أصل.
٤ م – فنسب إلى المطر.
٥ ن – هذا.
٦ ن + وقوامها.
٧ ر ث م: إلى الأرض.
٨ ر ث م: ورفاتا.
٩ ر ن م: يعادوا.
١٠ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا وقالوا أإذا كنا عِظاما ورُفاتا أ إنا لمبعوثون خلقا جديدا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٤٨-٤٩).
١١ ر: بالأمر.
١٢ ن: وتقيمون.
١٣ يقال: أقام أَوَدَه: قوّم اعوجاجه (*المعجم الوسيط*، «أود»).
١٤ ر م: يستأدى؛ ن ث، أو ليستأدي. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٧و.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[١٨]

وقوله عز وجل: **ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا**، فجمع بين الإعادة والإخراج بحرف الجمع، وجعل قوله عز وجل: **ويخرجكم**، في موضع ثم، لأن هذا الإخراج يكون بعد الإعادة إلى الأرض، فيكون في هذا دليل أن أحد[١] الحرفين وهو الواو قد يستعمل مكان ثم.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾[١٩]

وقوله عز وجل: **والله جعل لكم الأرض بساطا**، أي جعلها كالشيء المبسوط الذي يُنتفع ببسطه،[٢] ولو لم يجعلها كذلك لم يتوصلوا إلى حوائجهم ولا الانتفاعِ بها.[٣] ففي ذكر هذا تذكير ما لله[٤] تعالى عليهم من عظيم المنة.

﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾[٢٠]

وقوله: **لتسلكوا منها سبلا فجاجا**، قيل: الفجاج هي[٥] الطرق الواسعة؛ وقيل: السُّبل في السهل، والفجاج الطرق في الجبال.[٦] وهذا أيضا من عظيم نعم الله تعالى على عباده، لأن الله تعالى قدّر أرزاق الخلق في البلاد فلو لم يجعل[٧] لهم في الأرض سبلا لم يجدوا طريقا يسلكونه فيتوصلون به إلى ما به قوام أبدانهم، فصارت الطرق المتخذَة لما نسلك[٨] فيها فنصل[٩] إلى حوائجنا وإلى معايشنا كالدواب التي سخرت لنا فنتوصل[١٠] بها إلى حوائجنا. وهذا يبين لك أن مُلك أقطار[١١] الأرض وتدبيرها يرجع إلى الواحد القهار، لأنه أحوجَ الخلقَ في الانتشار[١٢] إلى البلاد لإقامة أَوَدِهم، وجعل لهم سببا يتوصلون إلى ذلك، فثبت أن مالك الأقطار واحد.

---

[١] ن ث: إحدى.

[٢] ر م: يبسط.

[٣] م – بها.

[٤] ر م: بالله.

[٥] ر م – هي.

[٦] ر م: في الجبل.

[٧] ر م: فلو جعل.

[٨] ر: لا يسلك به؛ ن ث م: لما يسلك. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٧ظ.

[٩] ن: فيصل.

[١٠] ن: فيتوصل.

[١١] ن: أقصار.

[١٢] ر م: في الأنساب؛ ث: في الانتساب.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾[٢١]

وقوله عز وجل: **قال نوح رب إنهم عصوني**، أي عصوني فيما أمرتهم به أو فيما دعوتهم إليه. وقوله عز وجل: **واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا**، يشبه أن يكون المتبوعون هم الكفرةَ[١] الذين كثرت أموالهم وحواشيهم؛ استتبعوا مَن دونهم فتبعوهم[٢] ولم يتبعوا نوحا عليه السلام؛ وقد كان نوح يدعوهم إلى اتباعه. فأخبر أنهم لم يتبعوه وإنما تبعوا من كثرت أمواله وأولاده وحواشيه. فيكون هذه الآية في الأتباع أنهم / اتبعوا[٣] أجلتهم ورؤساءهم ليس في رؤسائهم وما [٨٤٩ظ] تقدم من الآيات في أجلتهم من دعاء نوح عليه السلام إياهم إلى التوحيد وغيره. ويحتمل أن يكون هذه الآية في الأجلة والضعفة جميعا فيكون قوله تعالى: **واتّبعوا**، أي اتبعوا من تقدمهم من أهل الثروة والغنى[٤] والذين[٥] وُسّعت عليهم الدنيا وبسطت لهم، ظنا منهم أنهم أحق بالله تعالى وأقرب إليه في المنزلة. والذي حملهم على هذا هو أنهم[٦] لا يرون أحدا في الشاهد يترك[٧] صلة وليه ويصل عدوه، فيرون أنه إذا بُسطت على رؤسائهم الدنيا [و]وسّع الله تعالى عليهم وضيّق على هؤلاء أن أولئك أقرب منزلة وأعلى حالا وأنهم هم الأولياء، وهم لا يؤمنون بالآخرة وثوابها. فكانوا يزعمون أنه يوفِّر الجزاءَ على الأولياء والمحسنين في الدنيا، وزعموا أن من وُسّع عليه الدنيا فهو أحق أن يكون وليا لله تعالى حيث وصل إليه الجزاء فيها، فهذا الظن هو الذي حملهم على الاتِّباع.[٨]

وقوله عز وجل: **إلا خسارا**، أي بَوارا وهلاكا لذلك المتبوع، فكانت تلك النعم التي ظنوا أنهم أكرموا بها بصنيعهم سببا لخسارهم. ثم قوله عز وجل: **واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا**، كقوله: فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.[٩] ثم قد بينا تأويل شكايته إلى الله تعالى من قومه،[١٠] فهذه الآية وتلك الآيات في معنى تأويل الشكاية إلى الله تعالى واحد.

---

[١] جميع النسخ – الكفرة. والزيادة من *الشرح*، ورقة ٢٧٧ظ.
[٢] ر ن م: فيتبعوهم؛ ث: فاتبعوهم. والتصحيح من المرجع السابق.
[٣] ر م + أنهم اتبعون.
[٤] جميع النسخ: والغنا.
[٥] ث: والغناء الذين.
[٦] جميع النسخ: وهو أنهم.
[٧] ر: ترك؛ ث: بترك؛ م: تركك.
[٨] ر: على اتباع.
[٩] سورة التوبة، ٩/٥٥.
[١٠] انظر تأويل الآية ٥ وما بعدها من هذه السورة.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾[٢٢]

وقوله عز وجل: **ومكروا مكرا كبارا**، قال بعضهم: إنهم كانوا[١] يمكرون ما يمكرون بألسنتهم، حيث كانوا يدعونهم إلى الكفر والصد عن سبيل الله، فكَنّىَ بالمكر عما قالوه بألسنهم[٢] فكان ذلك مكرا كبارا أي قولا عظيما. وجائز أن يكون على حقيقة المكر، وهو أن رؤساءهم مكروا بأتباعهم حيث قالوا: إن هؤلاء لو كانوا أحق بالله تعالى منا لكانوا هم الذين يوسّع عليهم ويُضيّق علينا، فإذا[٣] وُسّع علينا وضيق عليهم ثبت أنا نحن الأولياء والأصفياء دون[٤] غيرنا. وهذا منهم مكر عظيم لأنه يأخذ قلوب أولئك فيصدهم عن سبيل الله تعالى. وجائز أن يكون مكرهم ما ذُكر أنهم كانوا يأتون بأولادهم الصغار إلى نوح عليه السلام ويقولون لهم: إياك واتباعَ هذا فإنه ضال مضل، فكان هذا مكرهم بصغارهم.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[٢٣]

وقوله عز وجل: **وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا**، الآية. هذه المقالة منهم كانت بعد أن انقادت[٥] لهم الأتباع واتبعتهم[٦] إلى ما دعوهم إليه من عبادة الأصنام.[٧] فقالوا بعد ذلك: **لا تذرن آلهتكم**، أي لا تذرن عبادتها. وقوله عز وجل: **ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا**، هي أسماء الأصنام التي كانوا يعبدونها.[٨] ثم يحتمل أن يكون الذي بعثهم على عبادة الأصنام ما ذكره أهل التفسير[٩] أن قوم نوح اتخذوا هذه الأصنام

---

[١] ر ن م – كانوا.

[٢] ر: بسنتهم.

[٣] ث: فإذ.

[٤] م: بدون.

[٥] ث م: انقاده.

[٦] م: واتبعهم.

[٧] ر ث م: من الأصنام.

[٨] عن ابن عباس رضي الله عنهما صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بَعْدُ. أما وَدٌّ فكانت لكلب بدُومَة الجَندَل، وأما سُواعٌ فكانت لهذيل، وأما يَغُوثُ فكانت لمُرَادٍ ثم لبني غُطَيْفٍ بالجُرُف عند سَبَإٍ، وأما يَعُوقُ فكانت لهَمْدانَ، وأما نَسْرٌ فكانت لِحِمْيَر لآل ذي الكَلَاع، أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوح. فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ العلم عُبِدَتْ (*صحيح البخاري*، تفسير القرآن ٧١).

[٩] ر: على التفسير.

أولَ ما اتخذوها على صورة رجال عبّاد كانت هذه الأسماء أسماءهم فسمّوا الأصنام بأسماء العُبّاد ليعتبروا بها ويجتهدوا في العبادة إذا نظروا إليها. فلما مضى ذلك القرن الذي اتخذوها عِبرْة وخَلَفَهم[١] قرن بعدهم قال لهم الشيطان: إن الذين[٢] مِن قبلكم كانوا يعبدون هذه الأصنام، فعبدوها. ومنهم من ذكر أن جسد آدم عليه السلام كان عند نوح، يترك كلَّ مؤمن في زمانه أن يدخل فينظر إلى جسد آدم[٣] عليه السلام، ومن لم يكن مؤمنا لم يَدَعْه أن ينظر إليه. فجاء إبليس إلى الكفار فقال: أيفخر نوح ومن آمن به عليكم بجسد آدم وأنتم كلكم ولده، فصنع لكل قوم صنما على صورة آدم فكانوا يعبدون تلك الصورة.[٤] ويحتمل أن يكون الذي بعثهم على ذلك هو أنهم لم يروا أنفسهم تصلح[٥] لعبادة رب العالمين كما يرى هؤلاء الذين يخدمون الأجلة في الشاهد لا يَطمع كل واحد منهم في خدمة الملوك ولا يرى نفسه أهلا لخدمتهم، بل يشتغل بخدمة من دونه أوّلًا على رَجاء أن يقربه إلى المَلِك. فكذلك[٦] هؤلاء حسبوا أنهم لا يصلحون لخدمة رب العالمين، فكانوا إذا رأوا شيئا حسنا كانوا يظنون أن حُسْنه لمنزلة له عند الله تعالى لا غير. فكانوا يُقبلون على عبادته رَجاءَ أن يقربهم إلى الله تعالى. فجعلوا الأصنام على أحسن ما قدروا عليه، ثم اشتغلوا بخدمتها وعبادتها رجاء أن يقربهم إلى الله تعالى كما[٧] قال عز وجل حكاية عنهم: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى،[٨] وقال:[٩] وَيَقُولُونَ هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ.[١٠] فجائز أن يكون هذا الحِسْبان هو الذي حملهم على عبادتها وتعظيم شأنها. والله أعلم أيَّ ذلك كان.

[١] ن: وحلفهم.
[٢] ر ن م: إن الذي.
[٣] ن: إلى آدم.
[٤] وذُكر أيضًا عن ابن عباس: أن نوحًا عليه السلام، كان يحرس جسد آدم عليه السلام على جبل بالهند، فيمنع الكافرين أن يطوفوا بقبره، فقال لهم الشيطان: إن هؤلاء يفخرون عليكم ويزعمون أنهم بنو آدم دونكم، وإنما هو جسد، وأنا أصوّر لكم مثله تطوفون به، فصوّر لهم هذه الأصنام الخمسة وحملهم على عبادتها (*الجامع لأحكام القرآن* للقرطبي، ٣٠٨/١٩).
[٥] جميع النسخ: يصلح. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٨و.
[٦] ث: فلذلك.
[٧] ر ث م – كما.
[٨] سورة الزمر، ٣/٣٩.
[٩] ن – وقال.
[١٠] سورة يونس، ١٨/١٠.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾[٢٤]

وقوله عز وجل: **وقد أضلوا كثيرا**، فجائز أن يكون أريد به الكبراء أنهم أضلوا كثيرا،[١] أي دعوا إلى الضلال وزينوه في قلوبهم فأضلوا[٢] سفهاءهم[٣] بذلك. وجائز أن يكون أريد به الأصنام ولكن حقه إن كان على الأصنام أن يقول: وقد أضللن كثيرا كما قال إبراهيم عليه السلام: رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ.[٤] ولكن الإضلال من فعل الممتحَنين، والأصنام
[٨٥٠و] ليست لها أفعال، فلما نسب إليها نسبةَ من يوجد[٥] منه الفعل / أُخرج الخطاب على الوزن الذي يخاطب به من يوجد منه هذا الفعل، وهو كقوله تعالى: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا،[٦] فأضاف إلى القرية فعل أهلها. والفعلُ إذا أضيف إلى الأهل أضيف بلفظ التذكير، ثم أنّث هاهنا لإضافة[٧] فعل الأهل إلى القرية، ولو كانت القرية بحيث[٨] يكون منها الفعل لكان الخطاب يقع[٩] عنها بلفظة[١٠] التأنيث لا بلفظة[١١] التذكير. فحيث أضيف إليها فعل أهلها أُنّث كما يوجب لو كان الفعل متحققا منها. ثم الأصنام لا يتحقق منها الإضلال ولكن معنى[١٢] الإضافة هاهنا هو أنها انشئت على هيئة[١٣] لو كانت تلك الهيئة ممن يُضل لأَضلَّ، وهو[١٤] كما قلنا[١٥] في تأويل[١٦] قوله عز وجل: وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا.[١٧]

---

[١] ن – فجائز أن يكون أريد به الكبراء أنهم أضلوا كثيرا.
[٢] جميع النسخ ما ضلوا. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٨و.
[٣] ث: سفهاهم.
[٤] سورة إبراهيم، ٣٦/١٤.
[٥] ن ث – يوجد.
[٦] سورة الطلاق، ٨/٦٥.
[٧] ر ن ث: الإضافة.
[٨] ث: يبحث.
[٩] جميع النسخ يرتفع. والتصحيح من المرجع السابق.
[١٠] ر ن م: بلفظ.
[١١] ر ث م: لا بلفظ.
[١٢] جميع النسخ: بمعنى. والتصحيح من المرجع السابق.
[١٣] ر: على هيئته.
[١٤] ر م: هو.
[١٥] ن: قالنا.
[١٦] ر ث م: في تأويله.
[١٧] سورة الأنعام، ٧٠/٦، ١٣٠؛ وسورة الأعراف، ٥١/٧.

وقوله عز وجل: **ولا تزد الظالمين إلا ضلالا**، فهذا يشبه أن يكون بعد ما بُيِن له أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ،[١] فإذ علم أنهم لا يؤمنون لم يَدْعُ[٢] لهم بالهدى ولكن دعا الله تعالى ليزيد في إضلالهم، ويكون الإضلال عبارة عن الهلاك،[٣] والضلال [عبارة عن][٤] الهلاك،[٥] قال الله تعالى: وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ،[٦] أي هلكنا.[٧]

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا﴾[٢٥]

وقوله عز وجل: **مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا**، فحرف[٨] ما هاهنا صلة في الكلام، ومعناه: بخطيئاتهم أو من خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا في الآخرة، أو أغرقت[٩] أبدانهم وأجسادهم ورُدّت أرواحهم[١٠] إلى النار. **فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا**، أي لم يجدوا لأنفسهم بعبادتهم مَن عبدوا مِن دون الله أنصارا من المعبودين، لأنهم كانوا يعبدون من يعبدون من دون الله ليقربهم[١١] إلى الله ويكونوا لهم شفعاء وعزًّا،[١٢] فلم يجدوا الأمر على ما قدّروه عند أنفسهم.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[٢٦]

وقوله عز وجل: **وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا**. قيل: تأويله: لا تذر على الأرض من الكافرين ساكن دارٍ، وإذا لم يبق منهم ساكن دار فقد ماتوا جميعا وهلكوا،[١٣] فكأنه يقول: لا تذر منهم أحدا.

---

[١] ﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ (سورة هود، ٣٦/١١).
[٢] ر ث م: لم يدعو؛ ن: لم يدعوا. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٨و.
[٣] ر م: من الهلاك.
[٤] الزيادة من المرجع السابق.
[٥] ن ث م: والهلاك.
[٦] ﴿وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد﴾ (سورة السجدة، ١٠/٣٢).
[٧] ر: أي أهلكنا.
[٨] ر م: فحذف؛ ن ث: فحذف. والتصحيح من المرجع السابق.
[٩] ر: إذا غرقت؛ ن م: إذا مزقت؛ ث: إذا أغرقت. والتصحيح من المرجع السابق.
[١٠] ر م: أزواجهم.
[١١] ر ث م – أنصارا من المعبودين لأنهم كانوا يعبدون من يعبدون من دون الله ليقربهم؛ ث: فقربهم.
[١٢] يقول الله تعالى: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى﴾ (سورة الزمر، ٣/٣٩)؛ ويقول: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ (سورة يونس، ١٨/١٠)؛ ويقول أيضا: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عِزًّا﴾ (سورة مريم، ٨١/١٩).
[١٣] ر ث م: فهلكوا؛ ن: مادوا جميعا وهلكوا.

﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[٢٧]

وقوله عز وجل: **إنك إن تذرهم يضلوا عبادك**، هذا كلام شنيع في الظاهر من نوح عليه السلام، لأنه خارج مخرج الإنكار على الله تعالى لو تركهم ولم يهلكهم. وهذا يشبه بقول من قال: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ،[١] وهذا أيضا خارج مخرج التنكير[٢] لله تعالى أنه لو أبقاهم أدى ذلك إلى إضلال العباد. وفيه تقدم بين يدي الله تعالى، وذلك عظيم. ولأنه ليس في شرط الألوهية إهلاك مَن عملُه الإضلال، ألا ترى أن إبليس اللعين وأتباعه جُلُّ سعيه في إضلال بني آدم، ثم لم يُستأصلوا و لم يُهلكوا بل أُبقوا إلى الوقت المعلوم. ولكنه يجوز أن يكون دعا[٣] عليهم بعد أن أذن له[٤] بالدعاء[٥] عليهم بالهلاك والبوار،[٦] فيكون الدعاء بالهلاك على تقدم الأدب. والأصل أن الرسل عليهم السلام بُعثوا لدعاء[٧] الخلق إلى الإسلام وكانوا في دعائهم راجين للإسلام[٨] منهم خائفين عليهم بدوامهم على الكفر. فلما[٩] قيل لنوح[١٠] عليه السلام: أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ،[١١] وقع له الإياس عن إسلام من تخلف[١٢] عن الإيمان فارتفع معنى الدعاء إلى الإسلام. فجائز أن يرد له[١٣] الإذن بعد ذلك بالدعاء عليهم بالهلاك فيدعو إذ ذاك. ثم يكون قوله: **إن تذرهم يضلوا عبادك**، خارجا[١٤] مخرج الإشفاق والرحمة على من معه من المؤمنين، وهو أن الذين داموا على الكفر لو أبقُوا خيف منهم[١٥]

---

[١] سورة البقرة، ٢/٣٠.
[٢] ر ن ث: التكبر؛ م: التذكير. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٨و.
[٣] ر ث: دعاء.
[٤] ث – بعد أن أذن له.
[٥] ث: دعاء.
[٦] ن: والثواب.
[٧] ر: الدعاء.
[٨] ر ث م: الإسلام.
[٩] جميع النسخ: فيما. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٨ظ.
[١٠] ر م: نوح.
[١١] سورة هود، ١١/٣٦.
[١٢] ن: يخلف.
[١٣] ر + له.
[١٤] ر ث م: خارج.
[١٥] ر ث م: منهم؛ ن + على الكفرة.

أن يُضلوا المؤمنين ويعيدوهم[١] إلى ملتهم.[٢] فيكون شفقته على المسلمين داعية له إلى الدعاء على الإهلاك[٣] على الكفرة[٤] لئلا يتوصلوا إلى الإضلال.

وقوله عز وجل: **ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا**، وقت بلوغهم المحنة والابتلاء، فحينئذ يوجد منهم الفجور لا أن[٥] يلدوا فجارا كفارا، إذ لا صنع[٦] لهم في ذلك الوقت. وهو كقوله تعالى: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ،[٧] أي نبتليه لوقت بلوغه[٨] المحنة والابتلاء لا أن يُبْتَلَى وقتَ ما يُنْشَأُ.[٩] وفي هذه الآية دلالة أن الكفر قد يقع عليه اسم الفجور، لأنه أُخرج[١٠] قوله: **كفارا**، مخرج التفسير لقوله: **فاجرا**، لذلك[١١] استقام أن يحمل تأويل قوله تعالى: وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ،[١٢] على الكفرة.

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾[٢٨]

وقوله عز وجل: **رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا**، هكذا الواجب على المرء في الدعاء والاستغفار أن يبدأ بنفسه ثم بوالديه ثم بالمؤمنين. ثم قوله:[١٣] **بيتي**، قال بعضهم:[١٤] سفينتي، وقال بعضهم:[١٥] **بيتي**،[١٦] ديني، فيكون البيت كناية عن الدين والملة.[١٧]

---

[١] جميع النسخ: ويغيروهم. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٨ظ.
[٢] ث: أصلهم.
[٣] جميع النسخ: على الهلاك. والتصحيح من المرجع السابق.
[٤] ر م: على الكفر.
[٥] ر ث م: لأن.
[٦] ر ن م: أو لا صنع؛ ث: ولا صنع. والتصحيح من المرجع السابق.
[٧] سورة الإنسان، ٧٦/٢.
[٨] ر م: بلوغ.
[٩] ر: ما ينسأ؛ م: ما يشاء.
[١٠] ر ث م: الفجور لو خرج.
[١١] ر ث م - لذلك.
[١٢] سورة الانفطار، ٨٢/١٤.
[١٣] جميع النسخ: + في. والتصحيح من المرجع السابق.
[١٤] جميع النسخ: + أي في. والتصحيح من المرجع السابق.
[١٥] جميع النسخ: + في. والتصحيح من المرجع السابق.
[١٦] جميع النسخ: + أي في. والتصحيح من المرجع السابق.
[١٧] الزيادة من المرجع السابق.

وقال بعضهم: إنما هو بيته الذي يسكن فيه لما أطلعه الله تعالى أن من دخل بيته[١] مؤمنا لا يعود إلى الكفر. {قال الشيخ رحمه الله:} ثم إن أرجى[٢] الأمور للمؤمنين في الآخرة دعاء الأنبياء والملائكة عليهم السلام في الدنيا، لأنهم إنما يدعون بعد الإذن لهم بالدعاء، ولا يحتمل أن يأذن الله تعالى لهم بالدعاء ثم لا يجيب[٣] دعوتَهم.[٤] وذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن نوحا عليه السلام دعَا بِدَعْوتين. إحداهما للمؤمنين بالاستغفار والتوبة، والثانية على الكفار بالبوار والتبار،[٥] وقد أجيبت دعوته فيما دعا على الكفرة فلا يجوز أن يجاب في شر الدعوتين، ثم لا يجاب في خير الدعوتين.[٦]

وقوله عز وجل: **ولا تزد الظالمين إلا تبارا**، قيل: كَسْرا وذُلًّا[٧] وصغارا؛ فإنه مشتق[٨] [٨٥٠ظ] من التَّبْر / وكل مكسور يقال له: تَبْر، فكأنه يقول: إكْسِرْ مَنَعَةَ الظالمين وشوكتهم. فإن كان التأويل هذا فهو يقع على جميع الظَّلَمة من كان في وقته ومَن بعده. وقيل: التبار الهلاك. فإن كان هذا معناه فهو على ظالمي زمانه، إذ لا يجوز للأنبياء عليهم السلام أن يدعوا على قوم إلا أن يؤذن لهم بالدعاء عليهم، وإنما جاءه[٩] الإذن في حق قومه فأما في حق غيرهم لم يثبت، فلا يجوز القول فيه إلا بما تواتر الخبر به[١٠] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. *والله أعلم*.[١١]

---

[١] ن: بينه.
[٢] ر: رجى.
[٣] ر: لا يجب.
[٤] ن: دعائهم.
[٥] ث: والثبار.
[٦] روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه كان إذا قرأ القرآن في الليل، فمر بآية فيقول لي: يا عكرمة ذكرني عند هذه الآية غدًا. فقرأ ذات ليلة هذه الآية، فقال: يا عكرمة، ذكرني غدًا. فذكرته ذلك، فقال: إن نوحًا دعا بهلاك الكافرين، ودعا للمؤمنين بالمغفرة، وقد استجيب دعاؤه في المؤمنين، فيغفر الله تعالى للمؤمنين والمؤمنات بدعائه، وبهلاك الكافرين فأهلكوا (*بحر العلوم* للسمرقندي، ٣/٤٠٩).
[٧] ر: أو ذلا.
[٨] م: اشتق.
[٩] ر م: جاء.
[١٠] ن – به.
[١١] ر: والله أعلم بالصواب؛ ث – والله أعلم.

سورة نوح

عشرون وثمان آيات مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ في قوله: ﴿أَنْ﴾ وجهان: أحدهما: أصله بأن أنذر فحذف الجار وأوصل الفعل، والمعنى أرسلناه بأن قلنا له: أنذر أي أرسلناه بالأمر بالإنذار، الثاني قال الزجاج: يجوز أن تكون مفسرة والتقدير: إنا أرسلنا نوحًا إلى قومه أي أنذر قومك وقرأ ابن مسعود، ﴿أَنذِرْ﴾ بغير (أن) على إرادة القول.

ثم قال: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال مقاتل: يعني الغرق بالطوفان.

واعلم أن الله تعالى لما أمره بذلك امتثل ذلك الأمر ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم قال: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟﴾ هو نظير ﴿أَنْ أَنذِرْ﴾ [نوح: ١] في الوجهين، ثم إنه أمر القوم بثلاثة أشياء بعبادة الله وتقواه وطاعة نفسه، فالأمر بالعبادة يتناول جميع الواجبات والمندوبات من أفعال القلوب وأفعال الجوارح، والأمر بتقواه يتناول الزجر عن جميع المحظورات والمكروهات، وقوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ يتناول أمرهم بطاعته وجميع المأمورات والمنهيات، وهذا وإن كان داخلاً في الأمر بعبادة الله وتقواه، إلا أنه خصه بالذكر تأكيدًا في ذلك التكليف ومبالغة في تقريره، ثم إنه تعالى لما كلفهم بهذه الأشياء الثلاثة وعدهم عليها بشيئين: أحدهما: أن يزيل مضار الآخرة عنهم، وهو قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾. الثاني: يزيل عنهم مضار الدنيا بقدر الإمكان، وذلك بأن يؤخر أجلهم إلى أقصى الإمكان.

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: ما فائدة ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾؟ والجواب من وجوه أحدها: أنها صلة زائدة والتقدير: يغفر لكم ذنوبكم، والثاني: أن غفران الذنب هو أن لا يؤاخذ به، فلو قال: يغفر لكم ذنوبكم، لكان معناه أن لا يؤاخذكم بمجموع ذنوبكم، وعدم المؤاخذة

بالمجموع لا يوجب عدم المؤاخذة بكل واحد من آحاد المجموع، فله أن يقول: لا أطالبك بمجموع ذنوبك، ولكني أطالبك بهذا الذنب الواحد فقط، أما لما قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ كان تقديره يغفر كل ما كان من ذنوبكم، وهذا يقتضي عدم المؤاخذة على مجموع الذنوب وعدم المؤاخذة أيضًا على كل فرد من أفراد المجموع، الثالث: أن قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ هب أنه يقتضي التبعيض لكنه حتى لأن من آمن فإنه يصير ما تقدم من ذنوبه على إيمانه مغفورًا، أما ما تأخر عنه فإنه لا يصير بذلك السبب مغفورًا، فثبت أنه لا بد هاهنا من حرف التبعيض.

السؤال الثاني: كيف قال: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ مع إخباره بامتناع تأخير الأجل، وهل هذا إلا تناقض؟ الجواب: قضى الله مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم الله ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة سنة، فقيل لهم: آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى أي إلى وقت سماه الله وجعله غاية الطول في العمر، وهو تمام الألف، ثم أخبر أنه إذا انقضى ذلك الأجل الأطول، لا بد من الموت.

السؤال الثالث: ما الفائدة في قوله ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الجواب: الغرض الزجر عن حب الدنيا، وعن التهالك عليها والإعراض عن الدين بسبب حبها، يعني أن غلوهم في حب الدنيا وطلب لذاتها بلغ إلى حيث يدل على أنهم شاكون في الموت.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝﴾

اعلم أن هذا من الآيات الدالة على أن جميع الحوادث بقضاء الله وقدره، وذلك لأنا نرى إنسانين يسمعان دعوة الرسول في مجلس واحد بلفظ واحد، فيصير ذلك الكلام في حق أحدهما سببًا لحصول الهداية، والميل والرغبة، وفي حق الثاني سببًا لمزيد العتو والتكبر، ونهاية النفرة، وليس لأحد أن يقول: إن تلك النفرة والرغبة حصلتا باختيار المكلف، فإن هذا مكابرة في المحسوس، فإن صاحب النفرة يجد قلبه كالمضطر إلى تلك النفرة وصاحب الرغبة يجد قلبه كالمضطر إلى تلك الرغبة، ومتى حصلت تلك النفرة وجب أن يحصل عقيبه التمرد والإعراض، وإن حصلت الرغبة وجب أن يحصل عقيبه الانقياد والطاعة، فعلمنا أن إفضاء سماع تلك الدعوة في حق أحدهما إلى الرغبة المستلزمة لحصول الطاعة والانقياد وفي حق الثاني إلى النفرة المستلزمة لحصول التمرد والعصيان لا يكون إلا بقضاء الله وقدره، فإن قيل: هب أن حصول النفرة والرغبة ليس باختياره، لكن حصول العصيان عند النفرة يكون باختياره، فإن العبد متمكن مع تلك النفرة أن ينقاد ويطيع، قلنا: إنه لو حصلت النفرة غير معارضة بوجه من وجوه الرغبة بل خالصة عن جميع شوائب الرغبة امتنع أن يحصل معه الفعل، وذلك لأنه عندما تحصل النفرة والرغبة لم يحصل الفعل ألبتة، فعند حصول النفرة انضم إلى عدم المقتضي وجود المانع، فبأن يصير الفعل ممتنعًا أولى، فثبت أن هذه الآية من أقوى الدلائل على القضاء والقدر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾.

اعلم أن نوحًا عليه السلام إنما دعاهم إلى العبادة والتقوى والطاعة لأجل أن يغفر لهم، فإن المقصود الأول هو حصول المغفرة، وأما الطاعة فهي إنما طلبت ليتوسل بها إلى تحصيل المغفرة، ولذلك لما أمرهم بالعبادة قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٤] فلما كان المطلوب الأول من الدعوة حصول المغفرة لا جرم قال: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ واعلم أنه عليه السلام لما دعاهم عاملوه بأشياء:

أولها: قوله: ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ والمعنى أنهم بلغوا في التقليد إلى حيث جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا الحجة والبينة. **وثانيها:** قوله: ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ أي تغطوا بها، إما لأجل أن لا يبصروا وجهه كأنهم لم يجوزوا أن يسمعوا كلامه، ولا أن يروا وجهه. وإما لأجل المبالغة في أن لا يسمعوا، فإنهم إذا جعلوا أصابعهم في آذانهم، ثم استغشوا ثيابهم مع ذلك، صار المانع من السماع أقوى. **وثالثها:** قوله: ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ والمعنى أنهم أصروا على مذهبهم، أو على إعراضهم عن سماع دعوة الحق. **ورابعها:** قوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي عظيمًا بالغًا إلى النهاية القصوى.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

واعلم أن هذه الآيات تدل على أن مراتب دعوته كانت ثلاثة، فبدأ بالمناصحة في السر، فعاملوه بالأمور الأربعة، ثم ثنى بالمجاهرة، فلما لم يؤثر جمع بين الإعلان والإسرار، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ دالة على تراخي بعض هذه المراتب عن بعض إما بحسب الزمان، أو بحسب الرتبة، لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الإسرار والجهار أغلظ من الجهار وحده، فإن قيل: بم انتصب ﴿جِهَارًا﴾؟ قلنا: فيه وجوه: **أحدها:** أنه منصوب بدعوتهم نصب المصدر، لأن الدعاء أحد نوعيه الجهار، فنصب به نصب القرفصاء بقعد لكونها أحد أنواع القعود. **وثانيها:** أنه أريد بدَعوتُهُمْ جاهرتُهُم. **وثالثها:** أن يكون صفة لمصدر دعا بمعنى دعاء جهارًا، أي مجاهرًا به. **ورابعها:** أن يكون مصدرًا في موضع الحال أي مجاهرً.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾

قال مقاتل: إن قوم نوح لما كذبوه زمانًا طويلاً حبس الله عنهم المطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فرجعوا فيه إلى نوح، فقال نوح: استغفروا ربكم من الشرك حتى يفتح عليكم أبواب نعمه.

واعلم أن الاشتغال بالطاعة سبب لانفتاح أبواب الخيرات، ويدل عليه وجوه: أحدها: أن الكفر سبب لخراب العالم على ما قال في كفر النصارى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠-٩١] فلما كان الكفر سببًا لخراب العالم، وجب أن يكون الإيمان سببًا لعمارة العالم، وثانيها: الآيات منها هذه الآية ومنها قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ﴾ [الأعراف: ٩٦] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦] ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢] وثالثها: أنه تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فإذا اشتغلوا بتحصيل المقصود حصل ما يحتاج إليه في الدنيا على سبيل التبعية، ورابعها: أن عمر خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار، فقيل له: ما رأيناك استسقيت، فقال: لقد استسقيت بمجاديح السماء. المجدح ثلاثة كواكب مخصوصة، ونوءه يكون عزيزًا شبه عمر (الاستغفار) بالأنواء الصادقة التي لا تخطئ، وعن بكر بن عبدالله: أن أكثر الناس ذنوبًا أقلهم استغفارًا، وأكثرهم استغفارًا أقلهم ذنوبًا، وعن الحسن: أن رجلاً شكا إليه الجدب، فقال: استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال له بعض القوم: أتاك رجال يشكون إليك أنواعًا من الحاجة، فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فتلا له الآية، **وهاهنا سؤالات:**

الأول: أن نوحًا عليه السلام أمر الكفار قبل هذه الآية بالعبادة والتقوى والطاعة، فأي فائدة في أن أمرهم بعد ذلك بالاستغفار؟ الجواب: أنه لما أمرهم بالعبادة قالوا له: إن كان الدين القديم الذي كنا عليه حقًّا فلم تأمرنا بتركه، وإن كان باطلاً فكيف يقبلنا بعد أن عصيناه، فقال نوح عليه السلام: إنكم وإن كنتم عصيتموه ولكن استغفروه من تلك الذنوب، فإنه سبحانه كان غفارًا.

السؤال الثاني: لم قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ ولم يقل: إنه غفار؟ قلنا المراد: إنه كان غفارًا في حق كل من استغفروه كأنه يقول: لا تظنوا أن غفاريته إنما حدثت الآن، بل هو أبدًا هكذا كان، فكأن هذا هو حرفته وصنعته.

قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝﴾

واعلم أن الخلق مجبولون على محبة الخيرات العاجلة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣] فلا جرم أعلمهم الله تعالى هاهنا أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر في الآخرة الخصب والغنى في الدنيا.

والأشياء التي وعدهم من منافع الدنيا في هذه الآية خمسة: أولها: قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ

عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ وفي السماء وجوه: أحدها: (أن) المطر منها ينزل إلى السحاب، وثانيها: أن يراد بالسماء السحاب، وثالثها: أن يراد بالسماء المطر من قوله:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَابَا(١)

والمدرار الكثير الدرور، ومفعال مما يستوي فيه المذكر والمؤنث، كقولهم: رجل أو امرأة معطار ومتفال وثانيها: قوله: ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ﴾ وهذا لا يختص بنوع واحد من المال بل يعم الكل، وثالثها: قوله: ﴿وَبَنِينَ﴾ ولا شك أن ذلك مما يميل الطبع إليه. ورابعها: قوله: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ أي بساتين، وخامسها: قوله: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ . .

ثم قال: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ **وفيه قولان:**

الأول أن الرجاء هاهنا بمعنى الخوف ومنه قول الهذلي:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا(٢)

والوقار العظمة والتوقير: التعظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾[الفتح: ٩] بمعنى ما بالكم لا تخافون لله عظمة. وهذا القول عندي غير جائز، لأن الرجاء ضد الخوف في اللغة المتواترة الظاهرة، فلو قلنا: إن لفظة الرجاء في اللغة موضوعة بمعنى الخوف لكان ذلك ترجيحًا للرواية الثابتة بالآحاد على الرواية المنقولة بالتواتر وهذا يفضي إلى القدح في القرآن، فإنه لا لفظ فيه إلا ويمكن جعل نفيه إثباتًا وإثباته نفيًا بهذا الطريق، الوجه الثاني: ما ذكره صاحب (الكشاف) وهو أن المعنى: مالكم لا تأملون لله توقيرًا أي تعظيمًا، والمعنى مالكم لا تكونوا على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم و﴿لِلَّهِ﴾ بيان للموقر، ولو تأخر لكان صلة للوقار.

قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾[نوح: ١٤] في موضع الحال كأنه قال: مالكم لا تؤمنون بالله، والحال هذه وهي حال موجبة للإيمان به ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ أي تارات خلقكم أولاً ترابًا، ثم خلقكم نطفًا، ثم خلقكم علقًا، ثم خلقكم مضغًا، ثم خلقكم عظامًا ولحمًا، ثم أنشأكم خلقًا آخر، وعندي فيه وجه ثالث: وهو أن القوم كانوا يبالغون في الاستخفاف بنوح عليه السلام فأمرهم الله تعالى بتوقيره وترك الاستخفاف به، فكأنه قال لهم: إنكم إذا وقرتم نوحًا وتركتم الاستخفاف به كان ذلك لأجل الله، فما لكم لا ترجون وقارًا وتأتون به لأجل الله ولأجل أمره

---

(١) هذا البيت لمعود الحكماء وهو: معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري. شاعر من أشراف العرب في الجاهلية، هو أخو (ملاعب الأسنة) عامر بن مالك وعم (لبيد بن ربيعة المتوفى سنة ٤١هـ ٦٦١م) الشاعر. لقب بمعود الحكماء لقوله:

أعوِّد مثلها الحكماء بعدي إذا ما الأمر في الحدثان نابا

وهو من أبيات يقول فيها:

إذا نزل الغمام بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

(٢) تقدمت ترجمة الهذلي.

وطاعته، فإن كل ما يأتي به الإنسان لأجل الله، فإنه لا بد وأن يرجو منه خيرًا، ووجه رابع: وهو أن الوقار هو الثبات من وقر إذا ثبت واستقر، فكأنه قال: ﴿مَّا لَكُمْ﴾ وعند هذا تم الكلام، ثم قال على سبيل الاستفهام بمعنى الإنكار ﴿لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي لا ترجون لله ثباتًا وبقاء، فإنكم لو رجوتم ثباته وبقاءه لخفتموه، ولما أقدمتم على الاستخفاف برسله وأوامره، والمراد من قوله: ﴿تَرْجُونَ﴾ أي تعتقدون لأن الراجي للشيء معتقد له.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾

واعلم أنه لما أمر في هذه الآية بتعظيم الله استدل على التوحيد بوجوه من الدلائل:

الأول: قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ وفيه وجهان: الأول: قال الليث: الطورة التارة يعني حالاً بعد حال كما ذكرنا أنه كان نطفة، ثم علقة إلى آخر التارات. **الثاني:** قال ابن الأنباري: الطور الحال، والمعنى خلقكم أصنافًا مختلفين لا يشبه بعضكم بعضًا، ولما ذكر هذا الدليل من الأنفس على التوحيد، أتبعه بذكر دليل التوحيد من الآفاق على العادة المعهودة في كل القرآن.

الدليل الثاني على التوحيد: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

واعلم أنه تعالى تارة يبدأ بدلائل الأنفس، وبعدها بدلائل الآفاق كما في هذه الآية، وذلك لأن نفس الإنسان أقرب الأشياء إليه، فلا جرم بدأ بالأقرب، وتارة يبدأ بدلائل الآفاق، ثم بدلائل الأنفس إما لأن دلائل الآفاق أبهر وأعظم، فوقعت البداية بها لهذا السبب، أو لأجل أن دلائل الأنفس حاضرة، لا حاجة بالعاقل إلى التأمل فيها، إنما الذي يحتاج إلى التأمل فيه دلائل الآفاق، لأن الشبه فيها أكثر، فلا جرم تقع البداية بها، **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: قوله: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ يقتضي كون بعضها منطبقًا على البعض، وهذا يقتضي أن لا يكون بينها فرج، فالملائكة كيف يسكنون فيها؟ **الجواب:** الملائكة أرواح فلعل المراد من كونها طباقًا كونها متوازية لا أنها متماسة.

السؤال الثاني: كيف قال: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ والقمر ليس فيها بأسرها بل في السماء الدنيا؟ **والجواب:** هذا كما يقال السلطان في العراق ليس المراد أن ذاته حاصلة في جميع أحياز العراق بل إن ذاته في حيز من جملة أحياز العراق فكذا هاهنا.

السؤال الثالث: السراج ضوءه عرضي وضوء القمر عرضي متبدل فتشبيه القمر بالسراج أولى من تشبيه الشمس به. **الجواب:** الليل عبارة عن ظل الأرض والشمس لما كانت سببًا لزوال ظل الأرض كانت شبيهة بالسراج، وأيضًا فالسراج له ضوء والضوء أقوى من النور فجعل الأضعف للقمر والأقوى للشمس، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ ﴾

الدليل الثالث على التوحيد: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

واعلم أنه تعالى رجع هاهنا إلى دلائل الأنفس وهو كالتفسير لقوله: ﴿خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] فإنه بيَّن أنه تعالى خلقهم من الأرض ثم يردهم إليها ثم يخرجهم منها مرة أخرى، أما قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾، **ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: في هذه الآية وجهان: أحدهما: معنى قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي أنبت أباكم من الأرض كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]. والثاني: أنه تعالى أنبت الكل من الأرض لأنه تعالى إنما يخلقنا من النطف وهي متولدة من الأغذية المتولدة من النبات المتولد من الأرض.

المسألة الثانية: كان ينبغي أن يقال: أنبتكم إنباتًا إلا أنه لم يقل ذلك بل قال: أنبتكم نباتًا، والتقدير: أنبتكم فنبتم نباتًا، وفيه دقيقة لطيفة: وهي أنه لو قال: أنبتكم إنباتًا كان المعنى أنبتكم إنباتًا عجيبًا غريبًا، ولما قال: أنبتكم نباتًا كان المعنى أنبتكم فنبتم نباتًا عجيبًا، وهذا الثاني أولى لأن الإنبات صفة لله تعالى وصفة الله غير محسوسة لنا، فلا نعرف أن ذلك الإنبات إنبات عجيب كامل إلا بواسطة إخبار الله تعالى، وهذا المقام مقام الاستدلال على كمال قدرة الله تعالى فلا يمكن إثباته بالسمع، أما لما قال: ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ . . . ﴿نَبَاتًا﴾ على معنى أنبتكم فنبتم نباتًا عجيبًا كاملاً كان ذلك وصفًا للنبات بكونه عجيبًا كاملاً، وكون النبات كذلك أمر مشاهد محسوس، فيمكن الاستدلال به على كمال قدرة الله تعالى، فكان هذا موافقًا لهذا المقام فظهر أن العدول من تلك الحقيقة إلى هذا المجاز كان لهذا السر اللطيف، أما قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ فهو إشارة إلى الطريقة المعهودة في القرآن من أنه تعالى لما كان قادرًا على الابتداء كان قادرًا على الإعادة، وقوله: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أكده بالمصدر كأنه قال: يخرجكم حقًّا لا محالة.

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ ﴾

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ أي طرقًا واسعة واحدها فج وهو مفسر فيما تقدم.

واعلم أن نوحًا عليه السلام لما دعاهم إلى الله ونبههم على هذه الدلائل الظاهرة حكى عنهم أنواع قبائحهم وأقوالهم وأفعالهم.

فالأول: قوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ وذلك لأنه قال في أول السورة ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣] فكأنه قال: قلت لهم أطيعون فهم عصوني.

الثاني: قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: ذكر في الآية الأولى أنهم عصوه وفي هذه الآية أنهم ضموا إلى عصيانه معصية أخرى وهي طاعة رؤسائهم الذين يدعونهم إلى الكفر، وقوله: ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ يعني هذان وإن كانا من جملة المنافع في الدنيا إلا أنهما لما صارا سببًا للخسارة في الآخرة فكأنهما صارا محض الخسار والأمر كذلك في الحقيقة لأن الدنيا في جنب الآخرة كالعدم فإذا صارت المنافع الدنيوية أسبابًا للخسارة في الآخرة صار ذلك جاريًا مجرى اللقمة الواحدة من الحلو إذا كانت مسمومة سم الوقت، واستدل بهذه الآية من قال: إنه ليس لله على الكافر نعمة لأن هذه النعم استدراجات ووسائل إلى العذاب الأبدي فكانت كالعدم، ولهذا المعنى قال نوح عليه السلام في هذه الآية: ﴿لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾.

المسألة الثانية: قرئ (وولْدُهُ) بضم الواو واعلم أن الوُلْد بالضم لغة في الولد، ويجوز أن يكون جمعًا إما جمع ولد كالفلك، وهاهنا يجوز أن يكون واحدًا وجمعًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾

النوع الثالث: من قبائح أفعالهم قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ معطوف على ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ﴾ [نوح: ٢١] لأن المتبوعين هم الذين مكروا وقالوا للأتباع: ﴿لَا تَذَرُنَّ﴾، وجمع الضمير وهو راجع إلى ﴿مَن﴾، لأنه في معنى الجمع.

المسألة الثانية: قرئ ﴿كُبَّارًا﴾ و(كُبَارًا) بالتخفيف والتثقيل، وهو مبالغة في الكبير، فأول المراتب الكبير، والأوسط الكُبَار بالتخفيف، والنهاية الكُبَّار بالتثقيل، ونظيره: جَمِيل وجُمَال وجُمَّال، وعَظِيم وعُظَام وعُظَّام، وطَوِيل وطُوَال وطُوَّال.

المسألة الثالثة: المكر الكبار هو أنهم قالوا لأتباعهم: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ فهم منعوا القوم عن التوحيد، وأمروهم بالشرك، ولما كان التوحيد أعظم المراتب، لا جرم كان المنع منه أعظم الكبائر فلهذا وصفه الله تعالى بأنه كبار، واستدل بهذا من فضل علم الكلام على سائر العلوم، فقال: الأمر بالشرك كبار في القبح والخزي، فالأمر بالتوحيد والإرشاد وجب أن يكون كبارًا في الخير والدين.

المسألة الرابعة: أنه تعالى إنما سماه مكرًا لوجهين: الأول: لما في إضافة الإلهية إليهم من الحيلة الموجبة لاستمرارهم على عبادتها، كأنهم قالوا: هذه الأصنام آلهة لكم، وكانت آلهة لآبائكم، فلو قبلتم قول نوح لاعترفتم على أنفسكم بأنكم كنتم جاهلين ضالين كافرين، وعلى

آبائكم بأنهم كانوا كذلك، ولما كان اعتراف الإنسان على نفسه، وعلى جميع أسلافه بالقصور والنقص والجهل شاقًا شديدًا، صارت الإشارة إلى هذه المعاني بلفظ آلهتكم صارفًا لهم عن الدين، فلأجل اشتمال هذا الكلام على هذه الحيلة الخفية سمى الله كلامهم مكرًا، الثاني: أنه تعالى حكى عن أولئك المتبوعين أنهم كان لهم مال وولد، فلعلهم قالوا لأتباعهم: إن آلهتكم خير من إله نوح، لأن آلهتكم يعطونكم المال والولد، وإله نوح لا يعطيه شيئًا لأنه فقير، فبهذا المكر صرفوهم عن طاعة نوح، وهذا مثل مكر فرعون إذ قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١] وقال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٢-٥٣].

المسألة الخامسة: ذكر أبو زيد البلخي في كتابه في الرد على عبدة الأصنام أن العلم بأن هذه الخشبة المنحوتة في هذه الساعة ليست خالقة للسموات والأرض، والنبات والحيوان علم ضروري، والعلوم الضرورية لا يجوز وقوع الاختلاف فيها بين العقلاء، وعبادة الأوثان دين كان موجودًا قبل مجيء نوح عليه السلام بدلالة هذه الآية، وقد استمر ذلك الدين إلى هذا الزمان، وأكثر سكان أطراف المعمورة على هذا الدين، فوجب حمل هذا الدين على وجه لا يعرف فساده بضرورة العقل، وإلا لما بقي هذه المدة المتطاولة في أكثر أطراف العالم، فإذًا لا بد وأن يكون للذاهبين إلى ذلك المذهب تأويلات: أحدها: قال أبو معشر جعفر بن محمد المنجم: هذه المقالة إنما تولدت من مذهب القائلين بأن الله جسم وفي مكان، وذلك لأنهم قالوا: إن الله نور هو أعظم الأنوار، والملائكة الذين هم حافون حول العرش الذي هو مكانه، هم أنوار صغيرة بالنسبة إلى ذلك النور الأعظم، فالذين اعتقدوا هذا المذهب اتخذوا صنمًا هو أعظم الأصنام على صورة إلههم الذي اعتقدوه، واتخذوا أصنامًا متفاوتة، بالكبر والصغر والشرف والخسة على صورة الملائكة المقربين، واشتغلوا بعبادة تلك الأصنام على اعتقاد أنهم يعبدون الإله والملائكة، فدين عبادة الأوثان إنما ظهر من اعتقاد التجسيم، الوجه الثاني: وهو أن جماعة الصابئة كانوا يعتقدون أن الإله الأعظم خلق هذه الكواكب الثابتة والسيارة، وفوض تدبير هذا العالم السفلي إليها، فالبشر عبيد هذه الكواكب، والكواكب عبيد الإله الأعظم، فالبشر يجب عليهم عبادة الكواكب، ثم إن هذه الكواكب كانت تطلع مرة وتغيب أخرى، فاتخذوا أصنامًا على صورها واشتغلوا بعبادتها، وغرضهم عبادة الكواكب، الوجه الثالث: أن القوم الذين كانوا في قديم الدهر، كانوا منجمين على مذهب أصحاب الأحكام، في إضافات سعادات هذا العالم ونحوساتها إلى الكواكب، فإذا اتفق في الفلك شكل عجيب صالح لطلسم عجيب، فكانوا يتخذون ذلك الطلسم، وكان يظهر منه أحوال عجيبة وآثار عظيمة، وكانوا يعظمون ذلك الطلسم ويكرمونه ويشتغلون بعبادته، وكانوا يتخذون كل طلسم على شكل موافق لكوكب خاص ولبرج خاص، فقيل: كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد،

ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر، الوجه الرابع: أنه كان يموت أقوام صالحون فكانوا يتخذون تماثيل على صورهم ويشتغلون بتعظيمها، وغرضهم تعظيم أولئك الأقوام الذين ماتوا حتى يكونوا شافعين لهم عند الله وهو المراد من قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] الوجه الخامس: أنه ربما مات ملك عظيم، أو شخص عظيم، فكانوا يتخذون تمثالاً على صورته وينظرون إليه، فالذين جاءوا بعد ذلك ظنوا أن آباءهم كانوا يعبدونها فاشتغلوا بعبادتها لتقليد الآباء، أو لعل هذه الأسماء الخمسة وهي: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، أسماء خمسة من أولاد آدم، فلما ماتوا قال إبليس لمن بعدهم: لو صورتم صورهم، فكنتم تنظرون إليهم، ففعلوا فلما مات أولئك قال لمن بعدهم: إنهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم، ولهذا السبب نهى الرسول عليه السلام عن زيارة القبور أولاً، ثم أذن فيها على ما يروى أنه عليه السلام قال: كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإن في زيارتها تذكرة، السادس: الذين يقولون إنه تعالى جسم، وإنه يجوز عليه الانتقال والحلول، لا يستبعدون أن يحل تعالى في شخص إنسان، أو في شخص صنم، فإذا أحسوا من ذلك الصنم المتخذ على وجه الطلسم حالة عجيبة، خطر ببالهم أن الإله حصل في ذلك الصنم ولذلك فإن جمعًا من قدماء الروافض لما رأوا أن عليًّا عليه السلام قلع باب خيبر، وكان ذلك على خلاف المعتاد قالوا: إن الإله حل في بدنه وإنه هو الإله، الوجه السابع: لعلهم اتخذوا تلك الأصنام كالمحراب ومقصودهم بالعبادة هو الله، فهذا جملة ما في هذا الباب، وبعضها باطلة بدليل العقل، فإنه لما ثبت أنه تعالى ليس بجسم بطل اتخاذ الصنم على صورة الإله، وبطل القول أيضًا بالحلول والنزول، ولما ثبت أنه تعالى هو القادر على كل المقدورات، بطل القول بالوسايط والطلسمات، ولما جاء الشرع بالمنع من اتخاذ الصنم، بطل القول باتخاذها محاريب وشفعاء.

المسألة السادسة: هذه الأصنام الخمسة كانت أكبر أصنامهم، ثم إنها انتقلت عن قوم نوح إلى العرب، فكان ود لكلب، وسواع لهمدان، ويغوث لمذحج، ويعوق لمراد، ونسر لحمير ولذلك سمت العرب بعبد ود، وعبد يغوث، هكذا قيل في الكتب، وفيه إشكال لأن الدنيا قد خربت في زمان الطوفان، فكيف بقيت تلك الأصنام، وكيف انتقلت إلى العرب، ولا يمكن أن يقال: إن نوحًا عليه السلام وضعها في السفينة وأمسكها لأنه عليه السلام إنما جاء لنفيها وكسرها فكيف يمكن أن يقال: إنه وضعها في السفينة سعيًا منه في حفظها.

المسألة السابعة: قرئ: (لا تذرن ودا) بفتح الواو وبضم الواو، قال الليث: ود بفتح الواو صنم كان لقوم نوح، ووُد بالضم صنم لقريش، وبه سمي عمرو بن عبد ود، وأقول: على قول الليث وجب أن لا يجوز هاهنا قراءة ود بالضم لأن هذه الآيات في قصة نوح لا في أحوال قريش وقرأ الأعمش: (ولا يَغُوثًا ولاَ يعوقًا) بالصرف وهذه قراءة مشكلة لأنهما إن كانا عربيين أو عجميين ففيهما سببا منع الصرف، إما التعريف ووزن الفعل، وإما التعريف والعجمة، فلعله

صرفهما لأجل أنه وجد أخواتهما منصرفة ودًا وسواعًا ونسرًا.

واعلم أن نوحًا لما حكى عنهم أنهم قالوا لأتباعهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ قال: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ فيه وجهان: الأول: أولئك الرؤساء قد أضلوا كثيرًا قبل هؤلاء الموصين بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام وليس هذا أول مرة اشتغلوا بالإضلال، الثاني: يجوز أن يكون الضمير عائدًا إلى الأصنام، كقوله: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وأجرى الأصنام على هذا القول مجرى الآدميين كقوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾. **ففيه سؤالان:**

الأول: كيف موقع قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؟ الجواب: كأن نوحًا عليه السلام لما أطنب في تعديد أفعالهم المنكرة وأقوالهم القبيحة امتلأ قلبه غيظًا وغضبًا عليهم فختم كلامه بأن دعا عليهم.

السؤال الثاني: إنما بعث ليصرفهم عن الضلال فكيف يليق به أن يدعو الله في أن يزيد في ضلالهم؟ الجواب: من وجهين: الأول: لعله ليس المراد الضلال في أمر الدين، بل الضلال في أمر دنياهم، وفي ترويج مكرهم وحيلهم، الثاني: الضلال العذاب لقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧].

ثم إنه تعالى لما حكى كلام نوح عليه السلام قال بعده: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: (مَا) صلة كقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ [النساء: ١٥٥] ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ [النساء: ١٥٩] والمعنى من خطاياهم أي من أجلها وبسببها، وقرأ ابن مسعود: (من خطيآتهم ما أغرقوا) فأخر كلمة (ما)، وعلى هذه القراءة لا تكون (ما) صلة زائدة لأن (ما) مع ما بعده في تقرير المصدر.

واعلم أن تقديم قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾ لبيان أنه لم يكن إغراقهم بالطوفان إلا من أجل خطيآتهم، فمن قال من المنجمين: إن ذلك إنما كان بسبب أنه انقضى في ذلك الوقت نصف الدور الأعظم، وما يجري مجرى هذه الكلمات كان مكذبًا لصريح هذه الآية فيجب تكفيره.

المسألة الثانية: قرئ (خَطِيئاتِهِمْ) بالهمزة و(خَطِيَّاتِهِمْ) بقلبها ياء وإدغامها و(وَخَطَايَاهُمْ) و(وَخَطِيئَتِهِمْ) بالتوحيد على إرادة الجنس، ويجوز أن يراد به الكفر. واعلم أن الخطايا والخطيئات كلاهما جمع خطيئة، إلا أن الأول جمع تكسير والثاني جمع سلامة، وقد تقدم الكلام فيها في [البقرة: ٥٨] عند قوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ وفي [الأعراف: ١٦١] عند قوله: ﴿خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾.

المسألة الثالثة: تمسك أصحابنا في إثبات عذاب القبر بقوله: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ وذلك من وجهين: الأول: أن الفاء في قوله: ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ تدل على أنه حصلت تلك الحالة عقيب الإغراق فلا يمكن حملها على عذاب الآخرة، وإلا بطلت دلالة هذه الفاء، الثاني: أنه قال:

﴿فَأُدْخِلُوا﴾ على سبيل الإخبار عن الماضي. وهذا إنما يصدق لو وقع ذلك، قال مقاتل والكلبي: معناه أنهم سيدخلون في الآخرة نارًا ثم عبر عن المستقبل بلفظ الماضي لصحة كونه وصدق الوعد به كقوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٥٠] ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤] واعلم أن الذي قالوه ترك للظاهر من غير دليل. فإن قيل: إنما تركنا هذا الظاهر لدليل، وهو أن من مات في الماء فإنا نشاهده هناك فكيف يمكن أن يقال: إنهم في تلك الساعة أدخلوا نارًا؟ والجواب: هذا الإشكال إنما جاء لاعتقاد أن الإنسان هو مجموع هذا الهيكل، وهذا خطأ لما بينا أن هذا الإنسان هو الذي كان موجودًا من أول عمره، مع أنه كان صغير الجثة في أول عمره، ثم إن أجزاءه دائمًا في التحلل والذوبان، ومعلوم أن الباقي غير المتبدل، فهذا الإنسان عبارة عن ذلك الشيء الذي هو باق من أول عمره إلى الآن، فلم لا يجوز أن يقال: إنه وإن بقيت هذه الجثة في الماء إلا أن الله تعالى نقل تلك الأجزاء الأصلية الباقية التي كان الإنسان المعين عبارة عنها إلى النار والعذاب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ وهذا تعريض بأنهم إنما واظبوا على عبادة تلك الأصنام لتكون دافعة للآفات عنهم جالبة للمنافع إليهم، فلما جاءهم عذاب الله لم ينتفعوا بتلك الأصنام، وما قدرت تلك الأصنام على دفع عذاب الله عنهم، وهو كقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣] واعلم أن هذه الآية حجة على كل من عول على شيء غير الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ قال المبرد: ﴿دَيَّارًا﴾ لا تستعمل إلا في النفي العام، يقال: ما بالدار ديَّار ولا تستعمل في جانب الإثبات، قال أهل العربية: هو فيعال من الدور، وأصله ديوار فقلبت الواو ياء وأدغمت إحداهما في الأخرى، قال الفراء والزجاج: وقال ابن قتيبة: ما بها ديار أي نازل دار.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ فإن قيل: كيف عرف نوح عليه السلام ذلك؟ قلنا: للنص والاستقراء، أما النص فقوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] وأما الاستقراء فهو أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فعرف طباعهم وجربهم، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ويقول: احذر هذا فإنه كذاب،

وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك، وقوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنهم يكونون في علمك كذلك، والثاني: أنهم سيصيرون كذلك.

واعلم أنه عليه السلام لما دعا على الكفار قال بعده: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ أي فيما صدر عني من ترك الأفضل، ويحتمل أنه حين دعا على الكفار إنما دعا عليهم بسبب تأذيه منهم، فكان ذلك الدعاء عليهم كالانتقام فاستغفر عن ذلك لما فيه من طلب حظ النفس.

ثم قال: ﴿وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ أبوه لمك بن متوشلخ وأمه شمخاء بنت أنوش وكانا مؤمنين، وقال عطاء: لم يكن بين نوح وآدم عليهما السلام من آبائه كافر، وكان بينه وبين آدم عشرة آباء. وقرأ الحسن بن علي (وَلِوَلَدَيَّ) يريد ساما وحاما.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ قيل: مسجدي، وقيل: سفينتي، وقيل: لمن دخل في ديني، فإن قيل: فعلى هذا التفسير يصير قوله: ﴿مُؤْمِنًا﴾ مكررًا، قلنا: إن من دخل في دينه ظاهرًا قد يكون مؤمنًا بقلبه وقد لا يكون، والمعنى: ولمن دخل في ديني دخولاً مع تصديق القلب.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إنما خص نفسه أولاً بالدعاء ثم المتصلين به لأنهم أولى وأحق بدعائه ثم عم المؤمنين والمؤمنات.

ثم ختم الكلام مرة أخرى بالدعاء على الكافرين فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ أي هلاكًا ودمارًا وكل شيء أهلك فقد تبر، ومنه قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾[الأعراف: ١٣٩] وقوله: ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾[الإسراء: ٧] فاستجاب الله دعاءه فأهلكهم بالكلية، فإن قيل: ما جُرْمُ الصبيان حين أغرقوا؟ والجواب من وجوه: الأول: أن الله تعالى أيبس أصلاب آبائهم وأعقم أرحام نسائهم قبل الطوفان بأربعين سنة أو تسعين فلم يكن معهم صبي حين أغرقوا، ويدل عليه قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾[نوح: ١٠، ١٢] وهذا يدل بحسب المفهوم على أنهم إذا لم يستغفروا فإنه تعالى لا يمددهم بالبنين، الثاني: قال الحسن: علم الله براءة الصبيان فأهلكهم بغير عذاب، الثالث: غرقوا معهم لا على وجه العقاب بل كما يموتون بالغرق والحرق وكان ذلك زيادة في عذاب الآباء والأمهات إذا أبصروا أطفالهم يغرقون، والله سبحانه وتعالى أعلم. والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه أجمعين.

سورة نوح

مَكِّيَّةٌ، وهي ثمان وعشرون آية[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾

قد مضى القول في «الأعراف» أن نُوحاً عليه السلام أوَّلُ رسولٍ أُرسِل[2]. ورواه قتادة عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: «أوَّلُ رسولٍ أُرسل نوح، وأُرسل إلى جميع أهل الأرض»[3]. فلذلك لمَّا كَفَروا أَغْرَق اللهُ أهلَ الأرض جميعاً.

وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ[4]، وهو إدريس بن يرد بن مهلايل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم عليه السلام[5]. قال وهب: كلهم مؤمنون. أُرسل إلى قومه وهو ابن خمسين سنة. وقال ابن عباس: ابن أربعين سنة. وقال عبد الله بن شدَّاد: بُعث وهو ابن ثلاث مئة وخمسين سنة[6]. وقد مضى في سورة العنكبوت القولُ فيه[7]. والحمد لله.

---

(١) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٤٠٦ ، والبغوي ٤/ ٣٩٧ . ووقع في (ق) سبع وعشرون ، وفي (د) و(ظ) : تسع وعشرون . وفي الكشاف ٤/ ١٦١ : تسع أو ثمان وعشرون آية .

(٢) ٩/ ٢٥٨ .

(٣) لم نقف عليه من حديث ابن عباس، وجاء في حديث الشفاعة المطول الذي رواه أنس ﷺ: «إنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض». وهو عند أحمد (١٢١٥٣)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٤).

(٤) في (د) و(ق) : خنوخ .

(٥) سلف مختصراً ٧/ ٢٢١ إلى أخنوخ ،وفيه : لمك ، بدل : لامك . وسلف ١٣/ ٣٣٣ ، ووقع فيه: مهلايل بن قينان بن أنوش .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٩٨ ، وسلف ٩/ ٢٥٩ .

(٧) ١٦/ ٣٤٥ .

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي: بأن أنذر قومك؛ فموضع «أن» نصب بإسقاط الخافض. وقيل: موضعها جَرٌّ لقوَّة خِدْمتها مع «أن». ويجوز «أن» بمعنى المفسِّرة، فلا يكون لها موضع من الإعراب؛ لأن في الإرسال معنى الأمر، فلا حاجة إلى إضمار الباء. وقراءة عبد الله: «أَنْذِر قَوْمَكَ» بغير «أن» بمعنى قلنا له: أنذر قومك[١]. وقد تقدَّم معنى الإنذار في أوّل «البقرة»[٢].

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: يعني عذاب النار في الآخرة. وقال الكلبيُّ: هو ما نزَل عليهم من الطوفان. وقيل: أي أنذرهم العذابَ الأليم على الجملة إن لم يؤمنوا. فكان يدعو قومه وينذرهم فلا يَرى منهم مجيباً؛ وكانوا يَضربونه حتى يُغشى عليه فيقول: ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[٣]. وقد مضى هذا مستوفًى في سورة العنكبوت[٤] والحمد لله وحده.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: مخوِّف. ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: مُظهِرٌ لكم بلسانكم الذي تعرفونه. ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ و«أن» المفسِّرة على ما تقدم في «أَنْ أَنْذِرْ». «اعْبُدُوا» أي: وحِّدوا. واتقوا: خافوا. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ أي: فيما آمرُكم به، فإني رسول الله إليكم. ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ جُزم «يغفِر» بجواب الأمر[٥]. و«مِن» صلةٌ زائدة. ومعنى الكلام: يغفر لكم ذنوبَكم، قاله السدِّيُّ[٦]. وقيل: لا يصح كونها

---

(١) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٢، وذكر القراءة أيضاً الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٦١.

(٢) ١/ ٢٨١.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٩٨ - ٩٩، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٢٠، والطبري ٢٣/ ٣٠٩ عن مجاهد.

(٤) ١٦/ ٣٤٥، وفي سورة التوبة ١٠/ ٣٩٩، وسورة هود ١١/ ١٢٩-١٣٠.

(٥) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٣٧.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٩٩.

زائدة؛ لأن «مِن» لا تُزاد في الواجب، وإنما هي هنا للتبعيض، وهو بعض الذنوب، وهو ما لا يتعلق بحقوق المخلوقين. وقيل: هي لبيان الجنس. وفيه بُعْدٌ؛ إذ لم يتقدَّم جنسٌ يليق به[١]. وقال زيد بن أسلم: المعنى: يخرجكم من ذنوبكم. ابن شجرة: المعنى يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها[٢].

﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ قال ابن عباس: أي: ينسئ في أعماركم. ومعناه أن الله تعالى كان قضى قبل خلقهم أنهم إن آمنوا بارك في أعمارهم، وإن لم يؤمنوا عُوجلوا بالعذاب. وقال مقاتل: يؤخِّركم إلى منتهى آجالكم في عافية؛ فلا يعاقبكم بالقحط وغيره. فالمعنى على هذا يؤخركم من العقوبات والشدائد إلى آجالكم. وقال الزجاج[٣]: أي يؤخِّركم عن العذاب فتموتوا غير موتة المستأصَلين بالعذاب. وعلى هذا قيل: «أَجَلٍ مُسَمًّى» عندكم تعرفونه، لا يميتكم غَرَقاً ولا حَرَقاً ولا قَتْلاً؛ ذكره الفرَّاء[٤]. وعلى القول الأوّل «أَجَلٍ مُسَمًّى» عند الله.

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ﴾ أي: إذا جاء الموت لا يؤخَّر بعذاب كان أو بغير عذاب. وأضاف الأَجَلَ إليه سبحانه؛ لأنه الذي أثبته. وقد يضاف إلى القوم، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ [الأعراف: ٣٤] لأنه مضروب لهم. و«لَوْ» بمعنى «إن» أي: إن كنتم تعلمون. وقال الحسن: معناه: لو كنتم تعلمون لَعَلِمْتُم أن أَجَلَ اللهِ إذا جاء لا يؤخَّر[٥].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾ أي: سِرًّا وجهراً. وقيل: أي:

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٢ بنحوه.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٩٩.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٢٢٨.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٨٧.

(٥) جاءت العبارة في (د) و(م): إذا جاءكم لم يؤخر. والمثبت من باقي النسخ وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/ ٩٩ وقول الحسن فيه.

واصلت الدعاء. ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: تباعداً من الإيمان، وقراءة العامة بفتح الياء من «دعائي» وأسكنها الكوفيون ويعقوب والدُّوري عن أبي عمرو[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ أي: إلى سبب المغفرة، وهي الإيمانُ بك والطاعةُ لك. ﴿جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ لئلَّا يَسمعوا دعائي ﴿وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ أي: غطَّوا بها وجوهَهم لئلَّا يَرَوْني[٢]. وقال ابن عباس: جعلوا ثيابَهم على رؤوسهم لئلا يَسمعوا كلامَه. فاستِغشاءُ الثياب إذاً زيادة في سدِّ الآذان حتى لا يسمعوا، أو لتنكيرهم أنفسَهم حتى يَسكت، أو ليعرِّفوه إعراضَهم عنه. وقيل: هو كناية عن العَداوة. يقال: لبِس لي فلان ثيابَ العداوة. ﴿وَأَصَرُّوا﴾ أي: على الكفر فلم يتوبوا. ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا﴾ عن قبول الحقِّ؛ لأنهم قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]. ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ تفخيم[٣].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أي: مُظْهِراً لهم الدعوة. وهو منصوب بـ«دعوتُهم» نصبَ المصدر؛ لأن الدعاء أحدُ نوعيه الجِهار، فنصب به نصبَ القُرفُصاء

---

(١) كذا ذكر المصنف عن أبي عمرو، وهو وهم منه رحمه الله، فالذي روى إسكان الياء في هذا الحرف عن أبي عمرو هو عباس؛ كما ذكر ابن مجاهد في السبعة ص٦٥٢، وعباس هذا: هو ابن الفضل بن عمر، أبو الفضل الواقفي، فلعل وهم المصنف ذهب إلى عباس الدوري الذي روى عنه أصحاب السنن، فقال: الدوري عن أبي عمرو. ووُلد عباس الدوري سنة (١٨٥)، أي بعد وفاة أبي عمرو بن العلاء بحوالي ثلاثين عاماً. أما الدُّوري راوي أبي عمرو؛ فهو حفص بن عمر، أبو عمر، وقد روى عنه ـ هو والسوسي ـ فتح الياء في هذا الحرف. وقد وقع للمصنف رحمه الله مثل هذا الوهم في سورة المعارج الآية (٣٣).

(٢) في (د) و(ق) و(م) يروه. والمثبت من (خ)و(ظ) وهو الموافق لما في الوسيط ٤/ ٣٥٧، وزاد المسير ٨/ ٣٧٠.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠٠.

بقَعَد؛ لكونها أحد أنواع القعود، أو لأنه أراد بـ «دَعَوْتُهُم»: جاهرتُهم. ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا؛ أي: دعاءً جهاراً؛ أي: مجاهِراً به. أو يكون[١] مصدراً في موضع الحال، أي: دَعَوْتُهم مجاهِراً لهم بالدعوة.

﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾. أي: لم أُبْقِ مجهوداً. وقال مجاهد: معنى أعلنت: صحتُ[٢]، «وأسررت لهم إسراراً». بالدعاء عن بعضهم من بعض. وقيل: «أَسْرَرْتُ لَهُمْ» أي: أتيتهم في منازلهم. وكلُّ هذا من نوح عليه السلام مبالغة في الدعاء لهم، وتلطُّفٌ في الاستدعاء[٣].

وفتح الياءَ من «إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ» الحِرْمِيَّان[٤] وأبو عمرو، وأسكن الباقون[٥].

قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: سَلُوه المغفرةَ من ذنوبكم السالفةِ بإخلاص الإيمان. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾. وهذا منه ترغيبٌ في التوبة. وقد روى حُذَيفة بنُ اليمان عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الاستغفارُ مِمْحاة للذنوب». وقال الفُضيل: يقول العبد: أستغفرُ اللهَ، وتفسيرها: أَقِلْني[٦].

---

(١) في (م): ويكون، والمثبت من (ظ) و(ق) وهو الموافق لما في الكشاف ٤/ ١٦٢ والكلام منه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣/ ٢٩٣.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠١.

(٤) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: الحرميون. والحِرْميَّان هما: نافع المدني، وابن كثير المكي، والحِرْميّ ـ بكسر الحاء وسكون الراء ـ نسبة إلى الحَرَمَ على غير قياس في الناس، والنسبة في غير الناس: حَرَميّ، بفتح الحاء والراء. اللسان (حرم).

(٥) التيسير ص٢١٥، ولم يذكرها ابن مجاهد في السبعة.

(٦) النكت والعيون ٦/ ١٠١، والحديث ذكره الديلمي في الفردوس ١/ ١٢٤ (٤٢٨)، وقال المناوي في فيض القدير ٣/ ١٧٧: فيه عبيد بن كثير التمار، قال الذهبي: قال الأزدي: متروك وعبيد الله بن خراش، ضعفه الدارقطني وغيره.

الثانية: قوله تعالى: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ أي: يُرسل ماءَ السماء، ففيه إضمارٌ. وقيل: السماء المطر؛ أي: يُرسل المطرَ. قال الشاعر:

إذا سقط السماءُ بأرض قومٍ ... رَعيناه وإن كانوا غِضابا[١]

و«مِدْرَارًا»: ذَا غَيْثٍ كثير. وجزم «يُرْسِل» جواباً للأمر. وقال مقاتل: لمَّا كذَّبوا نوحاً زماناً طويلاً حبَس اللهُ عنهم المطرَ، وأعقَم أرحامَ نسائِهم أربعين سنةً؛ فهَلَكت مواشيهم وزروعهم، فصاروا[٢] إلى نوح عليه السلام واستغاثوا به. فقال: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾[٣] أي: لم يَزَل كذلك لمن أناب إليه. ثم قال ترغيباً في الإيمان: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾. قال قتادة: عَلِم نبيُّ الله ﷺ أنهم أهل حرصٍ على الدنيا فقال: هَلُمّوا إلى طاعة الله، فإن في طاعة الله دَرْكَ[٤] الدنيا والآخرة[٥].

الثالثة: في هذه الآية والتي في «هود»[٦] دليلٌ على أن الاستغفار يُستنزل به الرزقُ والأمطار. قال الشعبيُّ: خَرَج عمر يستسقي؛ فلم يَزد على الاستغفار حتى رجع، فأُمطروا، فقالوا: ما رأيناك استسقيتَ؟ فقال: لقد طلبتُ المطرَ بمجاديح السماء التي يُستنزل بها المطر؛ ثم قرأ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾[٧].

---

(١) البيت لمعاوية بن مالك، وسلف ١/ ٣٢٧.

(٢) في (ظ) فساروا.

(٣) الوسيط ٤/ ٣٥٧، والرازي ٣٠/ ١٣٧ بنحوه.

(٤) في (ظ): عزَّ.

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٠١، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٢٩٤.

(٦) ١١/ ١٤١ - ١٤٢.

(٧) أخرجه عبد الرزاق (٤٩٠٢)، وابن أبي شيبة ٢/ ٤٧٤، والطبري ٢٣/ ٢٩٣ - ٢٩٤، وابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٤٥ (١٠٩٦٠) قال الحافظ في الكافي الشاف ص ١٧٧. ورجاله ثقات إلا أنه منقطع.

وقوله: بمجاديح. جمع مِجْدَح، وهو نجم من النجوم، وهو عند العرب من الأنواء الدالَّة على المطر، فجعل الاستغفارَ مشبَّهاً بالأنواء؛ مخاطبةً لهم بما يعرفونه، لا قولاً بالأنواء التي يزعمون أن من شأنها المطر. ينظر النهاية (جدح).

وقال الأوزاعيُّ: خَرَج الناس يستسقون؛ فقام فيهم بلال بنُ سعد، فحمِد اللهَ وأثنى عليه، ثم قال: اللهمَّ إنا سمعناك تقول: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، وقد أقررنا بالإساءة، فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا؟! اللهم اغفرْ لنا وارحمنا واسقِنا! فرفع يديه ورَفعوا أيديَهم، فسُقُوا[١].

وقال ابن صَبِيح[٢]: شكا رَجلٌ، إلى الحسن الجُدوبةَ، فقال له: استغفرِ اللهَ. وشكا آخر إليه الفقرَ، فقال له: استغفر الله. وقال له آخر: ادعُ اللهَ أن يرزقني ولداً، فقال له: استغفر الله. وشكا إليه آخر جفافَ بستانه، فقال له: استغفر الله. فقلنا له في ذلك؟ فقال: ما قلت من عندي شيئاً؛ إن الله تعالى يقول في سورة نوح: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾[٣].

وقد مضى في سورة آل عمران[٤] كيفيةُ الاستغفار، وأن ذلك يكون عن إخلاص وإقلاعٍ من الذنوب، وهو الأصل في الإجابة.

قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾

قيل: الرجاءُ هنا بمعنى الخوف[٥]؛ أي: ما لَكم لا تخافون لله عظمةً وقدرة على أحدكم بالعقوبة. أيْ: أيُّ عذرٍ لكم في ترك الخوف من الله. وقال سعيد بن جُبَير وأبو العالية وعطاء بن أبي رَبَاح: ما لَكم لا تَرجون لله ثواباً ولا تخافون له[٦] عقاباً. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: ما لكم لا تخشَون لله عقاباً وترجون منه ثواباً[٧]. وقال

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٨٦٢ (١٠٢٠٩)، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٢٢٦.

(٢) هو الربيع بن صَبيح البصري، من رجال التهذيب.

(٣) الكشاف ٤/ ١٦٢، ومجمع البيان للطبرسي ٢٩/ ٦٧ - ٦٨، وذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٤، والرازي ٣٠/ ١٣٧.

(٤) ٥/ ٦٠.

(٥) الوسيط ٤/ ٣٥٨، وتفسير البغوي ٤/ ٣٩٨.

(٦) في (ظ): منه.

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٠١.

الوالبيُّ والعَوْفي عنه: ما لكم لا تعلَمون لله عظمةً. وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد: ما لكم لا تَرَوْن لله عظمة[١] وعن مجاهد والضحاك: مالكم لا تبالون لله عظمة[٢]. قال قُطْرُب: هذه لغة حجازية. وهُذيل وخزاعة ومُضَر يقولون: لم أرجُ: لم أُبالِ. والوَقار: العظمة. والتوقير: التعظيم[٣]. وقال قتادة: ما لكم لا ترجون لله عاقبةً[٤]؛ كأن المعنى: ما لكم لا ترجون لله عاقبةَ الإيمان. وقال ابن كَيسان: ما لكم لا ترجون في عبادة الله وطاعته أن يثيبكم على توقيركم خيراً[٥]. وقال ابن زيد: ما لكم لا تؤدُّون لله طاعةً. وقال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقًّا ولا تشكرون له نعمةً. وقيل: ما لكم لا توحِّدون اللهَ؛ لأن من عَظَّمه فقد وحَّده. وقيل: إن الوَقار الثباتُ للهِ عزَّ وجلَّ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب:٣٣] أي: اثبتن. ومعناه: ما لكم لا تُثبتون وحدانيةَ اللهِ تعالى وأنه إلهكم لا إله لكم سواه؛ قاله ابنُ بحر.

ثم دَلَّهم على ذلك فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[٦] أي: جَعَل لكم في أنفسكم آيةً تدل على توحيده[٧]. قال ابن عباس: «أَطْوَارًا» يعني نطفة ثم علقة ثم مضغة[٨]؛ أي: طَوْراً بعد طور إلى تمام الخَلْق، كما ذكر في سورة المؤمنون[٩]. والطَّوْرُ في اللغة: المَرَّةُ، أي: مَن فَعَل هذا وقَدَرَ عليه فهو أحقُّ أن تُعَظِّموه. وقيل: «أَطْوَارًا»: صبياناً، ثم شباباً، ثم شيوخاً وضعفاء، ثم أقوياء. وقيل: أطواراً أي: أنواعاً: صحيحاً

---

(١) تفسير البغوي ٤/٣٩٨، وأخرجه عنهما الطبري ٢٣/٢٩٥، وعن ابن عباس البيهقي في شعب الإيمان (٧٢٨).

(٢) أخرجه عنهما الطبري ٢٣/٢٩٥.

(٣) الوسيط ٤/٣٥٨.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/٣١٩، والطبري ٢٣/٢٩٦.

(٥) تفسير البغوي ٤/٣٩٨.

(٦) النكت والعيون ٦/١٠١ – ١٠٢.

(٧) الوسيط ٤/٣٥٨.

(٨) أخرجه الطبري ٢٣/٢٩٧.

(٩) ١٥/١٩.

وسقيماً، وبصيراً وضريراً، وغنيًّا وفقيراً[١]. وقيل: إن «أطواراً»: اختلافُهم في الأخلاق والأفعال[٢].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ ذكَر لهم دليلاً آخر، أي: ألم تعلموا أن الذي قدر على هذا، فهو الذي يجب أن يُعْبَد؟! ومعنى «طِبَاقًا»: بعضها فوق بعض[٣]، كل سماء مُطبقة على الأخرى كالقباب؛ قاله ابن عباس والسدّيُّ. وقال الحسن: خَلق اللهُ سبعَ سماوات طباقاً على سبع أرضين، بين كل أرض وأرض وسماءٍ وسماء خَلْقٌ وأمرٌ[٤].

وقوله: «أَلَمْ تَرَوْا» على جهة الإخبار لا المعاينة؛ كما تقول: ألم ترني كيف صنعت بفلان كذا. و«طِبَاقاً» نصب على أنه مصدر، أي: مطابقة طباقاً. أو حال بمعنى ذات طباق؛ فحذف ذات وأقام طِباقاً مقامه[٥].

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: في سماء الدنيا؛ كما يقال: أتاني بنو تميم وأتيت بني تميم، والمراد بعضهم؛ قاله الأخفش[٦]. قال ابن كَيْسان: إذا كان في إحداهن فهو فيهنَّ. وقال قُطْرُب: «فِيهِنّ» بمعنى معهنَّ[٧]؛ وقاله الكلبيُّ. أي: خلق الشمسَ والقمر مع خلق السماوات والأرض. وقال جِلَّةُ أهل اللغة في قول امرئ القيس:

---

(١) ينظر مجمع البيان للطبرسي ٢٩/ ٦٨.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٠٢.

(٣) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢٣/ ٢٩٩.

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٠٢ بنحوه.

(٥) ينظر معاني للزجاج ٥/ ٢٣٠، وتفسير الطبري ٢٣/ ٢٩٩.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٧١٥، ونقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٧١.

(٧) مجمع البيان ٢٩/ ٧٠ دون نسبة.

وهل ينعمن مَنْ كانَ آخِرُ عهدِهِ ثلاثين شهراً في ثلاثةِ أحوالِ[(١)]

: «في» بمعنى مع. النحاس: وسألت أبا الحسن بن كَيسان عن هذه الآية فقال: جواب النحْويين أنه إذا جعله في إحداهنَّ فقد جعلَه فيهنَّ، كما تقول: أعطني الثياب المُعْلَمة وإن كنتَ إنما أعلمت أحدَها. وجوابٌ آخر: أنه يروى أن وجه القمر إلى السماء، وإذا كان إلى داخلها فهو متصل بالسماوات[(٢)] .

ومعنى: «نُورًا» أي: لأهل الأرض؛ قاله السدّيُّ[(٣)]. وقال عطاء: نوراً لأهل السماء والأرض. وقال ابن عباس وابن عمر: وجهه يضيء لأهل الأرض وظهره يضيء لأهل السماء.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾ يعني مصباحاً لأهل الأرض ليتوصلوا إلى التصرف لمعايشهم. وفي إضاءتها لأهل السماء القولان الأوّلان؛ حكاه الماورديُّ[(٤)]. وحكى القشيريُّ عن ابن عباس أن الشمسَ وجهها في السماوات وقفاها في الأرض[(٥)]. وقيل: على العكس. وقيل لعبد الله بن عمر[(٦)]: ما بالُ الشمس تَقْلِينا أحياناً وتَبْرُد علينا أحياناً؟ فقال: إنها في الصيف في السماء الرابعة، وفي الشتاء في السماء السابعة عند عرش الرحمن؛ ولو كانت في السماء الدنيا لمَا قام لها شيء.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ۝١٨﴾

يعني آدم عليه السلام خلقه من أديم الأرض كلِّها؛ قاله ابن جريج[(٧)]. وقد مضى

---

(١) ديوانه ص٢٧، وفيه: وهل يَعِمَنْ من كان أحدثُ عهده، وسلف ١٣/ ١٦٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٣٩ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠٢ .

(٤) في النكت والعيون ٦/ ١٠٢ ، وقول ابن عباس وابن عمر ذكره عن ابن عباس فقط.

(٥) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٠٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧٥ .

(٦) في (ظ) و(ق) : عمرو .

(٧) النكت والعيون ٦/ ١٠٢ .

في سورة الأنعام والبقرة بيان ذلك[١]. وقال خالد بن مَعْدان: خلق الإنسانَ من طين، فإنما تلين القلوب في الشتاء[٢]. و«نَبَاتاً» مصدر على غير المصدر؛ لأن مصدره أنبت إنباتاً، فجعل الاسم الذي هو النَّبات في موضع المصدر. وقد مضى بيانه في سورة آل عمران[٣] وغيرها. وقيل: هو مصدر محمولٌ على المعنى؛ لأن معنى: «أَنْبَتَكُمْ» جعلكم تنبتون نباتاً؛ قاله الخليل والزجاج[٤]. وقيل: أي أنبت لكم من الأرض النبات. فـ«نَبَاتاً» على هذا نصب على المصدر[٥] الصريح. والأوّل أظهرُ.

وقال ابن بحر[٦]: أنبتهم في الأرض بالكِبَر بعد الصِّغَر، وبالطول بعد القِصَر.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: عند موتكم بالدفن. ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ بالنشور للبعث يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي: مبسوطة. ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ السُّبُل: الطُّرق. والفِجاج جمع فَجٍّ، وهو الطريق الواسعة؛ قاله الفرَّاء. وقيل: الفَجُّ: المسلَك بين الجبلين. وقد مضى في سورة الأنبياء والحج[٧].

قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾

شكَاهم إلى الله تعالى، وأنهم عصَوْه ولم يتَّبعوه فيما أمرهم به من الإيمان. وقال

(١) ٨/ ٣٢٠ و١/ ٤١٩ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٠٢ .

(٣) ٥/ ١٠٤ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٣٠ . وزاد المسير ٨/ ٣٧٢ .

(٥) في (ظ) و(ق) : المفعول .

(٦) في (م) ابن جريج . والمثبت من النسخ الخطية وهو الموافق لما في النكت والعيون ٦/ ١٠٢ .

(٧) ١٤/ ١٩٨ - ١٩٩ و٣٦٤ - ٣٦٥ .

أهل التفسير: لبث فيهم ما أخبر الله تعالى: ألفَ سنة إلا خمسين عاماً داعياً لهم وهم على كفرهم وعصيانهم. قال ابن عباس: رجا نوحٌ عليه السلام الأبناءَ بعد الآباء؛ فيأتي بهم الولد بعد الولد حتى بلغوا سبع قرون، ثم دعا عليهم بعد الإياس منهم، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفَشَوْا. قال الحسن: كان قوم نوح يَزرعون في الشهر مرتين؛ حكاه الماورديُّ[١].

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ يعني كبراءهم وأغنياءهم الذين لم يزدهم كفرُهم وأموالهم وأولادهم إلا ضلالًا في الدنيا وهلاكاً في الآخرة.

وقرأ أهل المدينة والشام وعاصم: «وَوَلَدُه» بفتح الواو واللام. الباقون: «وُلْده» بضم الواو وسكون اللام[٢] وهي لغة في الولد. ويجوز أن يكون جمعًا للولد، كالفُلْك، فإنه واحد وجمع. وقد تقدَّم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾

أي: كبيراً عظيماً. يقال: كَبير وكُبَار وكُبَّار، مثل عجيب وعُجَاب وعُجَّاب بمعنًى، ومثله طويل وطُوَال وطُوَّال. يقال: رجل حَسن وحُسَّان، وجميل وجُمَّال[٤]، وقُرَّاء للقارئ[٥]، ووُضَاء للوضيء. وأنشد ابنُ السِّكِّيت:

بَيْضاء تَصْطادُ القلوب وتَسْتَبي ... بالحسن قَلْبَ المُسْلِم القُرَّاءِ

وقال آخر:

والمَرْءُ يُلْحِقُه بِفِتْيَانِ النَّدَى ... خُلُقُ الكريم وليس بالوُضَّاءِ[٦]

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ١٠٣.

(٢) السبعة ص ٦٥٢ - ٦٥٣، والتيسير ص ٢١٥.

(٣) ٢/ ٤٩٤.

(٤) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٣٩٩، ومجمع البيان للطبرسي ٢٩/ ٧٠.

(٥) والقُرَّاء أيضاً: الناسك المتعبِّد. القاموس (قرأ).

(٦) هذا البيت والذي قبله من قصيدة واحدة أنشدها أبو صدقة الدُّبَيْري للفراء كما ذكر ابن السكيت في إصلاح المنطق ص ١٢٤، وذكره الجوهري في الصحاح (وضأ) (قرأ)، وابن منظور في اللسان (وضأ)، وذكر الزَّبيدي البيت الأول في تاج العروس، ونسبه لزيد بن تُرك الدُّبيري.

وقال المبرِّد: «كُبَّارًا» ـ بالتشديد ـ للمبالغة. وقرأ ابن مُحَيْصِن وحُميد ومجاهد: «كُبَارًا» بالتخفيف[١].

واختلف في مكرهم ما هو؟ فقيل: هو تحريشُهم سَفِلَتَهم على قتل نوح[٢]. وقيل: هو تعزيزُهم الناس بما أُوتوا من الدنيا والولد؛ حتى قالت الضَّعَفَةُ: لولا أنهم على الحقّ لَمَا أوتوا هذه النعم. وقال الكلبيُّ: هو ما جعلوه لِله من الصاحبة والولد. وقيل: مكرهم كفرُهم. وقال مقاتل: هو قول كبرائهم لأتباعهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾﴾

قال ابن عباس وغيره: هي أصنام وصُوَر، كان قوم نوح يعبدونها، ثم عبدتها العرب[٤] وهذا قول الجمهور.

وقيل: إنها للعرب لم يعبدها غيرُهم[٥]، وكانت أكبرَ أصنامهم وأعظمَها عندهم؛ فلذلك خَصُّوها بالذكر بعد قوله تعالى: «لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ». ويكون معنى الكلام: كما قال قومُ نوح لأتباعهم: «لا تَذَرُنَّ آلهتكم»؛ قالت العرب لأولادهم وقومهم: لا تذرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً؛ ثم عاد بالذكر بعد ذلك إلى قوم نوح عليه السلام. وعلى القول الأوّل؛ الكلام كلُّه منسوق في قوم نوح.

وقال عُروة بن الزبير وغيره: اشتكى آدم عليه السلام وعنده بنوه: وَدٌّ، وسُواعٌ، ويغوثُ، ويعوقُ، ونَسرٌ. وكان وَدٌّ أكبرَهم وأبرَّهم به[٦].

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٦٢، وذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٣٤١ بضم الكاف وكسرها.

(٢) الكلام بنحوه في الكشاف ٤/ ١٦٤.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠٣ - ١٠٤.

(٤) أخرجه بنحوه البخاري (٤٩٢٠).

(٥) النكت والعيون ٦/ ١٠٤.

(٦) المصدر السابق.

قال محمد بن كعب: كان لآدم عليه السلام خمس بنين: وَدّ، وسُواع، ويَغوث، ويَعوق، ونَسر؛ وكانوا عُبَّاداً، فمات واحدٌ[١] منهم، فحزنوا عليه، فقال الشيطان: أنا أصوِّر لكم مثله إذا نظرتم إليه ذكرتموه. قالوا: افعل. فصوَّره في المسجد من صُفْر ورصاص، ثم مات آخر، فصوَّره حتى ماتوا كلُّهم فصوَّرهم. وتنقَّصَت الأشياء كما تَتنقَّص اليوم إلى أن تركوا عبادَة الله تعالى بعد حين. فقال لهم الشيطان: ما لكم لا تعبدون شيئاً؟ قالوا: وما نعبد؟ قال: آلهتكم وآلهة آبائكم، ألا ترونها[٢] في مُصَلَّاكم؟ فعبدوها من دون الله؛ حتى بعث الله نوحاً فقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ الآية.

وقال محمد بن كعب أيضاً ومحمد بن قيس: بل كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم تَبَع يَقتدون بهم، فلما ماتوا زَيَّن لهم إبليس أن يصوِّروا صورهم ليتذكروا بها اجتهادهم، وليتسَلَّوا بالنظر إليها؛ فصوَّرهم. فلما ماتوا هُم وجاء آخرون قالوا: لَيْتَ شِعْرَنا! هذه الصور ما كان آباؤنا يصنعون بها!؟ فجاءهم الشيطان فقال: كان آباؤكم يعبدونها، فترحمهم وتسقيهم المطر. فعبدوها فابتدئ عبادة الأوثان من ذلك الوقت[٣].

قلت: وبهذا المعنى فسِّر ما جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة: أن أمَّ حبيبة وأمَّ سَلَمة ذكرتا كَنيسةً رأيْنَها بالحبشة تسمَّى مارية، فيها تصاوير لرسول الله ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ: «إن أولئِك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات؛ بَنَوْا على قبره مسجداً وصوَّروا فيه تلك الصّوَر، أولئك شِرارُ الخلق عند الله يوم القيامة»[٤].

---

(١) في (د) و(ظ): رجل.

(٢) في (د) و(م) ألا ترون. والمثبت من (ظ) و(ق) وهو الموافق لما في زاد المسير ٨/ ٣٧٣ والكلام بنحوه منه، وينظر تفسير الرازي ٣٠/ ١٤٣ - ١٤٤.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٥٩، والبغوي ٤/ ٣٩٩ عن محمد بن كعب، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٠٣ عن محمد بن قيس بنحوه.

(٤) صحيح مسلم (٥٢٨)، وسلف ٢/ ٢٩٤.

وذكر الثعلبيُّ عن ابن عباس قال: هذه الأصنام أسماء رجال صالحين من قوم نوح؛ فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمُّوها بأسمائهم تذكروهم بها؛ ففعلوا، فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسخ العلم؛ عُبدت من دون الله[١].

وذُكِر أيضاً عن ابن عباس: أن نوحاً عليه السلام، كان يحرس جسدَ آدم عليه السلام على جبل بالهند، فيمنع الكافرين أن يطوفوا بقبره؛ فقال لهم الشيطان: إن هؤلاء يفخرون عليكم ويزعمون أنهم بنو آدم دونكم، وإنما هو جسد، وأنا أصوِّر لكم مثله تطوفون به؛ فصوَّر لهم هذه الأصنام الخمسة وحملهم على عبادتها. فلما كان أيام الطوفان دفنها الطين والتراب والماء؛ فلم تزل مدفونةً حتى أخرجها الشيطانُ لمشركي العرب[٢].

قال الماوَرْدِيُّ[٣]: فأما وَدٌّ؛ فهو أوّل صنمٍ معبود، سُمِّي وَدًّا لودِّهم له؛ وكان بعدَ قومِ نوح لكَلْب بدومة الجَنْدَل؛ في قول ابن عباس وعطاء ومقاتل. وفيه يقول شاعرُهم:

حَيَّاك وَدٌّ فإنَّا لا يحلُّ لنا ... لَهْوُ النساءِ وإن الدِّين قد عَزَمَا[٤]

وأما سُواعٌ؛ فكان لهذيل بساحل البحر؛ في قولهم.

وأما يَغُوثُ؛ فكان لغُطَيف من مُراد بالجَوْف[٥] من سبأ؛ في قول قتادة.

وقال المهدَوِيُّ: لمُراد ثم لغَطَفان. الثعلبيُّ: وأخذت أعلى وأنعُم ـ وهما من

(١) وأخرجه البخاري (٤٩٢٠).

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٩/ ٧٢ دون نسبة، ومن قوله: فلما كان أيام الطوفان... إلى هنا، ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٤٠٠ عن ابن عباس.

(٣) في النكت والعيون ٦/ ١٠٤ - ١٠٥.

(٤) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص ١٠١، وهو في كتاب الأصنام لابن الكلبي ص١٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦، وروايته في الديوان: حيَّاك ربي، بدل: حياك ودٌّ.

(٥) في (ظ): بالجرف. وهي في بعض نسخ البخاري كما ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٦٦٨.

طيِّئ ـ وأهل جُرَش من مَذْحج يَغُوث، فذهبوا به إلى مُرَاد، فعبدوه زماناً. ثم إن بني ناجية أرادوا نزعه من أنعُم، ففرُّوا به إلى الحُصَين أخي بني الحارث بن كعب من خُزاعة.

وقال أبو عثمان النَّهْدِي: رأيت يغوث وكان من رَصاص، وكانوا يحملونه على جمل أَجْرَد، ويسيرون معه لا يَهيجونه حتى يكون هو الذي يَبْرُك، فإذا بَرَك نزلوا وقالوا: قد رضي لكم المنزل؛ فيضربون عليه بناءً ينزلون حوله[1].

وأما يَعُوق؛ فكان لهَمْدان ببَلْخَع؛ في قول عكرمة وقتادة وعطاء. ذكره الماورديُّ. وقال الثعلبيُّ: وأما يَعُوق؛ فكان لكَهْلان من سَبَأ، ثم توارثه بنوه؛ الأكبر [فالأكبر] حتى صار إلى هَمْدان. وفيه يقول مالك بن نمط الهمداني:

يَـريـشُ الـلـهُ فـي الـدنـيـا ويَـبْـري ... ولا يَـبْـرِي يـعـوقُ ولا يَـرِيـشُ[2]

وأما نَسرٌ فكان لذي الكَلَاعِ من حِمْير؛ في قول قتادة، ونحوه عن مقاتل[3]. وقال الواقديّ: كان وَدٌّ على صورة رجل، وسُواعٌ على صورة امرأة، ويغوثُ على صورة أسد، ويعوقُ على صورة فرس، ونسرٌ على صورة نَسْر من الطير؛ فالله أعلم[4].

وقرأ نافع: «وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا» بضم الواو. وفتحها الباقون[5].

قال الليث: وَدٌّ ـ بفتح الواو ـ صنمٌ كان لقوم نوح، ووُدٌّ ـ بالضم ـ صنمٌ لقريش؛ وبه سُمِّي عمرو بن وُدّ[6]. وفي الصحاح: والوَدّ ـ بالفتح ـ الوَتِدُ في لغة أهل نجد؛

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٠٤. وقوله: أجرد، أي: سبّاق.

(٢) ذكر البيت مع قول الثعلبي أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٣٤١ - ٣٤٢ وابن عادل في اللباب ١٩/ ٣٩٧، وما بين حاصرتين من اللباب.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠٥، وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٢٠، والطبري ٢٣/ ٣٠٤، وقاله ابن عباس في حديث البخاري (٤٩٢٠).

(٤) زاد المسير ٨/ ٣٧٤.

(٥) السبعة ص ٦٥٣، والتيسير ص ٢١٥.

(٦) تفسير الرازي ٣٠/ ١٤٤.

كأنهم سكَّنوا التاءَ وأدغموها في الدال. والوَدُّ في قول امرئ القيس:

تُظْهِرُ الوَدَّ إذا ما أَشْجَذَتْ وتُوارِيهِ إذا ما تَعْتَكِرْ

قال ابن دُريد: هو اسم جبل: ووَدٌّ صنم كان لقوم نوح عليه السلام، ثم صار لكلب وكان بدُومة الجَنْدَل؛ ومنه سمّوه عبد وَدٍّ[١].

وقال: «لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ» ثم قال: «وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا» الآية، خصَّهَا بالذِّكر؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب:٧].

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ هذا من قول نوح، أي: أضلَّ كبراؤهم كثيرًا من أتباعهم؛ فهو عطف على قوله: «وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا». وقيل: إن الأصنام «أَضَلُّوا كَثِيرًا»، أي: ضلَّ بسببها كثير؛ نظيره قول إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦] فأجرى عليهم وصف ما[٢] يعقل؛ لاعتقاد الكفار فيهم ذلك.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا﴾ أي: عذابًا؛ قاله ابن بحر. واستشهد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر:٤٧]. وقيل: إلا خسراناً. وقيل: إلا فتنةً بالمال والولد. وهو محتمل[٣].

قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خطاياهم أُغْرِقُوا۟﴾ «ما» صلة مؤكِّدة، والمعنى: من خطاياهم. وقال الفرَّاء: المعنى من أجل خطاياهم، فأدَّت «ما» هذا المعنى. قال: و«ما» تدل على المجازاة[٤].

---

(١) الصحاح (ودد)، والبيت في ديوان امرئ القيس ص ١٤٤، وروايته فيه: تخرج الود، بدل: تظهر الود، وتشتكر، بدل: تعتكر وقوله: أشجذت أي: أقلعت وسكنت، يعني الغيمة.

(٢) في (ظ): من. والكلام بنحوه في تفسير الرازي ٣٠/ ١٤٤.

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠٥.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٨٩ - ١٩٠ بنحوه، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٤٢.

وقراءة أبي عمرو: «خَطَايَاهُمْ» على جمع التكسير؛ الواحدة خطيَّة. وكان الأصل في الجمع خطائئ على فعائل[(١)]؛ فلما اجتمعت الهمزتان قُلِبت الثانية ياءً؛ لأن قبلها كسرة ثم استثقلت والجمع ثقيل، وهو معتلٌّ مع ذلك؛ فقلبت الياء ألفاً، ثم قلبت الهمزة الأولى ياء لخفائها بين الألفين. الباقون «خَطِيَٓـٰتِهِمْ» على جمع السلامة[(٢)].

قال أبو عمرو: قوم كفروا ألف سنة، فلم يكن لهم إلا خطيئات! يريد أن الخطايا أكثر من الخطيئات. وقال قوم: خطايا وخطيئات واحد، جمعان مستعملان في الكثرة والقلَّة؛ واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ [لقمان:٢٧] وقال الشاعر:

لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعْنَ بِالضّحَى وأسيافُنا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدةٍ دَمَا[(٣)]

وقرئ: «خطيئاتهم» و«خطِيّاتِهم»[(٤)] بقلب الهمزة ياء وإدغامها. وعن الجَحْدَرِيِّ وعمرو بن عبيد والأعمش وأبي حَيْوة وأشهب العقيلي: «خطيئتِهِم» على التوحيد[(٥)]، والمراد: الشرك. ﴿فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ أي: بعد إغراقهم.

قال القشيريُّ: وهذا يدلُّ على عذاب القبر. ومنكروه يقولون: صاروا مستحقين دخولَ النار، أو عُرِض عليهم أماكنهم من النار؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۖ﴾ [غافر:٤٦].

وقيل: أشاروا إلى ما في الخبر من قوله: «البحر نار في نار»[(٦)].

---

(١) في (ق) فعائيل.

(٢) السبعة ص ٦٥٣، والتيسير ص ٢١٥، وسلف كلام الخليل وسيبويه في أصل «خطايا» ٢/ ١٣٠-١٣١.

(٣) البيت لحسان بن ثابت وهو في ديوانه ص ٤٢٧.

(٤) في (د): خطاياهم، وخطيئاتهم

(٥) ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٦٢ خطيَّاتهم من قراءة أبي رجاء، وخطيئتهم من قراءة الجحدري وعبيد عن أبي عمرو.

(٦) أخرج الحاكم ٤/ ٥٩٦ عن يعلى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن البحر هو جهنم».

وأخرج ابن أبي شيبة ١/ ١٣١ عن عبد الله بن عمرو قال: «... إن تحت البحر ناراً ثم ماء ثم نار». وقد ذكر الحاكم هذا الحديث مرفوعاً إثر الحديث السالف.

وروى أبو رَوْق عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ قال: يعني عُذِّبوا بالنار في الدنيا مع الغرق في الدنيا في حالة واحدة؛ كانوا يَغرقون في جانب ويحترقون في الماء من جانب[١]. ذكره الثعلبيُّ قال[٢]: أنشدنا أبو القاسم الحبيبي، قال: أنشدنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن رُمَيح قال: أنشدني أبو بكر بن الأنباريّ:

الخلق مجتمِع طَوْرًا ومفترِقٌ والحادِثَات فُنُونٌ ذاتُ أطوارِ
لا تعجبنَّ لِأضدادٍ إنِ اجتمعتْ فاللهُ يجمع بين الماءِ والنارِ[٣]

﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي: مَن يَدفع عنهم العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: دعا عليهم حين يَئس من اتّباعهم إيَّاه. وقال قتادة: دعا عليهم بعد أن أَوحى اللهُ إليه: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾[٤] [هود:٣٦]. فأجاب اللهُ دعوته وأغرَق أُمَّتَه. وهذا كقول النبيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ منزل الكتاب، [سريعَ الحساب]، وهازم الأحزاب، اهزمهم وزلزِهم»[٥].

وقيل: سببُ دعائه أن رجلاً من قومه حمل ولداً صغيراً على كتفه، فمرَّ بنوحٍ فقال: احذر هذا فإنه يضلك. فقال: يا أبتِ أنزلني؛ فأنزله فرماه فشجَّه؛ فحينئذٍ

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٠٠، والكشاف ٤/ ١٦٥، وزاد المسير ٨/ ٣٧٤. دون قوله: ويحترقون في الماء.

(٢) لفظة: قال، من (ظ).

(٣) اللباب لابن عادل الحنبلي ١٩/ ٤٠٠.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٠٥ وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٢٠، والطبري ٢٣/ ٣٠٨.

(٥) أخرجه الإمام أحمد (١٩١٠٧)، والبخاري (٢٩٣٣)، ومسلم (١٧٤٢) عن عبد الله بن أبي أوفى، وسلفت قطعة منه ١٤/ ٣١١، وما بين حاصرتين من المصادر.

غَضِبَ ودعا عليهم[١].

وقال محمد بن كعب ومقاتل والربيع وعطية وابن زيد: إنَّما قال هذا حينما أخرَج اللهُ كلَّ مؤمن من أصلابهم وأرحامِ نسائهم. وأعقمَ أرْحَام النساء وأصلابَ الرجال قبل العذاب بسبعين سنة[٢]. وقيل: بأربعين[٣]. قال قتادة: ولم يكن فيهم صبيٌّ وقت العذاب.

وقال الحسن وأبو العالية: لو أَهْلَكَ اللهُ أطفالهم معهم كان عذاباً من الله لهم وعدلاً فيهم؛ ولكنَّ الله أهلكَ أطفالَهم وذرِّيتهم بغير عذاب، ثم أهلكهم بالعذاب؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾[٤] [الفرقان: ٣٧].

الثانية: قال ابن العربيِّ[٥]: دعا نوحٌ على الكافرين أجمعين، ودعا النبيُّ ﷺ على من تحزَّب على المؤمنين وألَّب عليهم. وكان هذا أصلاً في الدعاء على الكافرين في الجملة، فأما كافرٌ معيَّن لم تُعْلَم خاتمتُه فلا يدعَى عليه؛ لأن مآله عندنا مجهولٌ، وربما كان عندَ الله معلومَ الخاتمة بالسعادة. وإنما خصَّ النبيُّ ﷺ بالدعاء عُتبةَ وشَيْبَةَ وأصحابَهما[٦]؛ لعلمه بمآلهم، وما كُشِفَ له من الغطاء عن حالهم. والله أعلم.

قلت: قد مضت هذه المسألة مجوَّدة في سورة البقرة[٧] والحمد لله.

الثالثة: قال ابن العربي[٨]: إن قيل: لِمَ جَعَل نوحٌ دعوتَه على قومه سبباً لتوَقُّفه عن طلب الشفاعة للخلق من الله في الآخرة؟ قلنا: قال الناس: في ذلك وجهان:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٠٥، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٣١٩، والطبري ٢٣/ ٢٩١ عن قتادة.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٧ من قول محمد بن كعب والربيع وابن زيد.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٣٧٥، والرازي ٣٠/ ١٣٧ من قول مقاتل.

(٤) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٦٦، والرازي في تفسيره ٣٠/ ١٤٧ عن الحسن بنحوه.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٤٨ - ١٨٤٩.

(٦) أخرجه البخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٧) ٢/ ٤٨٥ وما بعد.

(٨) في أحكام القرآن ٤/ ١٨٤٩.

أحدهما: أن تلك الدعوة نشأت عن غضبٍ وقسوة، والشفاعةُ تكون عن رِضاً ورِقَّة، فخاف أن يُعاتَب بها ويقال: دعوتَ على الكفار بالأمس وتشفعُ لهم اليوم!

الثاني: أنه دعا غضباً بغير نصٍّ ولا إذنٍ صريح في ذلك؛ فخاف الدَّرْكَ[(١)] فيه يوم القيامة؛ كما قال موسى عليه السلام: إنِّي قَتَلْتُ نَفْساً لم أُومر بقتلها. قال: وبهذا أقول.

قلت: وإن كان لم يؤمر بالدعاء نَصًّا فقد قيل له: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾. فأُعلم عواقبهم، فدعا عليهم بالهلاك؛ كما دعا نبيُّنا ﷺ على شَيْبة وعتبة[(٢)] ونظرائهم فقال: «اللهم عليك بهم»[(٣)]؛ لمَّا أُعلم عواقبهم؛ وعلى هذا يكون فيه معنى الأمر بالدعاء. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي: من يسكن الديار؛ قاله السدّيُّ[(٤)]. وأصله: دَيوار على فَيْعال من دار يَدور؛ فقلبت الواو ياءً وأدغمت إحداهما في الأخرى. مثل القيَّام؛ أصله: قَيْوام. ولو كان فعَّالاً لكان دَوَّاراً. وقال القُتَبيُّ[(٥)]: أصله من الدار، أي: نازل بالدار. يقال: ما بالدار ديَّار، أي: أحد. وقيل: الديّار صاحبُ الدار.

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ دعا لنفسه ولوالديه وكانا مؤمِنَيْنِ. وهما:

---

(١) الدرْك: التبعة. القاموس (درك).

(٢) في (ظ) وعقبة.

(٣) سلف تخريجه في الصفحة السالفة، ولفظه في الصحيح: «اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عقبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط».

(٤) النكت والعيون ٦/ ١٠٥ .

(٥) في تفسير غريب القرآن ص٤٨٨ ، وذكره عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٧٥ ، والرازي في تفسيره ٣٠/ ١٤٦ .

لمك[١] بن متوشلخ وشمخى بنت أنوش[٢]؛ ذكره القشيريُّ والثعلبيُّ. وحكى الماورديُّ[٣] في اسم أمّه: منجل. وقال سعيد بن جُبَير: أراد بوالديه أباه وجدَّه[٤].

وقرأ سعيد بن جُبَير «لِوَالِدِي» بكسر الدال على الواحد[٥]. قال الكلبيُّ: كان بينه وبين آدم عشرة آباء كلهم مؤمنون[٦]. وقال ابن عباس: لم يكفر لنوح والدٌ فيما بينه وبين آدم عليهما السلام[٧].

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ أي: مسجدي ومُصلَّاي مصلِّياً مصدِّقاً بالله[٨]. وكان إنما يَدخل بيوت الأنبياء من آمن منهم، فجعل المسجد سبباً للدعاء بالمغفرة. وقد قال النبيُّ ﷺ: «الملائكة تصلّي على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلّى فيه ما لم يُحْدِث فيه تقول: اللهم اغفر له اللهم ارحمه» الحديث. وقد تقدَّم[٩]. وهذا قول ابن عباس: «بيتي»: مسجدي[١٠]؛ حكاه الثعلبيُّ وقاله الضحاك[١١].

وعن ابن عباس أيضاً: أي: ولمن دخَل دِيني، فالبيت بمعنى الدِّين[١٢]؛ حكاه القشيريُّ وقاله جُوَيْبِر. وعن ابن عباس أيضاً: يعني صديقي الداخل إلى منزلي؛ حكاه

---

(١) في (د) و(ظ) و(ق): لامك.

(٢) الوسيط ٤/ ٣٦٠، والكشاف ٤/ ١٦٥.

(٣) في النكت والعيون ٦/ ١٠٦.

(٤) المصدر السابق.

(٥) القراءات الشاذة ص١٦٢.

(٦) ذكره الرازي في تفسيره ٣٠/ ١٤٦ من قول عطاء بنحوه.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٧.

(٨) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٠٨.

(٩) ٢/ ٣٤، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(١٠) زاد المسير ٨/ ٣٧٥.

(١١) النكت والعيون ٦/ ١٠٦، وأخرجه الطبري ٢٣/ ٣٠٨.

(١٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٧.

الماورديُّ[١]. وقيل: أراد داري. وقيل: سفينتي[٢].

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۖ﴾ عامَّةً إلى يوم القيامة؛ قاله الضحاك[٣]. وقال الكلبيُّ: من أمّة محمد ﷺ. وقيل: من قومه؛ والأوّل أظهر.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الكافرين. ﴿إِلَّا تَبَارًۢا﴾: إلا هلاكاً، فهي عامَّة في كلِّ كافر ومشرك. وقيل: أراد مشركي قومه، والتَّبَار: الهلاك. وقيل: الخسران؛ حكاهما السُّدّيُّ[٤]. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٣٩].

وقيل: التَّبار: الدَّمار، والمعنى واحد[٥]، والله أعلم بذلك. وهو الموفِّق للصواب.

(١) في النكت والعيون ٦/ ١٠٦ وقول جويبر فيه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٧ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ١٠٦ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) تفسير الرازي ٣٠/ ١٤٧ بنحوه.

سُورَةُ نُوحٍ

مَكيَّةٌ، وآيُها تِسعٌ أو ثمانٍ وعِشرونٌ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ﴾: بأَنْ أنذِرْ، أي: بالإنذارِ، أو: بأَنْ قُلنَا له: ﴿أَنذِرۡ﴾، ويجوزُ أَنْ تكونَ مُفسِّرَةً لتَضمُّنِ الإرسالِ مَعنى القولِ.

وقُرِئَ بغيرِها على إرادةِ القولِ[1].

﴿قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾: عذابُ الآخرةِ، أو الطُّوفان.

(٢ ـ ٣) ـ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ مرَّ في الشُّعراءِ نَظيرُه، وفي ﴿أَنِ﴾ يُحتَملُ الوَجهانِ.

(٤) ـ ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾: بعضَ ذُنوبِكُم وهو ما سبقَ؛ فإنَّ الإسلامَ يجُبُّه[2] فلا يؤاخِذُكُم به في الآخرةِ.

﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ هو أقصى ما قُدِّرَ لكم بشرطِ الإيمانِ والطَّاعةِ[3].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٨٧)، و«الكشاف» (٩/ ٢٨٧)، عن ابن مسعود.

(٢) في نسخة الخيالي: «يجب ما قبله».

(٣) قولُه: «هو أقصَى ما قُدِّرَ لكم...» يعني: أنَّه أجلٌ معلَّقٌ بالإيمانِ، بأن يُكتَبَ في اللَّوحِ المحفوظِ أنَّهم إنْ آمنُوا يمتدُّ عمرُهم إلى مدَّةٍ كذا، وإلَّا استُؤصِلُوا وأُهلِكُوا قبلَه، وقد علِمَ الله مَن يُؤمنُ فيمتدُّ عمرُه، ومَن لـم يُؤمِنْ فيُهلِكُه، وما علِمَه لا يتغيَّرُ، وهو قولُه بعده: «إنَّ الأجلَ الَّذي قدَّرَه... إلخ». قاله الشهاب.

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾: إن الأجلَ الذي قدَّرَه ﴿إِذَا جَآءَ﴾ على الوجهِ المقدَّرِ به آجلًا[1].

وقيل: إذا جاءَ الأجلُ الأطوَلُ.

﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ فبادِرُوا في أوقاتِ الإمهالِ والتَّأخيرِ ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: لو كُنتُمْ مِن أَهلِ العلمِ والنَّظَرِ لعَلِمْتُم ذلك، وفيه: أَنَّهُم لانهِمَاكِهم في حبِّ الحياةِ كأَنَّهُم شاكُّونَ في الموتِ.

(٥ ـ ٦) ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ أي: دائمًا ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ عن الإيمانِ والطَّاعةِ، وإسنادُ الزِّيادَةِ إلى الدُّعاءِ على السَّببيَّةِ كقولِه: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤].

(٧) ـ ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمانِ ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بسببِه ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾: سدُّوا مسامِعَهُم عن استماعِ الدَّعوةِ ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾: تغطَّوْا بها لئلَّا يَروني كراهةَ النَّظرِ إليَّ مِن فَرْطِ كراهةِ دَعوَتي، أو: لئلَّا أعرِفَهُم فأَدعُوَهم، والتَّعبيرُ بصيغَةِ الطَّلبِ للمُبالغَةِ.

﴿وَأَصَرُّواْ﴾: وأكبُّوا على الكُفرِ والمَعاصي، مُستعارٌ مِن أصرَّ الحِمارُ على العانةِ ـ جماعةٌ من الحمير[2] ـ: إذا صرَّ أذنيهِ وأقبَلَ عليها.

﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن اتِّباعِي ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ عَظيمًا.

---

(١) قولُه: «على الوجهِ المقدَّرِ به آجلاً» وهو الأجل المبرم، وذلك أنه قال أوَّلاً: ﴿يؤخركم﴾ فدلَّ على أنَّ الأجلَ قد يُؤخَّرُ، ثمَّ قال بعدَه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ فدلَّ على خلافِه، وبينَهما تناقُضٌ بحسبِ الظَّاهرِ، دُفِعَ بأنَّ الأجلَ أجلانِ، قريبٌ غيرُ مُبرَمٍ، وبعيدٌ مُبرَمٌ، وهو الأجلُ المُسمَّى، والمحكومُ عليه بالتَّأخيرِ على تقديرِ العبادةِ هو الأوَّلُ، والمحكومُ عليه بامتناعِ التَّأخيرِ هو الثَّاني؛ لأنَّ أجلَ الله حكمُه المعهودُ، والمعهودُ هو الأجلُ المُسمَّى، فلا تناقُضَ. قاله الشهاب.

(٢) «جماعة من الحمير» من نسخة التفتازاني.

(٨ ـ ٩) ـ ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾؛ أي: دعوتُهم مرَّةً بعدَ أخرى وكرَّةً بعدَ أُولى على أيِّ وجهٍ أمكنَنِي.

و﴿ثُمَّ﴾ لتَفاوُتِ الوُجوهِ؛ فإنَّ الجهارَ أغلَظُ مِن الإسرارِ، والجمعُ بينَهُما أغلَظُ مِن الإفرادِ، أو لتراخي بَعضِها عَن بعضٍ.

و﴿جِهَارًا﴾ نصبٌ على المصدَرِ لأنَّهُ أحدُ نَوْعَي الدُّعاءِ، أو صِفَةُ مَصدَرٍ مَحذوفٍ بمَعنى: دعاءً جهارًا؛ أي: مُجَاهَرًا به، أو الحالِ فيكونُ بمعنى: مُجاهِرًا.

(١٠) ـ ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ بالتَّوبَةِ عَن الكُفرِ ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ للتَّائبينَ، وكأنَّهُم لَمَّا أمرَهُم بالعِبادةِ قالوا: إن كنَّا على حقٍّ فلا نتركُه، وإن كنَّا على باطلٍ فكيفَ يقبَلُنا ويَلْطُفُ بنا مَن عَصَيْنَاهُ؟! فأمرَهُمْ بما يَجُبُّ معاصيَهُم ويَجلبُ إليهِمُ المنحَ، ولذلك وعدَ لَهُم عليه ما هو أوقَعُ في قُلوبِهم.

وقيل: لَمَّا طالَتْ دَعْوَتُهم وتمادَى إصرارُهُم حبسَ اللهُ عنهم القَطْرَ أربعينَ سنَةً، وأعقَمَ أرحامَ نِسائِهِم[1]، فوعدَهُم بذلك على الاستغفارِ عمَّا كانوا عليه بقولِه:

(١١ ـ ١٢) ـ ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ ولذلك شُرِعَ الاستغفارُ في الاستسقاءِ.

و﴿السَّمَاءَ﴾ تحتمِلُ المُظِلَّةَ والسَّحابَ.

والمدرارُ: كثيرُ الدُّرُورِ، يَستوي في هذا البناءِ المُذكَّرُ والمُؤنَّثُ.

والمرادُ بالجنَّاتِ: البَساتينُ.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٨٥). واعترضه أبو حيان في «البحر» (٢٠/ ٥٤٢) بقوله: وهذا لا يظهر؛ لأنه قال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ الآية، فقوله: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ يدل على أنه لم يعقم أرحام نسائهم.

(١٣) ـ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾: لا تأمُلونَ له توقيرًا؛ أي: تعظيمًا لِمَن عبدَهُ وأطاعَه فتكونوا على حالٍ تأمُلونَ فيها تعظيمَهُ إيَّاكُم، و﴿لِلَّهِ﴾ بيانٌ للموقِّرِ، ولو تأخَّرَ لكانَ صِلَةً للوقارِ[١].

أو: لا تعتقدونَ له عظمةً فتخافوا عصيانَه، وإنَّما عبَّرَ عن الاعتقادِ بالرَّجاءِ التَّابعِ لأدنى الظنِّ مُبالغَةً.

(١٤) ـ ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ حالٌ مقرِّرةٌ للإنكارِ مِن حيثُ إنَّها موجبةٌ للرَّجاءِ، فإنَّه خلقَهُم أطوارًا؛ أي: تاراتٍ؛ إذ خلقَهُم أولًا عناصرَ، ثمَّ مركَّباتٍ تغذِّي الإنسانَ، ثمَّ أخلاطًا، ثمَّ نُطَفًا، ثم عَلَقًا، ثمَّ مُضغًا، ثمَّ عظامًا ولحومًا، ثمَّ أنشأَهُم خلقًا آخرَ، فإنَّه يدلُّ على أنَّه يمكنُ أن يعيدَهُم تارةً أخرى فيُعْظِمَهم بالثَّوابِ[٢]، وعلى أنَّه تعالى عظيمُ القدرةِ تامُّ الحكمةِ، ثمَّ أتبعَ ذلك ما يؤيِّدُه من آياتِ الآفاقِ فقال:

(١٥ ـ ١٦) ـ ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: في السَّماواتِ وهو في السَّماءِ الدُّنيا، وإنَّما نُسِبَ إليهنَّ لِمَا بينهنَّ مِن الملابسةِ.

﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ مثَّلها به لأنَّها تُزيلُ ظلمةَ الليلِ عَن وجهِ الأرضِ كما يُزيلُهَا السِّراجُ عمَّا حولَه.

(١٧) ـ ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾: أنشأَكُم منها، فاستُعيرَ الإنباتُ للإنشاءِ لأنَّه أدَلُّ على الحدوثِ والتَّكوُّنِ مِن الأرضِ، وأَصلُهُ: أنبتكُم مِن الأَرضِ إنباتًا فنبتُّمْ نباتًا، فاختُصرَ اكتفاءً بالدلالةِ الالتزاميَّةِ[٣].

---

(١) قوله: «بيان للموقر» هو بكسر القاف، كأنه لما قيل: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، فقيل: لمن الوقار؟ فأجيب: لله، أي: لله الوقار فيوقِّركم، «ولو تأخر كان صلة للوقار»؛ لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه. انظر: «فتوح الغيب» (١٦/ ٣٥).

(٢) في «حاشية الخفاجي»: «فيُعظمَهم درجاتٍ».

(٣) قولُه: «فاختُصِرَ اكتِفاءً بالدَّلالةِ الالتِزاميَّةِ» الدَّلالةُ الالتِزاميَّةُ: هي دلالةُ ﴿نَبَاتًا﴾ على «إِنباتًا» =

(١٨) ـ ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ مقبورينَ ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ بالحشرِ، وأكَّدَه بالمصدَرِ كما أكَّدَ به الأولَ دلالةً على أنَّ الإعادةَ محققَّةٌ كالبدءِ، وأنَّها تكونُ لا محالةَ.

(١٩ ـ ٢٠) ـ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ تتقلَّبونَ عليها ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ واسِعَةً: جمعُ فَجٍّ، و(مِن) لتضمُّنَ الفعلِ معنى الاتِّخاذِ.

(٢١) ـ ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ فيما أمَرْتُهم به ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾: واتَّبَعُوا رُؤسَاءَهُم البَطِرينَ بأموالِهم، المغترِّينَ بأَولادِهِم، بحيثُ صارَ ذلك سببًا لزيادةِ خَسارِهِم في الآخرةِ، وفيه: أنَّهُم إنَّما اتَّبعوهُم لوَجاهةٍ حصلَتْ لهم بأموالٍ وأولادٍ أدَّتْ بهم إلى الخَسارِ.

وقرأ ابنُ كَثيرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ والبَصرِيَّانِ: ﴿ووُلْدُه﴾ بالضَّمِّ والسُّكونِ[1] على أنه لغةٌ كالحُزْن، أو جمعٌ كالأُسْدِ.

(٢٢) ـ ﴿وَمَكَرُوا﴾ عطفٌ على ﴿لَمْ يَزِدْهُ﴾، والضَّميرُ لِـ﴿مَن﴾ وجمعُه للمَعنى ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾: كبيرًا في الغايةِ، فإنَّه أبلَغُ مِن كُبَارٍ، وهو مِن كبيرٍ، وذلك احتيالُهُم في الدِّينِ وتحريشُ النَّاسِ على أذى نوحٍ.

(٢٣) ـ ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾؛ أي: عبادَتِها ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾: ولا تذرنَّ هؤلاءِ خصوصًا.

قيل: هي أسماءُ رجالٍ صالحينَ كانوا بين آدمَ ونوحٍ فلمَّا ماتوا صُوِّرُوا تبرُّكًا

= و«نبتُّم»؛ لأنَّ النَّباتَ يدُلُّ على الإنباتِ ونبتُّم التِزامًا، فضاهَى قولَه: ﴿فَانفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠]، وهو من بديعِ البلاغةِ؛ حيثُ بُنِيَ على غيرِ فعلِه للتَّنبيهِ على تحتُّمِ القدرةِ وسرعةِ نَفاذِ حُكمِها، حتَّى كانَ إنباتُ الله نفسَ النَّباتِ، فقُرِنَ أحدُهما بالآخرِ للدَّلالةِ على ما ذُكِرَ مع الإيجازِ اللَّطيفِ. عن الخفاجي.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٢)، و«التيسير» (ص: ٢١٥)، و«النشر» (٢/ ٣٩١).

بهم، فلمَّا طالَ الزَّمانُ عُبِدُوا، وقد انتقلَتْ إلى العربِ، فكان وَدٌّ لكلبٍ، وسُواعٌ لهَمْدانَ، ويَغوثُ لمَذْحِجٍ، ويَعُوقُ لمرادٍ، ونسرٌ لحِمْيَرَ(١).

وقرأ نافعٌ: ﴿وُدًّا﴾ بالضَّمِّ(٢)، وقُرِئَ: (يغوثًا ويعوقًا)(٣) للتَّناسُبِ، ومنعُ صَرفِهِما للعَلَميَّةِ والعُجمَةِ.

(٢٤) ـ ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ الضَّميرُ للرُّؤساءِ أو للأصنامِ، كقوله: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا﴾ [إبراهيم: ٣٦] ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ عطفٌ على ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ ولعلَّ المطلوبَ هو الضَّلالُ في ترويجِ مَكرِهِم ومَصالحِ دُنياهُم لا في أمرِ دينِهم، أو الضَّياعُ والهلاكُ، كقوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧].

(٢٥) ـ ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ مِن أَجلِ خَطيئاتِهم، و(ما) مَزيدةٌ للتَّأكيدِ والتَّفخيمِ. وقرأ أبو عمرٍو: ﴿ممَّا خَطاياهُم﴾(٤).

﴿أُغْرِقُوا﴾ بالطُّوفانِ ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ المرادُ: عذابُ القبرِ أو عذابُ الآخرةِ،

---

(١) كذا قال الزمخشري في «الكشاف» (٩/ ٢٩٦) في نسبة هذه الأصنام لقبائل العرب، وما رواه البخاري (٤٩٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما فيه خلاف ما ذكراه، وهو قوله رضي الله عنه: صارت الأوثانُ التي كانت في قومِ نوحٍ في العرب بعدُ، أما وَدٌّ كانت لكَلْبٍ بدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وأما سُوَاعٌ كانت لهُذَيلٍ، وأما يغوثُ فكانت لمُرادٍ، ثُم لبني غُطَيْفٍ بالجَوف، عند سبأ، وأما يَعُوقُ فكانت لهَمْدانَ، وأمَّا نَسْرٌ فكانت لحِمْيَرَ لآل ذي الكَلاعِ، أسماءُ رجال صالحين من قوم نوح، فلما هَلَكوا أَوْحى الشيطانُ إلى قومهم أنِ انْصِبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسَمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبدْ، حتى إذا هَلَك أولئك وتَنَسَّخ العلمُ عُبدت.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٣)، و«التيسير» (ص: ٢١٥).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٢) عن الأعمش.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٦٥٣)، و«التيسير» (ص: ٢١٥).

والتَّعقيبُ لعَدمِ الاعتدادِ بما بينَ الإغراقِ والإدخالِ، أو لأنَّ المسبَّبَ كالمعتقِبِ للسَّببِ وإن تراخى عنه لفَقدِ شرطٍ أو وُجودِ مانعٍ.

وتنكيرُ النَّارِ للتَّعظيمِ، أو لأنَّ المرادَ: نوعٌ مِن النِّيرانِ.

﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ تعريضٌ لهم باتخاذِ آلهةٍ مِن دُونِ اللهِ لا تقدرُ على نَصرِهِم.

(٢٦) - ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾؛ أي: أحدًا، وهو ممَّا يستعملُ في النَّفيِ العامِّ، فَيْعَالٌ مِن الدَّارِ أو الدَّورِ، وأصلُه: دَيْوارٌ، ففُعِلَ به ما فعلَ بأصلِ سيِّدٍ، لا فعَّالٌ وإلَّا لكانَ دوَّارًا.

(٢٧) - ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ قالَ ذلك لَمَّا جرَّبَهُم واستقرأَ أحوالَهُم ألفَ سنةٍ إلَّا خمسينَ عامًا فعرفَ شِيَمَهُم وطِبَاعَهُم.

(٢٨) - ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ لَمَكِ بنُ مَتُّوشَلَخَ، وشَمْخَا بِنْتُ أَنُوشَ، وكانا مؤمنينِ ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾: منزلي، أو مَسجِدي، أو سَفينتي ﴿مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى يومِ القيامةِ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾: هلاكًا.

عنِ النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ نُوحٍ كانَ مِن المؤمنينَ الذين تُدرِكُهُم دَعوةُ نوحٍ»[1].

***

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ٣٨٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٥٦)، من حديث أبي رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

سورة نوح(1)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ
وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ
لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟
ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾
فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم
بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ
خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الآية، هذه السوره مكية. ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما أقسم أن يبدّل خيراً منهم وكانوا قد سخروا من المؤمنين، وكذّبوا بما وُعدوا به من العذاب، ذكر قصّة نوح وقومه معه. وكانوا أشدّ تمرّداً من المشركين فأخذهم الله تعالى أخذ استئصال، حتى إنه لم يبق لهم على وجه الأرض نسل. وكانوا عُبّاد أصنام كمشركي مكة. فحذّر تعالى قريشاً أن يصيبهم عذاب استئصال إن لم يؤمنوا.

---

(1) ق: الجن. مكية وهي ثمانٍ وعشرون آية.

ونوح عليه السلام أول نبيّ أُرسل، ويقال له شيخ المرسلين وآدم الثاني.

﴿أَنْ أَنذِرْ﴾ يجوز أن تكون [«أن»] مصدرية وأن تكون تفسيرية. ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: عذاب النار في الآخرة.

﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ «مِن» للتبعيض لأن الإيمان إنما يجبّ ما قبله من الذنوب لا ما بعده.

قال ابن عطية[1]: [«مِن» في «من ذنوبكم» مزيدة، وهو مذهب] كوفي.

وأقول: أخفشي لا كوفيّ؛ لأنهم يشترطون أن يكون بعد «مِن» نكرة، ولا يبالون بما قبلها من واجب أو غيره. وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره: لو كنتم تعلمون لبادرتم إلى طاعته وتقواه.

ولمّا لم يجيبوه وآذوه، شكا إلى ربّه شكوى من يعلم أن الله تعالى عالم بحاله مع قومه، لما أُمر بالإنذار، فلم يُجْدِ فيهم. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ أي: جميع الأوقات من غير فتور ولا تعطيل في وقت، فلم يزدادوا إلا إعراضاً ونفوراً عن الحق.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ [٥٥٧/أ] أي: ليتوبوا فتغفر لهم. ذكر المسبّب الذي هو حظّهم خالصاً ليكون أقبح في إعراضهم عنه. ﴿جَعَلُوٓا أَصَابِعَهُمْ﴾ الظاهر أنه حقيقة، سدّوا مسامعهم حتى لا يسمعوا ما دعاهم إليه، وتغطّوا بثيابهم حتى لا ينظروا إليه كراهة وبغضاً من سماع النصح ورؤية الناصح. ويجوز أن يكون ذلك كناية عن المبالغة في إعراضهم عمّا دعاهم إليه، فهم بمنزلة من سدّ مسمعه ومنع بصره.

---

(١) فوقها في ق: كذا.

ثم كرر صفة دعائه بياناً وتوكيداً. لمّا ذكر دعاءه عموم الأوقات ذكر عموم حالات الدعاء. و﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ يدلّ على تكرار الدعوات فلم يبيّن حالة دعائه أوّلاً.

وظاهره أن يكون دعاؤه إسراراً، لأنه يكون ألطف بهم، ولعلهم يقبلون منه، كحال من ينصح في السّر، فإنه جدير أن يُقبل منه. فلمّا لم يُجْدِ له الإسرار، انتقل إلى أشدّ منه وهو دعاؤه جهاراً صلتاً[1] بالدعاء إلى الله تعالى لا يحاشي أحداً. فلما لم يُجْدِ عاد إلى الإعلان والإسرار.

و﴿مِّدْرَارًا﴾ من الدَّر، وهو صفة يستوي فيها المذكر والمؤنث، ونصبها على الحال، ومعناه كثير الدرّ.

﴿لَا تَرْجُونَ﴾ لا تخافون، والوقار بمعنى العظمة والسلطان، والكلام على هذا وعيد وتخويف.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ جملة حالية تحمل على الإيمان بالله تعالى وإفراده بالعبادة؛ إذ في هذه الجملة الحالية التنبيه على تدريج الإنسان في أطوار، لا يمكن أن تكون إلا من خلقه تعالى. قال ابن عباس: من النطفة والعلقة والمضغة.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ الآية، لمّا نبّههم نوح عليه السلام

(١) صلتاً بالدعاء: بارزاً مجاهراً فيه.

على الفكر في أنفسهم، وكيف انتقلوا من حال إلى حال، وكانت الأنفس أقرب ما يفكّرون فيه منهم - أرشدهم إلى الفكر في العالم علوه وسفله، وما أودع تعالى في العالم العلوي من هذين النّيرين اللذين بهما قوام الوجود.

والضمير في «فيهن» عائد على السماوات.

والإنبات استعارة في الإنشاء، أنشأ آدم من الأرض وصارت ذريته منه، فصحّ نسبتهم كلهم إلى أنهم أُنبتوا منها. وانتصاب «نباتاً» بـ«أنبتكم» مصدراً على حذف الزائد، أي: إنباتاً، أو على إضمار فعل أي: فنبتّم نباتاً.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ﴾ اي: يصيّركم فيها مقبورين. ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي: يوم القيامة. وأكّده بالمصدر، أي: ذلك واقع لا محالة.

﴿بِسَاطًا﴾ تتقلبون عليها كما يتقلّب الرجل على بساطه. ﴿سُبُلًا﴾ طرقاً. ﴿فِجَاجًا﴾ متّسعة.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا
مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ
وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا
فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ
الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ
اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ
إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾.

ولمّا أصرّوا على العصيان، وعاملوه بأقبح الأقوال والأفعال ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾. الضمير للجميع. وكان قد قال لهم ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [نوح]. وكان أقام فيهم ما نصّ تعالى عليه ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ

عَامًا ﴿١٤﴾ [العنكبوت]. وكان قد وُسّع عليهم [٥٥٧/ب] في الرزق بحيث كانوا يزرعون في الشهر مرتين. ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ رؤساءهم وكبراءهم، وهم الذين كانوا سبب خسارهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَكَرُوا﴾ يظهر أنه معطوف على صلة «مَن». وجمع الضمير [في] «ومكروا» «وقالوا» على المعنى. ومكرهم احتيالهم في الدين، وتحريش الناس على نوح. و﴿كُبَّارًا﴾ مبالغة في الكبر كطُوّال وجُمّال.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: كبراؤهم لأتباعهم[1]. ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: أصنامكم. وهو عام في جميع أصنامهم، ثم خصّوا بعدُ أكابر أصنامهم وهو وَدٌّ وما عطف عليه.

روي أنها أسماء رجال صالحين، كانوا في صدر الزمان، ماتوا فصُوّرت أشكالهم، لتُذكر أفعالهم الصالحة، ثم هلك من صوّرهم، وخلف من يعظّمها ثم [بقيت] كذلك حتى عُبدت. قيل: ثم انتقلت تلك الأصنام بأعيانها - وقيل: بل الأسماء فقط - إلى قبائل من العرب؛ فكان وَدٌّ لكلبٍ بدُومة الجندل[2]، وسواع لهذيل، ويغوث لمراد، ويعوق لهمدان، ونسر لحمير، ولذلك سمّت العرب بهذه الأسماء[3].

قال أبو عثمان النّهدي: رأيت يغوث، وكان من رصاص، يُحمل على جمل أجرد لا يهيجونه ويسيرون معه حتى يكون هو الذي يبرك، فإذا برك

(١) ق: لاتبعاهم.

(٢) انظر الروض المعطار ص٢٤٥.

(٣) يعني سمّت بعبد ودّ وعبد يغوث.

نزلوا وقالوا: قد رضي لكم المنزل. فينزلون حوله، ويضربون عليه[١] بناء انتهى.

ولمّا أخبر أنهم قد أضلّوا كثيراً، [دعا عليهم بالضلال فقال «ولا تزد». وهي معطوفة على «وقد أضلوا» إذ تقديره: وقال: قد أضلّوا كثيراً]. فهي [معمولة] لقال المضمرة المحكيّ بها قوله «وقد أضلّوا». ولا يشترط التناسب في عطف الجمل، بل قد تعطف جملة الإنشاء على جملة الخبر والعكس، خلافاً لمن يدّعي التناسب.

وقرىء: خطاياهم[٢]، جمعاً. ﴿أُغۡرِقُواْ﴾ قال الضحّاك: كانوا يغرقون من جانب ويحرقون بالنار من جانب. ﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم﴾ تعريض بانتفاء قدرة آلهتهم على نصرهم.

ودعاء نوح عليه السلام عليهم بعد أن أوحي إليه ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود]. و﴿دَيَّارًا﴾ من ألفاظ العموم التي تستعمل في النفي وما أشبهه.

ولمّا دعا على الكفّار، استغفر للمؤمنين، فبدأ بنفسه ثم بمن وجب برّه عليه ثم للمؤمنين، فكان هو ووالداه اندرجوا في المؤمنين والمؤمنات.

وقال ابن عباس: لم يكفر لنوح أبٌ ما بينه وبين آدم عليه السلام. ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنًا﴾ قال ابن عباس: مسجدي، وقيل: شريعتي استعار لها بيتاً، كما قالوا: قبّة[٣] الإسلام. ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ دعاء لكل مؤمن ومؤمنة في كل أمّة. والتّبار: الهلاك.

---

(١) ق: حوله.

(٢) ق: خطياهم. وقريب منها في الرسم: خطيّاتهم، وهي قراءة، انظر البحر ٨:٣٤٣.

(٣) ق: فيه.

مفردات سورة نوح

الأطوار: الأحوالُ المختلفة، قال:

فـإنْ أَفـاقَ فـقَـدْ طـارَتْ عَـمَـايـتُـهُ   والـمرءُ يُـخْـلَـقُ طَـوْراً بـعـدَ أطْـوَارِ(١)

وَدٌّ وسُوَاعٌ ويَغُوثُ ويَعُوقُ ونَسْرٌ: أسماءُ أصنامٍ أعلامٌ لها، اتَّخذَها قومُ نوح عليه السلام آلهةً.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (١) قَالَ يَٰقَوۡمِ
إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ (٢) أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ
أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا
(٥) فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ
وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا (٨) ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ
وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا (٩) فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا (١٠) يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا
(١١) وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا (١٢) مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا (١٣)
وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا (١٤)﴾.

هذه السورة مكيَّة، ومناسبتُها لِما قبلَها أنه تعالى لمَّا أقسمَ على أنْ يُبدِّلَ خيراً منهم وكانوا قد سَخِرُوا من المؤمنين وكذَّبوا بما وُعِدُوا به من العذاب؛ ذَكَرَ قِصَّةَ

(١) البيت للنابغة الذُّبياني، وهو في ديوانه ص٤٩. والعَمَاية: اللَّجاجَةُ في الباطل.

نوح وقومِه معه، وكانوا أشدَّ تمرُّداً من المشركين، فأخذَهم الله أخْذَ استئصال حتى إنه لم يُبْقِ لهم نَسْلاً على وجه الأرض، وكانوا عبَّادَ أصنام كمشركي مكة، فحذَّرَ تعالى قريشاً أن يُصيبَهم عذابٌ يستأصِلُهم إن لم يؤمنوا.

ونوحٌ عليه السلام أوَّلُ نبيٍّ أُرسل، ويقالُ له: شيخُ المرسَلين، وآدمُ الثاني، وهو نوح بن لامَك[1] بن مَتُّوشَلَخ بن خَنُوخ[2] - وهو إدريس - بن يَرْد بن مَهْلائيل بن أنُوش بن قَيْنان بن شِيث بن آدمَ عليه الصلاة والسلام[3].

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ يجوز أن تكون «أنْ» مصدريَّة، وأن تكون تفسيريَّة.

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال ابنُ عباس: عذابُ النار في الآخرة. وقال الكلبيّ: ما حَلَّ بهم من الطُّوفان[4].

﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ «مِنْ» للتبعيض لأنَّ الإيمان إنما يَجُبُّ ما قبلَه من الذنوب لا ما بعدَه.

وقيل: لابتداء الغاية، وقيل: زائدة، وهو مذهب ونحوٌ؛ قال ابنُ عطية: كوفيّ[5]. وأقول: أخفشيّ لا كوفيّ، لأنهم يشترطون أن يكون بعد «مِن» نكرة، ولا يُبالون بما قبلَها من واجبٍ أو غيرِه، والأخفش يُجيزُ مع الواجب وغيرِه، وقيل: النكرة والمعرفة. وقيل: لبيان الجنس، ورُدَّ بأنه ليس قبلها ما تبيِّنه.

قال الزمخشريّ: فإن قلتَ: كيف قال: «ويُؤَخِّرْكُم» مع إخباره بامتناع تأخيرِ الأجل، وهل هذا إلا تناقض؟

---

(١) في (يه): لَمْك، وكذا قيَّده الآلوسي في روح المعاني ٢٧/٤٤٦ بفتح اللام وسكون الميم، وسيرد اسمه كذلك آخر السورة.

(٢) في (يه): أخنوخ.

(٣) تفسير القرطبي ٢١/٢٤٨، وجاء في روح المعاني ٢٧/٤٤٦: مهلاييل بن قَيْنان بن أنُوش. ونقل القرطبي عن وهب قوله: كلهم مؤمنون.

(٤) القولان في النكت والعيون ٦/٩٨، وتفسير القرطبي ٢١/٢٥٠.

(٥) المحرر الوجيز ٥/٣٧٢، ولفظه فيه: وهذا نحوٌ كوفي.

قلت: قَضَى اللهُ مثلاً أنَّ قومَ نوح إنْ آمَنوُا عَمَّرهُم ألفَ سنة، وإنْ بقُوا على كفرهم أهلكَهم على رأس تسع مئة، فقيل لهم: آمِنُوا يُؤخِّرْكُم إلى أجلٍ مسمًّى، أي: إلى وقتٍ سمَّاه الله تعالى وضربَه أمداً تنتهون إليه لا تتجاوزونه، وهو الوقتُ الأطول تَمَامُ الألف، ثم أخبرَ أنه إذا جاء ذلك الأجل الأمد لا يُؤَخَّر كما يُؤَخَّرُ هذا الوقت، ولم تكن لكم(١) حيلة، فبادِرُوا في أوقات الإمهال والتأخير. انتهى.

وقال ابن عطيَّة ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ مما تعلَّقت المعتزلة به في قولهم: إنَّ للإنسان أجَلَيْن، قالوا: لو كانَ واحداً محدَّداً لمَا صَحَّ التأخيرُ إنْ كان الحدُّ قد بلغَ، ولا المعاجلةُ إن كان لم يبلغ.

قال: وليس لهم في الآية تعلُّق، لأنَّ المعنى أنَّ نوحاً عليه السلام لم يعلم هل هم ممَّن يُؤخَّرُ أو ممَّن يُعاجَل، ولا قال لهم: إنكم تُؤَخَّرون عن أجل قد حانَ لكم، لكن قد سبقَ في الأزل أنهم إمَّا ممَّن قُضِيَ له بالإيمان والتأخير، وإمَّا ممَّن قُضِيَ عليه بالكفر والمعاجلة(٢)، ثم تشدَّدَ هذا المعنى ولاحَ بقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ﴾ وجواب «لو» محذوف تقديرُه: لو كنتم تعلمون لبادرتُم إلى عبادتِه وتقواه وطاعتي فيما جئتُكم به منه تعالى.

ولمَّا لم يُجيبوه وآذَوْه شَكا إلى ربِّه شكوى مَنْ يعلمُ أنَّ الله تعالى عالمٌ بحالِه مع قومِه، لمَّا أُمِرَ بالإنذار فلم يُجْدِ فيهم ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥﴾ أي: جميعَ الأوقات من غير فُتورٍ ولا تعطيل في وقت، ولمَّا ازدادوا إعراضاً ونِفاراً عن الحقِّ جعلَ الدعاءَ هو الذي زادهم، إذ كان سببَ الزيادة، ومثلُه: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥].

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: ليتوبوا فتغفرَ لهم ذكر المسبَّبَ الذي هو حظُّهم خالصاً ليكونَ أقبحَ في إعراضهم عنه ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ الظاهر

(١) في (ت): لهم.

(٢) بعده في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٣ (والكلام منه): فكأنَّ نوحاً عليه السلام قال لهم: آمِنُوا يبيِّن لكم أنكم ممَّن قُضي لهم بالإيمان والتأخير، وإن بقيتمْ فسيبين لكم أنكم ممَّن قُضي عليه بالكفر والمعاجلة.

أنه حقيقة، سدُّوا مسامعَهم حتى لا يسمعوا ما دعاهم إليه وتغطَّوْا بثيابهم حتى لا ينظروا إليه كراهةً وبُغضاً من سماع النُّصح ورؤية الناصح، ويجوزُ أن يكون كنايةً عن المبالغةِ في إعراضهم عمَّا دعاهم إليه، فهم بمنزلة مَنْ سَدَّ سمعَه ومنعَ بصرَه.

ثم كرَّرَ صفةَ دعائه بياناً وتوكيداً، لمَّا ذكرَ دعاءَه عمومَ الأوقات ذكرَ عمومَ حالات الدُّعاء.

و«كلَّما دعوتُهم» يدلُّ على تكرار الدَّعَوات، فلم يُبيِّن حالة دعائه أولاً، وظاهرُه أن يكون دعاؤه إسراراً لأنه يكون ألطفَ بهم، ولعلهم يقبلون منه كحال مَنْ ينصحُ في السِّرّ، فإنه جديرٌ أن يُقبل منه، فلمَّا لم يُجْدِ له الإسرارُ انتقلَ إلى أشدَّ منه، وهو دعاؤهم جِهَاراً صَلْتاً بالدعاء إلى الله لا يُحاشي أحداً، فلما لم يُجْدِ عاد إلى الإعلان وإلى الإسرار.

قال الزمخشريّ[1]: ومعنى «ثُمَّ» الدلالةُ على تباعدِ الأحوال، لأنَّ الجِهارَ أغلظُ من الإسرار، والجمعُ بين الأمرين[2] أغلظُ من إفرادِ أحدِهما. انتهى.

وكثيراً كرَّر الزمخشريّ أنَّ «ثم» للاستبعاد، ولا نعلمُه من كلام غيرِه.

وانتصب «جِهاراً» بـ «دَعَوْتُهم» وهو أحدُ نوعي الدُّعاء، ويجيء فيه من الخلاف ما جاء في نصب: هو يمشي الخَوْزَلَى[3]؛ قال الزمخشري: أو لأنه أرادَ بـ «دَعَوْتُهُمْ»: جاهرتُهم، ويجوزُ أن يكونَ صفةً لمصدر «دعا» أي: دعاءً جِهاراً، أي: مُجاهِراً به، أو مصدراً في موضع الحال أي: مجاهِراً.

ثم أخبرَ أنه أمرَهم بالاستغفار، وأنهم إذا استغفروا دَرَّ لهم الرزق في الدنيا، فقدَّم لهم ما يسرُّهم وما هو أحبُّ إليهم إذِ النفس متشوِّفةٌ إلى الحصول على العاجل كما قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ

---

(١) الكشاف ٤/ ١٦٢.
(٢) في (يه): الاثنين.
(٣) هي مِشْيةٌ في تثاقل. القاموس (خزل).

ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٦] الآية، ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾ [الجن: ١٦].

قال قتادة: كانوا أهلَ حُبٍّ للدنيا، فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق التي يُحبُّونها[١].

وقيل: لمَّا كذَّبوه بعد طُولِ تكرارِ الدعاء قَحَطُوا، وأُعقِمَ نساؤهم، فبَدَأهم في وَعْدِه[٢] بالمطر، ثم ثَنَّى بالأموال والبنين[٣].

«ومِدْرَار» من الدَّرّ، وهو صفة يستوي فيها المذكَّر المؤنَّث، ومِفْعَال لا تلحقُه التاء إلا نادراً، فيشترك فيه المذكّر والمؤنّث، تقول: رجلٌ مِجْذَامَةٌ ومِطْرَابةٌ[٤]، وامرأة مِجْذَامةٌ ومِطْرَابة.

والسماء: المظلَّة، قيل: لأنَّ المطرَ ينزلُ منها إلى السحاب، ويجوزُ أن يُرادَ السحابُ أو المطر، كقوله:

إذا نـزلَ الســماءُ بـأرضِ قـومٍ

البيت[٥].

الرَّجاء بمعنى الخوف[٦]، وبمعنى الأَمَل، فقال أبو عبيدة وغيره: «لا تَرْجُون»: لا تخافون، قالوا: والوَقَار بمعنى العَظَمةِ والسلطانِ، والكلامُ على هذا وعيدٌ

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٢٩٤، والنكت والعيون ٦/ ١٠١، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧٤ (ولفظه منه) وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٥٤.

(٢) قوله: «في وعده» ليس في (ت).

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٤.

(٤) رجل مِجْذَامة: سريع القطع للمودَّة، ورجلٌ مطرابٌ ومِطْرابة: طَرُوب. القاموس (جذم - طرب).

(٥) وعجزُه: رعيناهُ وإن كانوا غضابا، وهو لمعاوية بن مالك. والكلام وصدرُ البيت في الكشاف ٤/ ١٦٢.

(٦) قال القرطبي ٢١/ ٢٥٥: الرجاء هنا بمعنى الخوف.

وتخويفٌ[١]. وقيل: لا تأمُلُون له توقيراً، أي: تعظيماً؛ قال الزمخشريّ: والمعنى: مالكم لا تكونون على حالٍ تأمُلُون[٢] فيها تعظيمَ الله إياكم في دار الثواب، و«لله» بيانٌ للمُوَقَّر، ولو تأخَّر لكان صلة [للوَقَار][٣].

أو: لا تخافون لله حِلْماً وتركَ معاجلةٍ بالعقاب فتؤمنوا.

وقيل: مالكم لا تخافون للهِ عَظَمةً.

وعن ابن عباس: لا تخافون للهِ عاقبةً لأنَّ العاقبةَ حالُ استقرار الأمور وثباتُ الثواب والعقاب، من وَقَرَ إذا ثبتَ واستقرَّ. انتهى[٤].

وقيل: ما لكم لا تجعلون رجاءكم لله وتلقاءَهُ وَقاراً، ويكون على هذا منهم كأنه يقول: تُؤَدَةً منكم وتمكُّناً في النظر، لأن الكفر[٥] مَظِنةُ الخِفَّة والطَّيش وركوب الرأس. انتهى.

وفي «التحرير والتحبير»: قال سعيد بن جُبير: مالكم لا ترجون للهِ ثواباً ولا تخافون عقاباً. وقاله ابنُ جبير عن ابن عباس[٦].

وقال العَوْفي عنه: مالكم لا تعلمون للهِ عَظَمَةً.

وعن مجاهد والضحَّاك: مالكم لا تُبالون للهِ عَظَمةً؛ قال قُطْرب: هذه لغة حجازية، وهُذيل وخُزاعة ومُضَر يقولون: لم أرْجُ: لم أُبالِ. انتهى[٧].

«لا تَرْجُونَ» حال.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٤، وقول أبي عبيدة فيه.

(٢) تحرَّفت لفظة «تأملون» في (أ) و(ت) و(ع) والمطبوع إلى: «ما يكون» والمثبت من (يه)، وهو موافق لما في الكشاف ٤/ ١٦٣ والكلام منه.

(٣) ما بين حاصرتين من المصدر السالف.

(٤) الأقوال في الكشاف ٦/ ١٦٣.

(٥) تحرَّفت اللفظة في (أ) والمطبوع إلى: الفكر، والكلام في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٤.

(٦) القولُ أيضاً في تفسير القرطبي ٢١/ ٢٥٥. وكتاب التحرير والتحبير هو لابن النقيب شيخ المصنف تكرَّر ذكره في الكتاب وفي مقدمته.

(٧) تنظر الأقوال في تفسير القرطبي ٢١/ ٢٥٦.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ⑭﴾ جملة حاليَّة تَحمِلُ على الإيمان بالله وإفرادِه بالعبادة، إذ في هذه الجملة الحالية التنبيهُ على تدريج الإنسان في أطوارٍ لا يمكن أن تكون إلا من خَلْقِهِ تعالى؛ قال ابن عباس ومجاهد: من النُّطفة والعَلَقة والمُضْغَة.

وقيل: في اختلاف ألوانِ الناس وخَلْقِهم وخُلُقِهم ومِلَلِهم.

وقيل: صبياناً، ثم شباباً، ثم شيوخاً وضعفاء، ثم أقوياء.

وقيل: معنى أطواراً: أنواعاً صحيحاً وسقيماً، وبصيراً وضريراً، وغنيًّا وفقيراً[١].

❁ ❁ ❁

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ⑮ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ⑯ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ⑰ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ⑱ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ⑲ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ⑳ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ㉑ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ㉒ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ㉓ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ㉔ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ㉕ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ㉖ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ㉗ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ㉘﴾.

لمَّا نبَّهَهُم نوحٌ عليه السلام على الفِكْرِ في أنفسهم وكيف انتقلوا من حالٍ إلى حال وكانت الأنفسُ أقربَ ما يفكرون فيه[٢] منهم أرشدَهم إلى الفِكْر في العالَم عُلْوِهِ وسُفْلِهِ وما أودَعَ تعالى في العالَم العُلْويّ[٣] من هذين النيِّرَيْن اللذَيْن بهما قِوامُ الوجود.

وتقدَّم شرح «طباقاً» في سورة المُلك [٣].

(١) المصدر السالف.
(٢) في (يه): قلة، بدل: فيه.
(٣) في (أ) و(ت) والمطبوع: وما أودع تعالى فيه أي في العالَم العُلْوي... الخ.

والضمير في «فيهنَّ» عائدٌ على السماوات، ويقال: القمر في السماء الدنيا، وصَحَّ كونُ السماوات ظرفاً للقمر لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأه المظروف، تقول: زيد في المدينة، وهو في جزء منها.

ولم تقيَّد[١] الشمسُ بظرف، فقيل: هي في الرابعة، وقيل: في الخامسة، وقيل: في الشتاء في الرابعة، وفي الصيف في السابعة[٢]. وهذا شيءٌ لا يُوقف على معرفته إلا من علم الهيئة، ويذكرُ أصحابُ هذا العلم أنه يقوم عندهم البراهين القاطعة على صحَّة ما يدَّعونه، وأن في معرفة ذلك دلالةً واضحةً على عَظَمة الله وقُدرتِه وباهرِ مصنوعاته.

«سراجاً» يستضيءُ به أهلُ الدنيا كما يستضيءُ الناسُ بالسِّراج في بيوتهم، ولم يبلغ القمرُ مبلغَ الشمس في الإضاءة، ولذلك جاء: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]. والضياء أقوى من النور.

والإنبات استعارة في الإنشاء، أنشأ آدمَ من الأرض، وصارت ذرِّيَّته منه، فصحَّ نسبتُهم كلِّهم إلى أنهم أُنبتوا منها.

وانتصاب «نباتاً» بـ «أنبتَكُم» مصدراً على حذف الزائد، أي: إنباتاً، أو على إضمار فعل، أي: فنبتُّم نباتاً.

وقال الزمخشري: المعنى أنبتَكم فنبتُّم، أو نصب بـ «أنبتَكم» لتضمنه معنى نبتُّم. انتهى[٣]. ولا أعقلُ معنى هذا الوجه الثاني الذي ذكرَه.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: يُصيِّركم فيها مقبورين ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي: يومَ القيامة، وأكَّدَه بالمصدر، أي: ذلك واقعٌ لا محالة.

---

(١) في (يه): يقيد.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٥، ونُسب القول الأخير فيه لابن عمر.

(٣) الكشاف ٤/ ١٦٣.

﴿بِسَاطًا﴾ تتقلَّبون عليها كما يتقلَّبُ الرجلُ على بِساطِه، وظاهرُه أنَّ الأرضَ ليست كُرَويَّة، بل هي مبسوطة[١].

﴿سُبُلًا﴾: طُرُقاً ﴿فِجَاجًا﴾: متَّسعة، وتقدَّم الكلام على الفَجّ في سورة الحجّ [٢٧].

ولما أصرُّوا على العصيان وعاملُوه بأقبح الأقوال والأفعال ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ الضميرُ للجميع، وكان قد قال لهم: «وأطيعون» وكان قد أقام فيهم ما نص الله تعالى عليه: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] وكانوا قد وُسِّعَ عليهم في الرِّزق بحيث كانوا يزرعُون في الشهر مرَّتين.

﴿وَاتَّبَعُوا﴾ أي: عامَّتُهم وسَفِلَتُهم، إذْ لا يصحُّ عَوْدُه على الجميع في عبادة الأصنام ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ﴾ أي: رؤساؤهم وكبراؤهم، وهم الذين كان ما تَأَثَّلُوه[٢] من المال وما تكثَّروا به من الولد سبباً في خسارتهم في الآخرة، وكان سببَ هلاكِهم في الدُّنيا.

وقرأ ابنُ الزُّبير والحسن والنَّخَعيّ والأعرج ومجاهد والأخوان وابنُ كثير وأبو عَمرو ونافع في رواية خارجة عنه: «ووُلْدُهُ» بضمّ الواو وسكون اللام.

والسُّلَميُّ والحسن أيضاً وأبو رجاء وابنُ وثَّاب وأبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وابنُ عامر بفتحهما وهما لغتانِ، كبُخْل وبَخَل[٣].

والحسنُ أيضاً والجَحْدرِيّ وقتادةُ وزِرٌّ وطلحةُ وابنُ أبي إسحاق وأبو عَمرو في رواية بكسر الواو وسكون اللام[٤].

---

(١) هذا ما كانوا يعتقدونه، وقد صار من المعلوم في العصر الحاضر أن الأرض وغيرها من الأجرام السماوية ذوات أشكال كروية.

(٢) أي: ما تأصَّلوه وجمعوه.

(٣) ينظر السبعة ص٦٥٢-٦٥٣، والتيسير ص٢١٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧ (والكلام فيه)، والنشر ٢/ ٣٩١.

(٤) القراءة عن المذكورين أعلاه عدا أبي عمرو في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٥، وهي في القراءات الشاذة ص١٦٢ عن الحسن والجحدري، وفي الكشاف ٤/ ١٦٤ دون نسبة، ونُسبت في زاد =

وقال أبو حاتم: يمكن أن يكون الوُلْد بالضم جمع الولد كخُشْب وخَشَب، وقد قال حسان بنُ ثابت:

يا بِكْرَ آمنةَ المباركَ بِكْرُها من وُلْدِ مُحْصَنَةٍ بسَعْدِ الأسْعَدِ[1]

«ومَكَرُوا» يظهر أنه معطوف على صلة «مَنْ» وجُمع الضمير في «ومكروا» «وقالوا» على المعنى، ومَكْرُهُم احتيالُهم في الدِّين وتحريشُ الناس على نوح عليه السلام.

وقرأ الجمهور: «كُبَّاراً» بشدِّ الباء، وهو بناءٌ فيه مبالغةٌ كثيرة، قال عيسى بنُ عمر: هي لغةٌ يمانية، وعليها قول الشاعر:

والمرءُ يُلْحِقُهُ بفتيانِ النَّدَى خُلُقُ الكريمِ وليسَ بالوُضَّاءِ[2]

وقولِ الآخر:

بيضاءُ تصطادُ القلوبَ وتَسْتَبِي بالحُسْنِ قلبَ المُسْلم القُرَّاءِ[3]

ويقال: حُسَّان، وطُوَّال، وجُمَّال.

وقرأ عيسى وابنُ مُحَيْصِن وأبو السَّمَّال بخَفِّ الباء[4]، وهو بناءُ مبالغة أيضاً[5].

= المسير ٨/ ٣٧٣ للحسن وأبي العالية وابن يعمر والجحدري، ولم أقف على نسبتها لأبي عمرو.

(١) هذه الرواية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٥ (وتحرَّف في مطبوعه «يا» إلى: «ما»)، وهو في سيرة ابن هشام ٤/ ٦٧٠ برواية: وَلَدَتْه، بدل: من وُلْدِ، وفي ديوان حسان... برواية: المبارك ذِكرُهُ ولَدَتْكَ..

(٢) أنشده أبو صدقة الدُّبَيْري للفراء كما في إصلاح المنطق ص١٢٤، وهو في الصحاح واللسان (وضأ)، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧٥-٣٧٦ (وقول عيسى بن عمر فيه) وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٦٠.

(٣) أنشده كسابقه أبو صَدَقَة كما في إصلاح المنطق ص١٢٤، وهو في الصحاح (قرأ)، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٦٠. والقُرَّاء (وزن: زُنَّار): الناسك المتعبِّد.

(٤) القراءات الشاذة ص١٦٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٦١.

(٥) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦: هو بناء مبالغة إلا أنه دون الأول.

وقرأ زيد بن علي وابن محيصن فيما رَوَى عنه أبو الإخريط وَهْبُ بنُ واضح: «كِباراً» بكسر الكاف وفتح الباء[١]، قال ابنُ الأنباريّ: هو جمع كبير، كأنه جعلَ «مكراً»[٢] مكان ذنوبٍ أو أفاعيل. انتهى. يعني فلذلك وصفَه بالجمع.

«وقالوا» أي: كبراؤهم لأتباعهم، أو «قالوا» أي: جميعُهم بعضُهم لبعض: ﴿لَا تَذَرُنَّ﴾: لا تَتْرُكُنَّ ﴿ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: أصنامكم، وهو عامٌّ في جميع أصنامِهم، ثم خصُّوا بعدُ أكابرَ أصنامِهم، وهو وَدٌّ ومن[٣] عطف عليه.

ورُوي أنها أسماءُ رجال صالحين كانوا في صدر الزمان، قال عروة بنُ الزبير: كانوا بني آدم، وكان وَدٌّ أكبرَهم وأبرَّهم به[٤].

وقال محمد بنُ كعب ومحمد بنُ قيس: كانوا بينَ آدم ونوح عليهما السلام، ماتوا فصُوِّرَتْ أشكالُهم لتُذكر أفعالُهم الصالحة، ثم هلكَ مَنْ صوَّرَهم وخَلَفَ من يُعَظِّمُها، ثم كذلك حتى عُبدت[٥].

قيل: ثم انتقلت تلك الأصنام بأعيانها، وقيل: بل الأسماء فقط إلى قبائل من العرب؛ فكان وَدٌّ لكلب بدُومةِ الجَنْدل، وسُوَاع لهُذيل، وقيل: لهَمْدَان، ويَغُوث لمُراد، وقيل: لمَذْحِج، ويَعُوق لهَمْدَان، وقيل: لمراد، ونَسْر لِحِمْيَر، وقيل: لذي الكَلَاع من حِمْيَر، ولذلك سَمَّتْ العربُ بعبدِ وَدّ، وعبدِ يَغُوث[٦].

وما وقع من هذا الخلاف في سُوَاع ويَغُوث ويَعُوق يمكن أن يكون لكلٍّ منهما صنمٌ يسمَّى بهذا الاسم، إذ يبعدُ بقاءُ أعيان تلك الأصنام، فإنما بقيت الأسماء، فسَمَّوْا أصنامَهم بها.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٦٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦ والكلام منه.
(٢) في المحرر الوجيز (والكلام منه): كأنه جعل المكر...
(٣) في المطبوع: وما.
(٤) بنحوه في النكت والعيون ٦/ ١٠٤، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٦١.
(٥) تفسير القرطبي ٢١/ ٢٦٢ بأطول منه، وينظر تفسير الثعلبي ٥/ ٢٨٧-٢٨٨.
(٦) الكشاف ٤/ ١٦٤، والمحرر الوجيز ٦/ ٣٧٦، وينظر الكلام مفصَّلاً في النكت والعيون ٦/ ١٠٤، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٦٣-٢٦٤.

قال أبو عثمان النَّهْدِيّ: رأيتُ يغوث وكان من رصاصٍ يُحمل على جمل أجرد يسيرون معه لا يَهِيجُونه حتى يكون هو الذي يبرُك، فإذا بَرَكَ نزلوا وقالوا: قد رضيَ لكم المنزل، فينزلون حولَه ويضربون عليه[١] بناء. انتهى[٢].

وقال الثعلبي: كان يَعُوقُ[٣] لكَهْلَان من سبأ يتوارثونه حتى صار في هَمْدَان، وفيه يقول مالك بن نَمَط الهَمْدَاني:

يَريشُ اللهُ في الدُّنيا ويَبْرِي ولا يَبْرِي يعوقُ[٤] ولا يَريشُ

وقال الماورديُّ: وَدٌّ أولُ صنمٍ[٥] معبود، سُمِّيَ وَدًّا لِوُدِّهم له. انتهى[٦].

وقيل: كان وَدٌّ على صورة رجل، وسُوَاعٌ على صورة امرأة، ويَغُوثُ على صورة أسد، ويَعُوقُ على صورة فرَس، ونَسْرٌ على صورة نَسْر[٧]. وهذا مُنافٍ لما تقدَّم من أنهم صوَّرُوا صُوَرَ ناسٍ صالحين.

وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة بخلاف عنهم: «وُدًّا» بضم الواو، والحسنُ والأعمشُ وطلحة وباقي السَّبعة بفتحها[٨]، وقال الشاعر:

حَيَّاكَ وُدٌّ فإنَّا لا يَحِلُّ لنا لَهْوُ النساءِ وإنَّ الدينَ قد عَزَمَا[٩]

وقال آخر:

(١) في (أ) والمطبوع: له.
(٢) النكت والعيون ٦/ ١٠٤، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٦٤.
(٣) في (أ) و(ت) و(ع) والمطبوع: يغوث، والمثبت من (يه) وهو كذلك في تفسير كل من الثعلبي ٥/ ٢٨٨، والقرطبي ٢١/ ٢٦٤.
(٤) المثبت من (يه) وهو كذلك في تفسير القرطبي ٢١/ ٢٦٤، وفي النسخ الأخرى: يغوث.
(٥) في (أ) و(ت) والمطبوع: اسم، بدل: أول.
(٦) النكت والعيون ٦/ ١٠٤، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٦٣.
(٧) هو قول الواقدي كما في تفسير الثعلبي ٥/ ٢٨٩، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٦٤.
(٨) ينظر السبعة ص٦٥٣، والتيسير ص٢١٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦، والنشر ٢/ ٣٩١.
(٩) البيت للنابغة الذُّبياني، وهو في ديوانه ص١٠١ برواية: حيَّاك ربي. والرواية أعلاه في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٦٣.

فحيَّاكِ وُدٌّ مَنْ هداكِ لِفِتْيَةٍ وخُوصٍ بأعلى ذي فَضَالةَ هُجَّدِ[١]

قيل: أرادَ ذلك الصَّنم.

وقرأ الجمهور: «ولا يَغُوثَ ويَعُوقَ» بغير تنوين، فإن كانا عربيَّيْنِ فمنعُ الصرف للعلمية ووزن الفعل، وإن كانا عجميين فللعُجمة والعلميَّة.

وقرأ الأشهب: «ولا يغوثاً ويعوقاً» بتنوينهما[٢]، قال صاحب «اللوامح»: جعلَهما فَعُولاً، فلذلك صَرَفَهما، فأمَّا في العامَّة فإنهما صفتانِ من الغَوْث والعَوْق يفعُل منهما، وهما معرفتان، فلذلك مُنع الصرف لاجتماع الثِّقَلَيْن اللذين هما تعريفٌ ومشابهةُ الفعل المستقبل. انتهى.

وهذا تخبيط، أمَّا أولاً فلا يمكن أن يكونا فَعُولاً لأن مادة «يغث» مفقودة، وكذلك «يعق»، وأمَّا ثانياً فليسا بصفتين من الغَوْث والعَوْق لأنَّ يفعُلاً لم يجئ اسماً ولا صفة، وإنما امتنعا من الصرف لما ذكرناه.

وقال ابنُ عطية: وقرأ الأعمش: «ولا يَغُوثاً ويَعُوقاً» بالصَّرف، وذلك وهم، لأنَّ التعريف لازم ووزنَ الفعل. انتهى.

وليس ذلك بوهم، ولم ينفرد الأعمش بذلك، بل قد وافقَه الأشهب العُقيلي على ذلك، وتخريجُه على أحد وجهين:

أحدُهما: أنه جاء على لغة من يصرفُ جميع مالا ينصرف عند عامَّة العرب، وذلك لغة، وقد حكاها الكسائي وغيرُه.

والثاني: أنه صُرف لمناسبة ما قبلَه وما بعدَه من المنوَّن، إذ قبلَه «وَدّاً

(١) البيت للحطيئة، وهو في ديوانه... برواية: ما هداكِ، بدل: من هداكِ، وطُوالة، بدل: فضالة، وطُوالة موضع ببُرْقان كما ذكر ياقوت في معجم البلدان ٤/ ٤٥ وأورد بيت الحطيئة هذا، وهو أيضاً في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦ واللسان (هجد)، والخطاب لأم معبد. قال ابن عطية: يُروى البيتان (هذا والذي قبلَه) بضمّ الواو.

(٢) نُسبت القراءة في القراءات الشاذة ص١٦٢ والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦ للأعمش وسيردُ ذلك.

ولا سُواعاً» وبعده: «ونَسْراً» كما قالوا في صَرْفِ «سَلاسِلاً» و«قَوارِيراً، قَوَارِيراً»[١]: إنَّ[٢] صَرْفَ ذلك للمناسبة.

وقال الزمخشريّ: وهذه قراءةٌ مشكلة، لأنهما إن كانا عربيَّين أو أعجميَّين ففيهما منعُ الصَّرْف، ولعلَّه قصد[٣] الازدواج، فصرفَهما لمصادفته أخَوَاتِهما منصرفات: وَدًّا وسُوَاعاً ونَسْراً، كما قُرئ: «وضُحاها» بالإمالة لوقوعه مع الممالات للازدواج. انتهى. وكأنَّ الزمخشريّ لم يدرِ أنَّ ثَمَّ لغةً لبعض العرب تصرفُ كلَّ ما لا ينصرف عند عامَّتهم، فلذلك استشكلَها.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ أي: الرؤساء المتبوعُون كثيراً من أتباعِهم وعامَّتِهم، وهذا إخبارٌ من نوح عليه السلام عنهم بما جرى على أيديهم من الضلال.

وقال الحسن[٤]: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ أي: الأصنام، عادَ الضمير عليها كما يعودُ على العقلاء، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. ويُحسِّنُه عَوْدُه على أقرب مذكور، ولكنْ عَوْدُه على الرؤساء أظهر، إذْ هم المحدَّثُ عنهم، والمعنى فيهم أمكنُ.

ولمَّا أخبرَ أنهم قد أضلُّوا كثيراً دَعا عليهم بالضلال، فقال: «ولا تَزِدْ» وهي معطوفةٌ على «وقد أضلُّوا» إذ تقديرُه: وقال: قد أضَلُّوا كثيراً، فهي معمولة لـ «قال» المضمرة المحكيّ بها قولُه «وقد أضلُّوا» ولا يشترطُ التناسبُ في عطف الجمل بل قد تُعطف جملةُ الإنشاء على جملة الخبر والعكسُ، خلافاً لمن يدَّعي التناسب.

وقال الزمخشري[٥] ما ملخَّصه: عُطف «ولا تَزِدْ» على «رَبِّ إنهم عَصَوْني» أي: قال هذين القولين.

---

(١) من سورة الإنسان، الآيات: ٤ و١٥ و١٦.

(٢) المثبت من (يه)، وفي النسخ الأخرى والمطبوع: لمن.

(٣) في الكشاف ٤/ ١٦٤: ففيهما سببا منع الصرف: إما التعريف ووزن الفعل، وإما التعريف والعجمة، ولعله قصدَ... الخ.

(٤) هو في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦ عن النقَّاش.

(٥) الكشاف ٤/ ١٦٤.

﴿إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جاز أن يريد لهم الضلالَ ويدعُو اللهَ بزيادته؟

قلت: المرادُ بالضلال أن يُخذلوا ويُمنعوا الألطاف لتصميمهم على الكفر ووقوعِ اليأسِ من إيمانهم، وذلك حَسَنٌ جميلٌ يجوزُ الدعاء به، بل لا يَحسُنُ الدعاءُ بخلافه. انتهى. وذلك على مذهبه الاعتزاليّ.

قال: ويجوزُ أن يُريد بالضَّلال الضَّياعَ والهلاك كما قال[1]: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ انتهى.

وقال ابنُ بحر: ﴿إِلَّا ضَلَٰلًا﴾: إلا عذاباً، قال: كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[2] [القمر: ٤٧].

وقيل: إلا خُسراناً[3].

وقيل: إلا ضلالاً في أمر دنياهم وترويج مكرِهم وحِيَلِهم[4].

وقرأ الجمهور: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾ جمعاً بالألف والتاء مهموزاً.

وأبو رجاء كذلك إلا أنه أبدلَ الهمزةَ ياءً، وأدغمَ فيها ياء المدِّ[5].

والجَحْدَريُّ وعُبيد عن أبي عَمرو على الإفراد مهموزاً[6].

والحسنُ وعيسى والأعرجُ بخلاف عنهم وأبو عمرو: «خطاياهم» جمع تكسير[7].

---

(١) في الكشاف ٤/ ١٦٤: لقولِه، بدل: كما قال.

(٢) النكت والعيون ٦/ ١٠٥، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٦٥، وهو في تفسير الرازي ٢٩/ ١٤٥ دون نسبة.

(٣) تفسير القرطبي ٢١/ ٢٦٥.

(٤) تفسير الرازي ٢٩/ ١٤٥.

(٥) القراءات الشاذة ص١٦٢، وهي في تفسير القرطبي ٢١/ ٢٦٦ دون نسبة.

(٦) القراءات الشاذة، ونُسبت أيضاً في المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦ إلى الحسن.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦، وقراءة أبي عَمرو هذه سبعيَّة، ينظر السبعة ص٦٥٣، والتيسير ص٢١٥.

وهذا إخبارٌ من الله تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام بأنَّ دعوةَ نوح عليه السلام قد أُجيبت.

و«ما» زائدة للتوكيد، و«مِنْ» قال ابن عطيّة: لابتداء الغاية[(١)]. ولا يظهر إلا أنها للسبب.

وقرأ عبد الله: «من خطيئاتهم ما أُغرقوا» بزيادة «ما» بين «أُغرِقُوا» و«خطيئاتهم»[(٢)].

وقرأ الجمهور: «أُغْرِقُوا» بالهمزة، وزيد بنُ عليّ: «غُرِّقُوا» بالتشديد، وكلاهما للنقل.

و«خطيئاتهم» الشِّرك وما انجرَّ معه من الكبائر.

﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارًا﴾ أي: جهنم، وعَبّر عن المستقبل بالماضي لتحقُّقه، وعطف بالفاء على إرادة الحُكم، أو عبَّر بالدخول عن عرضهم على النار غُدُوًّا وعَشِيًّا كما قال: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦].

قال الزمخشريّ: أو أُرِيدَ عذابُ القبر. انتهى.

وقال الضحاك: كانوا يُغرقون من جانب ويُحرقون بالنار من جانب[(٣)].

﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ تعريضٌ بانتفاء قدرةِ آلهتِهم على نصرهم.

ودعا نوحٌ عليه السلام عليهم بعد أن أوحى إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]. قاله قتادة[(٤)].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦، قال السمين في الدُّرّ ٨/ ٤٧٦: وليس بواضح.

(٢) الكشاف ٤/ ١٦٤، وتفسير الرازي ٢٩/ ١٤٥، وقال: وعلى هذه القراءة لا تكون «ما» صلة زائدة لأن «ما» مع ما بعده في تقدير المصدر.

(٣) تفسير الثعلبي ٦/ ٢٨٩، والكشاف ٤/ ١٦٥، وزاد المسير ٨/ ٣٧٤، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٦٧.

(٤) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٠٨، والنكت والعيون ٦/ ١٠٥، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٦٧.

وعنه أيضاً: ما دعا عليهم إلا بعدَ أنْ أخرجَ اللهُ كلَّ مؤمنٍ من الأصلاب، وأعقمَ أرحامَ نسائِهم[١]. وهذا لا يظهر، لأنه قال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ الآية، فقوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ يدلُّ على أنه لم يُعقم أرحامَ نسائهم. وقاله أيضاً محمد بنُ كعب والربيعُ وابنُ زيد، ولا يظهرُ كما قلنا، وقد كان قبل ذلك طامعاً في إيمانهم عاطفاً عليهم.

وفي الحديث أنه ربَّما ضرَبَه ناسٌ منهم أحياناً حتى يُغشَى عليه، فإذا أفاقَ قال: اللهمَّ اغفرْ لقومي فإنهم لا يعلمون[٢].

و«دَيَّار» من ألفاظ العموم التي تستعمل في النَّفي وما أشبهه، ووزنُه: فَيْعَال، أصلُه: دَيْوار، اجتمعت الياء والواو، وسُبقت إحداهما بالسكون فأدغمت، ويقال منه: دَوَّار، ووزنه: فعَّال، وكلاهما من الدَّوران، كما قالوا: قَيَّام وقَوَّام، والمعنى معنى «أَحَد»[٣]، وعن السُّدِّيّ: مَنْ يسكن الدار[٤].

وقال الزمخشري: وهو فَيْعال من الدَّوْر، أو من الدار. انتهى. والدار أيضاً هي من الدَّوْر، وألفُها منقلبةٌ عن واو.

﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ وصفَهم وهم حالةَ الولادة بما يصيرون إليه من الفجور والكفر.

ولمَّا دعا على الكفار استغفرَ للمؤمنين فبدأ بنفسه، ثم بمن وجَبَ بِرُّهُ عليه، ثم للمؤمنين، فكان هو ووالداه اندرجُوا في المؤمنين والمؤمنات.

---

(١) هو في تفسير الثعلبي ٦/ ٢٩٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧٧، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٦٨ عن محمد بن كعب والربيع وابن زيد (كما سيرد) وغيرهم، ولم أقف عليه عن قتادة.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٠٩، والنكت والعيون ٦/ ٩٨-٩٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧٧ ولفظه منه.

(٣) هو قول الضحَّاك كما في النكت والعيون ٦/ ١٠٥، وفي القاموس: ما به داريٌّ وديَّارٌ ودُورِيّ ودَيُّور: أحد.

(٤) المصدران السالفان.

وقرأ الجمهور: «ولوالديَّ»، والظاهر أنهما أبوه لَمْكُ بنُ مَتُّوشَلَخَ، وأمُّه شمخاء بنت أنوش[١]، وقيل: هما آدمُ وحَوَّاء[٢].

وقرأ ابنُ جُبير والجَحْدَريّ: «ولوالِدِي» بكسر الدال[٣]، فإمَّا أن يكون خَصَّ أباه الأقرب، أو أرادَ جميعَ من وَلَدُوه إلى آدم عليه السلام.

وقال ابن عباس: لم يكفر لنوح عليه السلام أبٌ ما بينَه وبين آدم عليه السلام.

وقرأ الحسين بنُ عليّ ويحيى بن يَعْمَر والنَّخَعيُّ والزُّهْرِيُّ وزيد بنُ عليّ: «ولوَلَدَيَّ» تثنية «وَلَد»[٤] يعني ساماً وحاماً.

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ قال ابن عباس والجمهور: مسجدي، وعن ابن عباس أيضاً: شريعتي، استعار لها بيتاً، كما قالوا: قبَّة الإسلام وفسطاط الدين[٥]. وقيل: سفينته، وقيل: دارُه[٦].

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دعا لكلِّ مؤمن ومؤمنة في كل أمَّة. والتَّبارُ: الهلاك.

❊ ❊ ❊

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ الآية.

---

(١) تفسير الثعلبي ٦/ ٢٩٠، والكشاف ٤/ ١٦٥، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٦٩-٢٧٠.

(٢) الكشاف ٤/ ١٦٥.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٢، وتفسير الثعلبي ٦/ ٢٩٠، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧٧، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٧٠.

(٤) القراءات الشاذة ص١٦٢، والمحرر الوجيز ٦/ ٣٧٧.

(٥) في المطبوع: وفسطاطه.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٧، وينظر تفسير الطبري ٢٣/ ٣٠٨، والنكت والعيون ٦/ ١٠٦، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٧٠-٢٧١.

(٧١) سورة نوح مكية
وآياتها ثمان وعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ
ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام، أنه أرسله إلى قومه، آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم * قال يا قوم إني لكم نذير مبين﴾ أي بيّن النذارة، ظاهر الأمر واضحه ﴿ان اعبدوا الله واتقوه﴾ أي اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه، ﴿وأطيعونِ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه، ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي إذا فعلتم ما آمركم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم غفر الله لكم ذنوبكم، ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ أي يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب، وقد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزاد بها في العمر حقيقة، كما ورد به الحديث: «صلة الرحم تزيد في العمر»، وقوله تعالى: ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون﴾ أي بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة، فإنَّ أمره تعالى لا يرد ولا يمانع، فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات.

قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ
جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا
﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ
عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ
لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ

فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ
إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله (نوح) عليه السلام، أنه اشتكى إلى ربه عزَّ وجلَّ، ما لقي من قومه في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاماً، وما بيّن لقومه ووضّح لهم فقال: ﴿ رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً﴾ أي لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار، وامتثالاً لأمرك وابتغاء لطاعتك، ﴿ فلم يزدهم دعائي إلا فراراً﴾ أي كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق، فروا منه وحادوا عنه، ﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم﴾ أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه، كما أخبر تعالى عن كفار قريش ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾، ﴿ واستغشوا ثيابهم﴾ قال ابن عباس: تنكروا له لئلا يعرفهم، وقال السدي: غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول، ﴿ وأصروا﴾ أي استمروا على ما هم فيه من الشرك، والكفر العظيم الفظيع، ﴿ واستكبروا استكباراً﴾ أي واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له، ﴿ ثم إني دعوتهم جهاراً﴾ أي جهرة بين الناس، ﴿ ثم إني أعلنت لهم﴾ أي كلاماً ظاهراً بصوت عال ﴿ وأسررت لهم إسراراً﴾ أي فيما بيني وبينهم، فنوّع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم، ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً﴾ أي ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب الله عليه ، ﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ أي متواصلة الأمطار، قال ابن عباس : يتبع بعضه بعضاً، وقوله تعالى: ﴿ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ أي إذا تبتم إلى الله وأطعتموه، كثّر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأمدّكم ﴿ بأموال وبنين﴾ أي أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وخللها بالأنهار الجارية بينها، هذا مقام الدعوة بالترغيب، ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب، فقال: ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ ؟ أي عظمة قال ابن عباس : لم لا تعظمون الله حق عظمته، أي لا تخافون من بأسه ونقمته ﴿ وقد خلقكم أطواراً﴾ **قيل**: معناه من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة قاله ابن عباس وقتادة .

وقوله تعالى: ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً﴾ أي واحدة فوق واحدة، ومعها يدور سائر الكواكب تبعاً، ولكن للسيارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها، فإنها تسير من المغرب إلى المشرق، وكل يقطع فلكه بحسبه فالقمر يقطع فلكه في كل شهر مرّة، والشمس في كل سنة مرة، وزحل في كل ثلاثين سنة مرة، وإنما المقصود أن الله سبحانه وتعالى: ﴿ خلق سبع سماوات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾ أي فاوت بينهما في الاستنارة ، فجعل كلاً منهما أنموذجاً على حدة، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدّر للقمر منازل وبروجاً، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى، ثم يشرع في النقص حتى يستتر ، ليدل على مضي الشهور والأعوام، كما قال تعالى: ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾ هذا اسم مصدر والإتيان به ههنا أحسن، ﴿ ثم يعيدكم فيها﴾ أي إذا متم ﴿ ويخرجكم إخراجاً﴾ أي يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة، ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾ أي بسطها ومهدها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات، ﴿ لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾ أي

خلقها لكم لتستقروا عليها، وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها، ينبههم نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السماوات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرزاق جعل السماء بناء، والأرض مهاداً، وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد.

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى: مخبراً عن نوح عليه السلام، أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه، واتبعوا من غفل عن أمر الله، ومتع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج لا إكرام، ولهذا قال: ﴿واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً﴾، وقوله تعالى: ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾ قال مجاهد: ﴿كباراً﴾ أي عظيماً، وقال ابن زيد: ﴿كباراً﴾ أي كبيراً، والعرب تقول: أمر عجيب وعجاب وعجّاب، بالتخفيف والتشديد بمعنى واحد، ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾ أي باتباعهم لهم وهم على الضلال، كما يقولون لهم يوم القيامة: ﴿بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾ وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ﴿ود﴾ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما (سُـواع) فكانت لهذيل، وأما (يغوث) فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما (يعـوق) فكانت لهمدان، وأما (نسر) فكانت لحِمْيَر لآل ذي كلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت[1]. وقال ابن جرير، عن محمد بن قيس ﴿ويغوث ويعوق ونسراً﴾ قال: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم، لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم[2]، وقوله تعالى: ﴿وقد أضلوا كثيراً﴾ يعني الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقاً كثيراً، فإنه استمرت عبادتها إلى زماننا هذا، في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم، وقد قال الخليل عليه السلام في دعائه: ﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾. وقوله تعالى: ﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً﴾ دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون وملئه في قوله: ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به.

(١) رواه البخاري عن ابن عباس، وكذا روي عن عكرمة وقتادة والضحّاك.

(٢) رواه ابن جرير عن محمد بن قيس.

مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

يقول تعالى: ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾ أي من كثرة ذنوبهم وعتوهم، وإصرارهم على كفرهم، ومخالفتهم رسولهم، ﴿أغرقوا فأدخلوا ناراً﴾ أي نقلوا من البحار إلى حرارة النار، ﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾ أي لم يكن لهم معين ولا مجير، ينقذهم من عذاب الله، كقوله تعالى: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾. ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ أي لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً، ولا ﴿دياراً﴾ وهذه من صيغ تأكيد النفي، قال الضحّاك ﴿دياراً﴾ واحداً، وقال السدي: الديار الذي يسكن الدار، فاستجاب الله له فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين، حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه. وقال: ﴿سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة لما رأت الماء حملت ولدها، ثم صعدت الجبل، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة»[1]، ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح عليه السلام وهم الذين أمره الله بحملهم معه، وقوله تعالى: ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك﴾ أي إنك إن أبقيت منهم أحداً، أضلوا عبادك أي الذين تخلقهم بعدهم ﴿ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ أي فاجراً في الأعمال كافر القلب، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم قال: ﴿رب اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً﴾ قال الضحّاك يعني مسجدي، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن. وقد روى الإمام أحمد، عن أبي سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»[2]، وقوله تعالى: ﴿وللمؤمنين والمؤمنات﴾ دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات وذلك يعم الأحياء منهم والأموات، ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء اقتداء بنوح عليه السلام، وبما جاء في الآثار، والأدعية المشهورة المشروعة، وقوله تعالى: ﴿ولا تزد الظالمين إلا تباراً﴾ قال السدي: إلا هلاكاً، وقال مجاهد: إلا خساراً أي في الدنيا والآخرة.

[آخر تفسير سورة نوح عليه السلام، ولله الحمد]

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، قال ابن كثير: حديث غريب ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي.

تفسير سورة نوح

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نوح ، عليه السلام ، أنه أرسله إلى قومه آمرا له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم ، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : بَيْن النّذارة ، ظاهر الأمر واضحه ، ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ أى : اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه . ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أى : إذا فعلتم ما أمرتكم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم ، غفر الله لكم ذنوبكم .

و « من » هاهنا قيل : إنها زائدة . ولكن القول بزيادتها فى الإثبات قليل . ومنه قول بعض العرب : « قد كان من مطر » . وقيل : إنها بمعنى « عن » ، تقديره : يصفح لكم عن ذنوبكم . واختاره ابن جرير (١) . وقيل : إنها للتبعيض ، أى: يغفر لكم الذنوب العظام التى وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام .

﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : يمد فى أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذى إن لم تنزجروا عما نهاكم عنه ، أوقعه بكم (٢) .

وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم ، يزاد بها فى العمر حقيقة ؛ كما ورد به الحديث : « صلة الرحم تزيد فى العمر » .

وقوله : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة ، فإنه إذا أمر [الله] (٣) تعالى بكون ذلك لا يرد ولا يمانع ، فإنه العظيم الذى قهر كل شىء ، العزيز الذى دانت لعزته جميع المخلوقات .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي

(١) تفسير الطبرى (٢٩/ ٥٧) .

(٢) فى أ : « أو يعذبكم » . (٣) زيادة من أ .

كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠) ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح ، عليه السلام ،أنه اشتكى إلى ربه، عز وجل ،ما لقى من قومه، وما صبر عليهم فى تلك المدة الطويلة التى هى ألف سنة إلا خمسين عاما ، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ﴾ أى : لم أترك دعاءهم فى ليل ولا نهار ، امتثالا لأمرك وابتغاءً لطاعتك ، ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا ﴾ أى: كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فَروا منه وحَادُوا عنه ، ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ أى : سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه . كما أخبر تعالى عن كفار قريش :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦].

﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ : قال ابن جريج ، عن ابن عباس : تنكروا له لئلا يعرفهم . وقال سعيد ابن جبير ، والسدى : غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول .

﴿ وَأَصَرُّوا ﴾ أى : استمروا على ما هم فيه (١) من الشرك والكفر العظيم الفظيع ، ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ أى : واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له .

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ أى : جهرة بين الناس ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ ﴾ أى : كلاما ظاهرا بصوت عال ، ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ أى : فيما بينى وبينهم، فنوّع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ أى : ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب عليه ، ولو كانت ذنوبه (٢) مهما كانت فى الكفر والشرك ؛ ولهذا قال: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ أى : متواصلة الأمطار . ولهذا يستحب قراءة هذه السورة فى صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية . وهكذا روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : أنه صعد المنبر ليستسقى ، فلم يزد على الاستغفار ، وقرأ الآيات فى الاستغفار . ومنها

---

(١) فى م:« ما هم عليه » .
(٢) فى أ: « ولو كان ذنبه » .

هذه الآية : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ ثم قال : لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء [1] التى ستنزل بها المطر .

وقال ابن عباس وغيره :يتبع بعضه بعضا .

وقوله : ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ أى : إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه ،كثر الرزق عليكم ، وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأنبت لكم الزرع ،وأَدَرَّ لكم الضّرع ، وأمدكم بأموال وبنين ، أى : أعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار ، وخللها بالأنهار الجارية بينها .

هذا مقام الدعوة بالترغيب . ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أى : عظمة . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقال ابن عباس : لا تعظمون الله حق عظمته ، أى : لا تخافون من بأسه ونقمته ، ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ قيل : معناه من نطفة ، ثم من علقة ،ثم من مضغة . قاله ابن عباس ، وعكرمة ،وقتادة ، ويحيى بن رافع ، والسدى ، وابن زيد .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ ؟ أى : واحدة فوق واحدة ، وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط ؟ أو هى من الأمور المدركة بالحس ، مما علم من التسيير والكسوفات ، فإن الكواكب السبعة السيارة يكسف بعضها بعضا ، فأدناها القمر فى السماء الدنيا وهو يكسف ما فوقه، وعطارد فى الثانية ، والزهرة فى الثالثة ، والشمس فى الرابعة ، والمريخ فى الخامسة ، والمشترى فى السادسة ، وزُحل فى السابعة . وأما بقية الكواكب ــ وهى الثوابت ــ ففى فَلَك ثامن يسمونه فَلَكَ الثوابت . والمتشرعون منهم يقولون : هو الكرسى ، والفلك التاسع ، وهو الأطلس . والأثير عندهم الذى حركته على خلاف حركة سائر الأفلاك ، وذلك أن حركته مبدأ الحركات ، وهى من المغرب إلى المشرق ؛ وسائر الأفلاك عكسه من المشرق إلى المغرب ، ومعها يدور سائرالكواكب تبعا ، ولكن للسيارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها ، فإنها تسير من المغرب إلى المشرق . وكل يقطع فلكه بحسبه ، فالقمر يقطع فلكه فى كل شهر مرة ، والشمس فى كل سنة مرة ، وزحل فى كل ثلاثين سنة مرة ، وذلك بحسب اتساع أفلاكها ،وإن كانت حركة الجمع فى السرعة متناسبة . هذا ملخص ما يقولونه فى هذا المقام ، على اختلاف بينهم فى مواضع كثيرة ،لسنا بصدد بيانها ، وإنما المقصود أن الله سبحانه :﴿ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا .وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ أى : فاوت بينهما فى الاستنارة ،فجعل كلا منهما أنموذجا على حدة ، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدر القمر منازل وبروجا ، وفاوت نوره ،فتارة يزداد حتى يتناهى ثم يشرع فى النقص حتى يستسر ، ليدل على مضى الشهور والأعوام ، كما قال : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ

---

(١) فى م :« بمجادح » ، وفى أ : « بمخارج » .

يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس:٥] .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ : هذا اسم مصدر ، والإتيان به هاهنا أحسن ، ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ أى : إذا متم ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ أى : يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ أى : بسطها ومهدها وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴾ أى : خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها [(١)] أين شئتم ، من نواحيها وأرجائها وأقطارها، وكل هذا مما ينبههم به نوح، عليه السلام على قدرة الله وعظمته فى خلق السموات والأرض ، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، فهو الخالق الرازق، جعل السماء بناءً ، والأرض مهادا ، وأوسع [(٢)] على خلقه من رزقه ، فهو الذى يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد ؛ لأنه لا نظير له ولا عَديل[(٣)] له ، ولا ندّ ولا كفء ، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير ، بل هو العلى الكبير .

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا(٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (٢٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نوح، عليه السلام ، أنه أنهى إليه ، وهو العليم الذى لا يعزب عنه شيء، أنه مع البيان المتقدم ذكره ، والدعوة المتنوعة المتشملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى : أنهم عصوه وكذبوه وخالفوه ، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غَفَل عن أمر الله ، ومتع بمال وأولاد ، وهى فى نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام ؛ولهذا قال : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ : قُرِئَ ﴿وَوُلْده﴾ بالضم وبالفتح ، وكلاهما متقارب .

وقوله: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ ، قال مجاهد: ﴿ كُبَّارًا ﴾ أى : عظيماً .وقال ابن زيد: ﴿ كُبَّارًا﴾ أى : كبيرا. والعرب تقول: أمر عجيب وعُجَاب وعُجَّاب . ورجل حُسَان . وحُسَّان : وجُمَال وجُمَّال، بالتخفيف والتشديد ، بمعنى واحد .

والمعنى فى قوله : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ أى : بأتباعهم فى تسويلهم لهم بأنهم على الحق والهدى ، كما يقولون لهم يوم القيامة : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ [سبأ:٣٣] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا . وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ . وهذه أسماء أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله .

قال البخارى : حدثنا إبراهيم ، حدثنا هشام ، عن ابن جريج ، وقال عطاء ، عن ابن عباس : صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد : أما وَد: فكانت لكلب بدَومة الجندل ؛ وأما

(١) فى م : « منها » . (٢) فى م :« ووسع » . (٣) فى م ، أ : « ولا عدل » .

سواع: فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم لبنى غُطَيف بالجُرُف عند سبأ ، وأما يَعوقُ: فكانت لهَمْدان ، وأما نسر: فكانت لحمير لآل ذى كَلاع،وهى [(١)] أسماء رجال صالحين من قوم نوح، عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم .ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ [(٢)] العلم عُبِدت [(٣)] .

وكذا رُوى عن عكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، وابن إسحاق ، نحو هذا .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هذه أصنام كانت[(٤)] تعبد فى زمن نوح .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مِهْران ، عن سفيان ، عن موسى ، عن محمد بن قيس ﴿ [ويغوث] [(٥)]وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ قال : كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صَوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دَبَّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقَون المطر ، فعبدوهم [(٦)] .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة شيث، عليه السلام ، من طريق إسحاق بن بشر قال : وأخبرنى جُويبر ومقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس أنه قال : ولد لآدم ،عليه السلام ، أربعون ولدا،عشرون غلاما وعشرون جارية،فكان ممن عاش منهم:هابيل،وقابيل ،وصالح ،وعبد الرحمن ــ والذى كان سماه عبد الحارث ــ ووَدَّ ، وكان وَدّ يقال له « شيث » ويقال له : « هبة الله » وكان إخوته قد سَوّدوه ، وولد له سَوَاع ويغوث ويعوق ونسر [(٧)].

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو عُمَر الدّورىُّ ، حدثنى أبو إسماعيل المؤدّب ، عن عبد الله بن مسلم بن هُرمز عن أبى حزْرَة ، عن عروة بن الزُّبير قال : اشتكى آدم، عليه السلام ، وعنده بنوه : ود ، ويغوث ،[ويعوق] [(٨)] ،وسواع، ونسر ــ وكان وَدّ أكبرَهم وأبرّهم به .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا يعقوب ، عن أبى المطهر قال :ذكروا عند أبى جعفر ــ وهو قائم يصلى ــ يزيد بن المهلب ، قال : فلما انفتل من صلاته قال : ذكرتم يزيدَ بن المهلب ، أما إنه قتل فى أول أرض عُبد فيها غيرُ الله . قال : ثم ذكر وداً ــ قال : وكان وَدٌّ رجلا مسلما وكان محببا فى قومه ، فلما مات عسكروا حول قبره فى أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأى إبليس جزَعهم عليه ، تشبه فى صورة إنسان ، ثم قال : إنى أرى جزعكم على هذا الرجل ، فهل لكم أن أصور لكم مثله ، فيكونَ فى ناديكم فتذكرونه ؟ قالوا :

---

(١) فى أ : « ونسرا وهى » . (٢) فى م : « ونسخ » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٩٢٠) .
(٤) فى م : « كانت هذه أصنام » .
(٥) زيادة من م .
(٦) تفسير الطبرى (٢٩/ ٦٢) .
(٧) تاريخ دمشق (٨/ ١٦٥ « المخطوط») .
(٨) زيادة من م ، أ .

نعم. فصُوِّر لهم مثله ، قال : ووضعوه فى ناديهم وجعلوا يذكرونه .فلما رأى ما بهم من ذكره قال: هل لكم أن أجعل فى منزل كل واحد منكم تمثالا مثله ، فيكون (١) له فى بيته فتذكرونه ؟ قالوا : نعم. قال : فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله ، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به ، قال : وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به ، وتناسلوا ودَرَس أمر ذكرهم إياه ، حتى اتخذوه إلها يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم ،فكان أول ما عبد غير الله : الصنم الذى سموه وَدّا .

وقوله : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً ﴾ يعنى: الأصنام التى اتخذوها أضلوا بها خلقا كثيرا ، فإنه استمرت عبادتها فى القرون إلى زماننا هذا فى العرب والعجم وسائر صنوف بنى آدم . وقد قال الخليل، عليه السلام، فى دعائه: ﴿وَاجْنُبْنِى وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ﴾[إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

وقوله : ﴿ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالاً ﴾ : دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم ، كما دعا موسى على فرعون ومثله فى قوله : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس:٨٨] .وقد استجاب الله لكل من النبيين فى قومه ، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به .

﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ مِمَّا خَطَايَاهُمْ ﴾ وقرئ : ﴿ خَطِيئَاتِهِمْ ﴾ ﴿ أُغْرِقُوا ﴾ أى : من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً ﴾ أى : نقلوا من تيار البحار (٢) إلى حرارة النار ، ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً ﴾ أى : لم يكن لهم معين ولا مُغيث ولا مُجير ينقذهم من عذاب الله كقوله : ﴿ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ [هود:٤٣] .

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ أى : لا تترك على [وجه] (٣) الأرض منهم أحداً ولا تُومُريًّا (٤) وهذه من صيغ تأكيد النفى .

قال الضحاك : ﴿ دَيَّاراً ﴾ : واحدا . وقال السُّدِّى : الديار : الذى يسكن الدار .

فاستجاب الله له ، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذى اعتزل عن أبيه ، وقال : ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود:٤٣].

(١) فى م : « ليكون » .
(٢) فى م :« البحر ».
(٣) زيادة من م ،أ .
(٤) فى م : « ولاد ومريا » .

وقال ابن أبى حاتم : قرئ [١] على يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى شَبيب ابن سعد ، عن أبى الجوزاء ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لو رحم الله من قوم نوح أحدا ، لرحم امرأة ، لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت[٢] به منكبها، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها . فلو رحم الله منهم أحدا لرحم هذه المرأة » [٣] .

هذا حديث غريب ، ورجاله ثقات . ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح، عليه السلام، وهم الذين أمره الله بحملهم معه .

وقوله : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ أى : إنك إن أبقيت منهم أحداً أضلوا عبادك ، أى : الذين تخلقهم بعدهم ﴿ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أى : فاجراً فى الأعمال كافر القلب ، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما .

ثم قال : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ﴾ : قال الضحاك : يعنى :مسجدى ، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها ، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن ، وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حَيْوَة ، أنبأنا سالم بن غَيْلان : أن الوليد بن قيس التُّجِيبىّ أخبره: أنه سمع أبا سعيد الخدرى ـ أو : عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد : ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا تصحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقى » .

ورواه أبو داود والترمذى ، من حديث عبد الله بن المبارك ، عن حيوة بن شريح ، به [٤] . ثم قال الترمذى : إنما نعرفه من هذا الوجه .

وقوله : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ : دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات ، وذلك يَعُم الأحياءَ منهم والأموات ؛ ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء ، اقتداء بنوح ،عليه السلام ، وبما جاء فى الآثار ، والأدعية [المشهورة] [٥] المشروعة .

وقوله : ﴿ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا تَبَارًا ﴾ : قال السدى : إلا هلاكا . وقال مجاهد : إلا خسارا ، أى : فى الدنيا والآخرة .

آخر تفسير سورة « نوح » [عليه السلام ولله الحمد والمنة] [٦]

(١) فى هـ : « لما قرئ » والمثبت من م ،أ .   (٢) فى م: « فلما بلغ الماء رأسها صعدت » .

(٣) وله شاهد من حديث عائشة رواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٥٩١) والحاكم فى المستدرك (٢/٣٤٢) من طريق سعيد بن أبى مريم ، عن موسى بن يعقوب ، عن فائد مولى عبيد الله بن على بن أبى رافع :أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ربيعة أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ قال : « لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبى » وذكره نحوه ، وقال الحاكم :« صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبى بقوله : « إسناده مظلم ، وموسى بن يعقوب المذكور فى إسناده ليس بذاك » .

(٤) المسند (٣/٣٨) وسنن أبى داود برقم (٤٨٣٢) وسنن الترمذى برقم (٢٣٩٥) .

(٥) زيادة من م .   (٦) زيادة من أ .

تفسير سورة نوح

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن نوح - عليه السلام -: إنه أرسله إلىٰ قومه آمرًا له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم؛ ولهذا قال: ﴿ **أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم * قال يا قوم إني لكم نذير مبين** ﴾ أي: بيّن النّذارة، ظاهر الأمر واضحه، ﴿ **أن اعبدوا اللّه واتقوه** ﴾، أي اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه، ﴿ **وأطيعون** ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه. ﴿ **يغفر لكم من ذنوبكم** ﴾، أي: إذا فعلتم ما أمرتكم به، وصدقتم ما أرسلت به إليكم، غفر اللّه لكم ذنوبكم.

« ومن » هاهنا قيل: إنها زائدة. ولكن القول بزيادتها في الإثبات قليل. ومنه قول بعض العرب: « قد كان من مطر ». وقيل: إنها بمعنىٰ « عن »، تقديره يصفح لكم عن ذنوبكم. واختاره[١] ابن جرير. وقيل: إنها للتبعيض، أي يغفر لكم الذنوب العظام التي[٢] وعدكم علىٰ ارتكابكم إياها الانتقام.

﴿ **ويؤخركم إلىٰ أجل مسمى** ﴾، أي: يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تنزجروا عما نهاكم عنه: أوقعه بكم.

وقد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم، يزاد بها في العمر حقيقة، كما ورد به[٣] الحديث: « **صلة الرحم تزيد في العمر** »(١).

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣١٢/٨) (٨٠١٤) من حديث أبي أمامة - رضي اللّه عنه - وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٦٧٩/١)، وقال الهيثمى في « المجمع » (١١٨/٣): إسناده حسن. اهـ =

[١] - في ز، خ: وأجازه. [٢] - في ز: الذي.
[٣] - في ز: بها.

وقوله : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴾ ، أي : بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة، فإنه إذا أمر تعالىٰ بكون ذلك لا يرد ولا يمانع ، فإنه العظيم الذي قهر كل شيء ، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات .

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾

يخبر تعالىٰ عن عبده ورسوله نوح - عليه السلام - أنه اشتكىٰ إلىٰ ربه عز وجل [ ][١] مالقي من قومه ، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وما بيَّن لقومه و[٢] وضَّح لهم ودعاهم إلىٰ الرشد والسبيل الأقوم ، فقال : ﴿ رب إني دعوت قومي ليلا ونهارًا ﴾ : أي: لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار، امتثالًا[٣] لأمرك وابتغاءً لطاعتك ، ﴿ فلم يزدهم دعائي إلا فرارًا ﴾ ، أي كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فرّوا منه وحَادُوا عنه ، ﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم ﴾ ، أي : سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه ، كما أخبر تعالىٰ عن كفار قريش : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ .

= وفي الباب عن عبد الله بن عباس ، وعمر بن الخطاب ، وابن مسعود ، وأم سلمة ، ومعاوية بن حيدة - رضي الله عنهم - راجع الصحيحة للشيخ الألباني (١٩٠٨) .

[١] - في ز : و .

[٢] - في ز ، خ : وما . [٣] - في ز : اتباعًا .

﴿ **واستغشوا ثيابهم** ﴾ : قال ابن جريج عن ابن عباس : تنكروا له لئلا يعرفهم . وقال سعيد بن جبير والسدي : غطوا رءوسهم لئلا يسمعوا ما يقول .

﴿ **وأصروا** ﴾ ، أي : استمروا علىٰ ماهم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع ، ﴿ **واستكبروا استكبارًا** ﴾ ، أي : واستنكفوا[١] عن اتباع الحق والانقياد له .

﴿ **ثم إني دعوتهم جهارًا** ﴾ ، أي : جهرة بين[٢] الناس . ﴿ **ثم إني أعلنت لهم** ﴾ ، أي: كلامًا ظاهرًا بصوت عال ، ﴿ **وأسررت لهم إسرارًا** ﴾ ، أي : فيما بيني وبينهم ، فنوّع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم . ﴿ **فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفارًا** ﴾ ، أي : ارجعوا إليه ، وارجعوا عما أنتم فيه ، وتوبوا إليه من قريب ، فإنه من تاب إليه تاب عليه ، ولو كانت ذنوبه مهما كان في الكفر والشرك ؛ ولهذا قال : ﴿ **فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفارًا * يرسل السماء عليكم مدرارًا** ﴾ ، أي : متواصلة الأمطار ، ولهذا يستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء ؛ لأجل هذه الآية . وهكذا روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب(٢) أنه صعد المنبر ليستسقي ، فلم يزد علىٰ الاستغفار ، وقرأ الآيات في الاستغفار ، ومنها هذه الآية : ﴿ **فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفارًا * يرسل السماء عليكم مدرارًا** ﴾ ثم قال : لقد طلبت الغيث بمجاديح[٣] السماء التي يستنزل بها المطر. وقال ابن عباس وغيره : يتبع بعضه بعضًا .

وقوله : ﴿ **ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا** ﴾ ، أي : إذا تبتم إلىٰ الله واستغفرتموه وأطعتموه ، كثر الرزق عليكم ، وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأنبت لكم الزرع ، وأدرّ لكم[٤] الضرع ، وأمدكم بأموال وبنين ، أي : أعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار ، وخللها بالأنهار الجارية بينها .

هذا مقام الدعوة بالترغيب . ثم عدل بهم إلىٰ دعوتهم بالترهيب فقال : ﴿ **مالكم لا ترجون لله وقارًا** ﴾ ، أي : عظمة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك . وقال ابن عباس : لا تعظمون الله حق عظمته . أي : لاتخافون من بأسه ونقمته، ﴿ **وقد خلقكم أطوارًا** ﴾ ، قيل : معناه من نطفة، ثم من علقة ، ثم من مضغة . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، ويحيىٰ ابن رافع ، والسدي ، وابن زيد .

وقوله : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقًا** ﴾ ، أي : واحدة فوق واحدة ، وهل هذا يتلقىٰ من جهة السمع فقط ؟ أو هو من الأمور المدركة بالحس ، مما علم من التسيير

---

[١] - في ز ، خ : واستكبروا .
[٢] - في ز : من .
[٣] - في ز ، خ : بمجادح .
[٤] - سقط من ز .

والكسوفات ، فإن الكواكب السبعة السيارة يكسف بعضها بعضًا ، فأدناها القمر في السماء[١] الدنيا وهو يكسف ما فوقه ، وعطارد في الثانية ، والزهرة في الثالثة ، والشمس في الرابعة ، والمريخ في الخامسة ، والمشترىٰ في السادسة ، وزُحَل في السابعة ، وأما بقية الكواكب - وهي الثوابت - ففي فَلَك ثامن يسمونه فَلَك الثوابت . والمتشرعون منهم يقولون : هو الكرسي ، والفلك التاسع ، وهو الأطلس ، والأثير عندهم الذي حركته علىٰ خلاف حركة سائر الأفلاك ، [وذلك أن حركته مبدأ الحركات ، وهي من المغرب إلىٰ المشرق ، وسائر الأفلاك ،][٢] عكسه من المشرق إلىٰ المغرب ، ومعها يدور سائر الكواكب تبعًا ، ولكن للسيارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها ، فإنها تسير من المغرب إلىٰ المشرق . وكل يقطع فلكه بحسبه ، فالقمر يقطع فلكه في كل شهر مرة ، والشمس في كل سنة مرة ، وزحل في كل ثلاثين سنة مرة ، وذلك بحسب اتساع أفلاكها ، وإن كانت حركة الجميع في السرعة متناسبة .

هذا ملخص ما يقولونه في هذا المقام ، علىٰ اختلاف بينهم في مواضع كثيرة ، لسنا بصدد بيانها ، وإنما المقصود أن الله سبحانه خلق سبع سموات طباقًا . ﴿ **وجعل القمر فيهن نورًا وجعل الشمس سراجًا** ﴾ ، أي : فاوت بينهما في الاستنارة ، فجعل كلا منهما أنموذجًا علىٰ حدة ، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدر القمر منازل وبروجًا ، وفاوت نوره ، فتارة يزداد حتىٰ يتناهىٰ ثم يشرع في النقص حتىٰ يستتر ليدل علىٰ مضي الشهور والأعوام ، كما قال : ﴿ **هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورًا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾

وقوله : ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتًا** ﴾ : هذا اسم مصدر ، والإتيان به هاهنا أحسن ، ﴿ **ثم يعيدكم فيها** ﴾ ، أي : إذا متم ﴿ **ويخرجكم إخراجًا** ﴾ ، أي : يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة ، ﴿ **والله جعل لكم الأرض بساطًا** ﴾ ، أي : بسطها ومهدها وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ، ﴿ **لتسلكوا منها سبلًا فجاجًا** ﴾ ، أي : خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم ، من[٣] نواحيها وأرجائها وأقطارها ، وكل هذا مما ينبههم[٤] به نوح - عليه السلام - علىٰ قدرة الله وعظمته في خلق السماوات والأرض ، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، فهو الخالق الرازق ، جعل السماء بناءً ، والأرض مهادًا ، وأوسع علىٰ خلقه من رزقه ، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد ، لأنه لانظير له ولا عَديل[٥] له ، ولا نِدَّ ولا كفء ، ولا صاحبة ولا ولد ، ولا وزير ولا مشير ، بل هو العلي الكبير .

---

[١] - في ز : سماء .
[٢] - سقط من ز .
[٣] - في ز ، خ : في .
[٤] - في ز : ينبئهم .
[٥] - في ز : عدل .

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤)﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن نوح - عليه السلام -: إنه أنهىٰ إليه - وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء - أنه مع البيان المتقدم ذكره، والدعوة المتنوعة المشتملة علىٰ الترغيب تارة والترهيب أخرىٰ: أنهم عصوه وكذبوه وخالفوه، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله، ومتع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام؛ ولهذا قال: ﴿**واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا**﴾، قُرئ: ﴿**ووُلْده**﴾ بالضم وبالفتح، وكلاهما متقارب.

وقوله: ﴿**ومكروا مكرًا كبارًا**﴾، قال مجاهد: ﴿**كبارًا**﴾، أي: عظيمًا. وقال ابن زيد: ﴿**كبارًا**﴾، أي: كبيرًا. والعرب تقول: أمر عجيب وعُجَاب وعُجّاب، ورجل حُسَان وحُسَّان، وجُمَال وجُمَّال، بالتخفيف والتشديد، بمعنى واحد. والمعنىٰ في قوله: ﴿**ومكروا مكرًا كبارًا**﴾، أي: بأتباعهم في تسويلهم لهم أنهم علىٰ الحق والهدىٰ، كما يقولون لهم يوم القيامة: ﴿**بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادًا**﴾، ولهذا قال هاهنا: ﴿**ومكروا مكرًا كبارًا * وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودًّا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسرًا**﴾، وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

قال البخاري(٣): حدثنا إبراهيم، حدثنا هشام، عن ابن جريج، و[١] قال عطاء، عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد: أما وَدّ فكانت لكلب بدَومة الجندل؛ وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غُطَيف بالجُرُف[٢] عند سبأ، وأما يَعوقُ فكانت لهَمْدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي كَلاع، وهي[٣] أسماء رجال صالحين من قوم نوح - عليه السلام - فلما هلكوا أوحىٰ الشيطان إلىٰ قومهم أن انصبوا

(٢) ذكره المصنف في «البداية والنهاية» (١٠٥/٧) وعزاه لابن أبي الدنيا من طريق إسحاق بن إسماعيل عن سفيان عن مطرف بن طريف عن الشعبي قال: خرج عمر يستسقى ... فذكره.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿**ودًّا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسرًا**﴾، حديث (٤٩٢٠) (٦٦٧/٨).

[١] - سقط من ز.

[٢] - في ز، خ: بالحوف. [٣] - في ز، خ: نسرًا.

إلىٰ مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد حتىٰ إذا[١] هلك أولئك وتَنَسَّخَ العلم عبدت .

وكذا روي عن عكرمة ، والضحاك ، وقتادة وابن إسحاق نحو هذا .

وقال عليّ بن أبي طلحة : عن ابن عباس : هذه أصنام كانت تعبد في زمن[٢] نوح .

وقال ابن جرير(٤) : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن موسىٰ ، عن[٣] محمد ابن قيس ﴿ ويعوق ونسرًا ﴾ ، قال : كانوا قومًا صالحين بين[٤] آدم ونوح ، وكان لهم أتباع[٥] يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صَوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دَبّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقَوْن المطر . فعبدوهم .

وروىٰ الحافظ ابن عساكر(٥) في ترجمة شيث - عليه السلام - من طريق إسحاق بن بشر قال : وأخبرني جُوَيبر ومقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس أنه قال : ولد لآدم - عليه السلام - أربعون ولدًا ، عشرون غلامًا وعشرون جارية ، فكان ممن عاش منهم : هابيل ، وقابيل ، وصالح ، وعبد الرحمن - والذي كان سماه[٦] عبدالحارث - ووَدّ ، وكان وَدّ يقال له « شيث » ، ويقال له « هبة الله » ، وكان إخوته قد سَوّدوه ، وولد له سُواع ويغوث ويعوق ونسر .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو عُمَر الدّوريّ ، حدثني أبو إسماعيلَ المؤدّب ، عن عبد الله بن مسلم بن هُرمز ، عن أبي حزْرَة ، عن عروة بن الزّبير قال : اشتكىٰ آدم - عليه السلام - وعنده بنوه : ود ، ويغوث ، ويعوق ، وسواع ، ونسر ، وكان وَدّ أكبرَهم وأبرّهم به .

وقال ابن أبي حاتم(٦) : حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا الحسن بن موسىٰ ، حدثنا يعقوب ، عن أبي المطهر[٧] قال : ذكروا عند أبي جعفر - وهو قائم يصلي - [يزيد بن][٨]

---

(٤) أخرجه الطبري (٢٩/٩٨ - ٩٩) .

(٥) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٨/١٦٥ مخطوط) .

(٦) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٦/٤٢٨) وعزاه إلى عبد بن حميد من طريق أبي مطهر .

---

[١] - سقط من ز ، خ .

[٢] - في ز : زمان .

[٣] - في خ : ابن .

[٤] - في ز : عن .

[٥] - في خ : الذين .

[٦] - في ز ، خ : سماهم .

[٧] - في خ : الطهر .

[٨] - في ز : بين يدي .

المهلب ، قال : فلما انفتل من صلاته قال : ذكرتم يزيدَ بن المهلب ، أما إنه قتل في أول أرض عُبد فيها غير اللَّه ، قال : ثم [ذكر ودًّا ،][١] [قال : وكان ودّ][٢] رجلًا مسلمًا ، وكان محببًا في قومه ، فلما مات عسكروا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأىٰ إبليس جزَعهم عليه ، تشبه في صورة إنسان ، ثم قال : إني أرىٰ جزعكم علىٰ هذا الرجل ، فهل لكم أن أصوّر لكم مثله ، فيكون في ناديكم فتذكرونه ؟ قالوا : نعم . فصوّر لهم مثله ، قال : ووضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه . فلما رأىٰ ما بهم من ذكره قال : هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالًا مثله ، فيكون له في بيته ، فتذكرونه؟ قالوا : نعم. قال: فمثل لكل أهل بيت تمثالًا مثله . فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به ، قال : وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به ، وتناسلوا ودَرَس أمرِ ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلٰهًا يعبدونه من دون اللَّه أولاد أولادهم ، فكان أول ما عبد غير اللَّه : الصنم الذي سموه وَدًّا .

وقوله : ﴿ **وقد أضلوا كثيرًا** ﴾ ، يعني الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقًا كثيرًا فإنه استمرت[٣] عبادتها في القرون إلىٰ زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم . وقد قال الخليل - عليه السلام - في دعائه : ﴿ **واجنبني وبني أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيرًا من الناس** ﴾ .

وقوله : ﴿**ولا تزد الظالمين إلا ضلالًا**﴾ : دعاء منه علىٰ قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم ، كما دعا موسىٰ علىٰ فرعون وملئه في قوله : ﴿ **ربنا اطمس علىٰ أموالهم واشدد علىٰ قلوبهم فلا يؤمنوا حتىٰ يروا العذاب الأليم** ﴾. وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به .

مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

يقول تعالى : ﴿ **مما خطاياهم** ﴾ وقرئ : ﴿ **خطيئاتهم** ﴾ .

﴿ **أغرقوا** ﴾ ، أي : من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم علىٰ كفرهم ومخالفتهم رسولهم ، ﴿ **أغرقوا فأدخلوا نارًا** ﴾ ، أي : نقلوا من تيار البحار إلىٰ حرارة النار ، ﴿ **فلم يجدوا لهم من**

---

[١] - في ز : ذكروا .

[٢] - سقط من ز ، خ .

[٣] - في ز : استمر .

دون الله أنصارًا ﴾ ، أي : لم يكن لهم معين ولا مُغيث ولا مُجير ينقذهم من عذاب الله كقوله : **﴿ قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾**

﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا ﴾ ، أي : لا تترك على الأرض منهم أحدًا ولا تُومُريًّا[١] ، وهذه من صيغ توكيد[٢] النفي. قال الضحاك : **﴿ ديارًا ﴾** : واحدًا . وقال السدي : الديار الذي يسكن الدار .

فاستجاب الله له ، فأهلك جميع[٣] من على وجه الأرض من الكافرين ، حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه ، و : **﴿ قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾** .

وقال ابن أبي حاتم(٧) : [ ][٤] قرئ على يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني شَبيب ابن سعيد ، عن أبي الجوزاء ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« لو رحم الله من قوم نوح أحدًا لرحم امرأة لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها ، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها . فلو رحم الله منهم أحدًا لرحم هذه المرأة »** .

هذا حديث غريب ، ورجاله ثقات . ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح -عليه السلام- وهم الذين أمره الله بحملهم معه .

وقوله : **﴿ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ﴾**، أي : إنك[٥] إن أبقيت منهم أحدًا أضلوا عبادك ، [أي : الذين][٦] تخلفهم بعدهم ، **﴿ ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا ﴾** ، أي : فاجرًا في الأعمال كافر القلب ، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عامًا .

ثم قال : **﴿ رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنًا ﴾** ، قال الضحاك : يعني مسجدي . ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها ، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن ، وقد قال الإمام أحمد(٨) :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، أنبأنا سالم بن غيلان : أن الوليد بن قيس التَّجيبيّ

(٧) أخرجه الحاكم (٣٤٢/٢) من حديث عائشة - رضي الله عنها - مرفوعًا بنحو حديث ابن عباس . قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وتعقبه الذهبي بأن إسناده مظلم ، وموسى ليس بذاك .

(٨) المسند (٣٨/٣) (١١٣٥٣) . وأخرجه أبو داود في كتاب : الأدب ، باب : من يؤمر أن يجالس =

[١] - في ز : دومريًّا .
[٢] - في ز ، خ : تأكيد .
[٣] - سقط من خ .
[٤] - في ز : لما .
[٥] - سقط من ز، خ .
[٦] - سقط من ز ، خ .

أخبره : أنه سمع أبا سعيد الخدري - أو : عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد -: أنه سمع رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول : « **لا تصحب إلا مؤمنًا ، ولا يأكل طعامك إلا تقي** » .

ورواه أبو داود والترمذي ، من حديث عبد الله بن المبارك ، عن حيوة بن شريح ، به . ثم قال الترمذي : « إنما نعرفه من هذا الوجه » .

وقوله : ﴿ **وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾ : دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات ، وذلك يَعُمّ الأحياءَ منهم والأموات؛ ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء ، اقتداءً بنوح - عليه السلام - وبما جاء في الآثار والأدعية المشروعة .

وقوله : ﴿**ولا تزد الظالمين إلا تبارا**﴾ قال السدي : إلا [١] هلاكًا. وقال مجاهد : إلا خسارًا . أي : في الدنيا والآخرة .

آخر تفسير سورة نوح [عليه السلام ، ولله الحمد والمنة ، وبه التوفيق والعصمة][٢] .

☆ ☆ ☆

= حديث (٤٨٣٢) (٢٥٩/٤) . والترمذي في كتاب : الزهد ، باب : ما جاء في صحبة المؤمن ، حديث (٢٣٩٧) (١٢٣/٧) . قال الترمذي : هذا حديث حسن . وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٠٤٥) .

[١] - سقط من ز ، خ . [٢] - من ز .

سورة نوح عليه السلام

مكّيّة،[1] وهي تسع أو ثمان وعشرون آيةً.[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي: بأن أنذرهم، على أنّ ﴿أَنْ﴾ مصدريّة حُذف منها الجارّ وأوصِل إليها الفعل، فإنّ حذفه مع "أنْ" و"أنّ" مُطّرِد، وجُعِلت صلتُها أمرًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [يونس، ١٠٥/١٠]، لأنّ مدار وصلها بصيغ الأفعال دلالتُها على المصدر، وذلك لا يختلف بالخبريّة والإنشائيّة، ووجوبُ كون الصلة خبريّة في الموصول الاسمي إنّما هو للتوصّل إلى وَصْف المعارف بالجمل، وهي لا تُوصَف إلّا بالجمل الخبريّة، وليس الموصول الحرفي كذلك، وحيث استوى الخبر والإنشاء في الدلالة على المصدر استويا في صحّة الوصل بهما، فيتجرّد عند ذلك كلّ منهما عن المعنى الخاصّ بصيغته، فيبقى الحدث المجرّد عن معنى الأمر والنّهي والمُضيّ والاستقبال، كأنّه قيل: أرسلناه بالإنذار.

وقيل: المعنى أرسلناه بأن قلنا له: أنذِر، أي: أرسلناه بالأمر بالإنذار. ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ مفسِّرةً لِما في الإرسال مِن معنى القول،[3] فلا يكون للجملة محلّ مِن الإعراب، وعلى الأوّل محلّها النصب عند سيبويهِ والفرّاء،

---

[1] س - مكّيّة.

[2] س - وهي تسع أو ثمان وعشرون آية؛ س + وآيها تسع وعشرون أو ثمان وعشرون.

[3] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٤.

والجرُّ عند الخليل والكسائي كما هو المعروف.[١] وقُرئ: "أَنْذِرْ"[٢] بغير "أَنْ" على إرادة القول.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عاجل أو آجل لئلّا يبقى لهم عُذر ما أصلًا.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية إرساله عليه السلام بالوجه المذكور، / كأنّه قيل: فما فعل عليه السلام؟ فقيل: قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ مُنذِر موضِح لحقيقة الأمر. [٢٢٨و]

وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ متعلِّق بـ﴿نَذِيرٌ﴾ على الوجهين المذكورين.

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: بعض ذنوبكم، وهو ما سلَف في الجاهليّة، فإنّ الإسلام يجبّه.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الأمد الأقصى الذي قدّره الله تعالى لهم بشرط الإيمان والطاعة وراء ما قدّره لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان، فإنّ وَصْف الأجل بالمسمّى وتعليقَ تأخيرهم إليه بالإيمان والطاعة صريحٌ في أنّ لهم أجلًا آخرَ لا يُجاوزونه إن لم يؤمنوا، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما قُدّر لكم على تقدير بقائكم على الكفر ﴿إِذَا جَآءَ﴾ وأنتم على ما أنتم عليه مِن الكفر ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ فبادِرُوا إلى الإيمان والطاعة قبل مجيئه حتّى لا يتحقّق شرطه الذي هو بقاؤكم على الكفر فلا يجيءَ، ويتحقّقَ شَرْط التأخير إلى الأجل المسمّى فتُؤخَّروا إليه.

ويجوز أن يُراد به وقتُ إتيان العذاب المذكور في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فإنّه أَجَل موقَّت له حتمًا، وحَمْله على الأجل الأطول[٣] ممّا لا يساعده المقام؛ كيف لا، والجملةُ تعليلٌ للأمر بالعبادة المُستتبِعة للمغفرة والتأخير إلى الأجل المسمّى، فلا بدّ أن يكون المنفيّ عند مجيء

---

١ انظر مذاهبهم وتفصيلها في شرح الرضيّ على الكافية، ١٣٧/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٦.

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٦٤/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٥٠/٣.

الأجل هو التأخير الموعود، فكيف يتصوَّر أن يكون ما فُرض مجيئه هو الأجل المسمّى.

﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كنتم تعلمون شيئًا لسارعتم إلى ما أمرتكم به.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا ۝﴾

﴿قَالَ﴾ أي: نوح عليه السلام مناجيًا ربّه وحاكيًا له تعالى -وهو أعلم بحاله- ما جرى بينه وبين قومه مِن القيل والقال في تلك المُدَد الطوال بعد ما بذل في الدعوة غاية المجهود وجاوز في الإنذار كلّ حدّ معهود وضاقت عليه الحِيَل وعيَّت به العِلَل: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ إلى الإيمان والطّاعة ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: دائمًا مِن غير فتور ولا توانٍ، ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ ممّا دعوتهم إليه. وإسنادُ الزيادة إلى الدعاء لسببيّته لها، كما في قوله تعالى: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال، ٢/٨].

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ أي: إلى الإيمان ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بسببه ﴿جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ / فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: سدّوا مسامعهم مِن استماع الدعوة ﴿وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ أي: [٢٢٤و] بالغوا في التغطّي بها، كأنّهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تُغشّيَهم لئلّا يُبصروه كراهة النظر إليه، أو لئلّا يعرفهم فيدعوهم. ﴿وَأَصَرُّوا﴾ أي: أكبّوا على الكفر والمعاصي، مستعار مِن "أصرّ الحمار على العانة"[١] إذا صَرّ أُذُنيه وأقبل عليها. ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا﴾ عن اتّباعي وطاعتي ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ شديدًا.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝﴾

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي: دعوتهم تارةً بعد تارة ومرّةً غِبّ مرّة على وجوه متخالِفة وأساليبَ متفاوتة. و﴿ثُمَّ﴾

[١] العانة: الأتان، والقطيع مِن حُمُر الوحش. لسان العرب لابن منظور، «عنن».

لتفاوت الوجوه، فإنّ الجهار أشدّ مِن الإسرار، والجمع بينهما أغلظ مِن الإفراد، أو لتراخي بعضها مِن بعض، و﴿جِهَارًا﴾ منصوب بـ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾ على المصدر؛ لأنّه أحد نوعَي الدعاء، أو أريدَ بـ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾ جاهَرتُهم، أو هو صفة لمصدر، أي: دعوتهم دعاءً جهارًا، أي: مجاهرًا به، أو مصدر في موقع الحال، أي: مجاهرًا.

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ بالتوبة عن الكفر والمعاصي ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ للتّائبين، كأنّهم تعلّلوا وقالوا: إن كنّا على الحقّ فكيف نتركه، وإن كنّا على الباطل فكيف يقبلنا بعد ما عكفنا عليه دهرًا طويلًا، فأمَرهم بما يمحَق ما سلَف منهم مِن المعاصي ويجلِب إليهم المنافع، ولذلك وعَدهم بما هو أوقَع في قلوبهم وأحبّ إليهم مِن الفوائد العاجلة. وقيل: لمّا[1] كذّبوه بعد تكرير الدعوة حبَس الله تعالى عنهم القطر وأعقَم أرحام نسائهم أربعين سنةً. وقيل: سبعين سنةً فوعَدهم أنّهم إن آمنوا أن يرزقهم الله الخِصبَ ويدفع عنهم ما كانوا فيه.[2]

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي: كثيرَ الدُّرور، والمراد بالسماء المُظلّة أو السحاب.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ فيها ﴿أَنْهَـٰرًا﴾ / جاريةً. [٢٢٩و]

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ إنكار لأن يكون لهم سبب ما في عدم رجائهم لله تعالى وقارًا، على أنّ الرجاء بمعنى الاعتقاد، و﴿لَا تَرْجُونَ﴾ حال مِن ضمير المخاطَبين، والعامل فيها معنى الاستقرار في ﴿لَكُمْ﴾، على أنّ الإنكار متوجّه إلى السبب فقط مع تحقّق مضمون الجملة الحاليّة، لا إليهما معًا كما في قوله تعالى:

---

[1] س: كما.

[2] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٦٥٤.

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [يس، ٢٢/٣٦]. و﴿لِلَّهِ﴾ متعلّق بمضمر وقَع حالًا مِن ﴿وَقَارًا﴾، ولو تأخّر لكان صفةً له، أي: أيّ سبب حصَل لكم حالَ كونكم غيرَ معتقدين لله تعالى عظمةً موجِبةً لتعظيمه بالإيمان به والطاعة له.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: والحال أنكم على حال منافية لِما أنتم عليه بالكلّيّة، وهي أنكم تعلمون أنّه تعالى خلَقكم تاراتٍ عناصرَ ثمّ أغذيةً ثمّ أخلاطًا ثمّ نُطفًا ثمّ عَلَقًا ثمّ مُضَغًا ثمّ عِظامًا ولُحومًا ثمّ أنشأكم خَلْقًا آخرَ، فإنّ التقصير في توقير مَن هذه شئونه في القُدرة القاهرة والإحسان التامّ مع العِلم بها ممّا لا يكاد يصدر عن العاقل.

هذا وقد قيل: الرجاء بمعنى الأمل، أي: ما لكم لا تأملون له تعالى توقيرًا، أي: تعظيمًا لمَن عبده وأطاعه، ولا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله تعالى إيّاكم في دار الثواب، و﴿لِلَّهِ﴾ بيان للموقَّر، ولو تأخّر لَكان صلةً للوقار.[١]

والأوّل هو الذي يستدعيه الجَزالة التنزيليّة، فإنّ اللائق بحال الكفَرة استبعادُ ألّا يعتقدوا وقارًا لله وعظمَته مع مشاهدتهم لآثارها وأحكامِها الموجِبة للاعتقاد حتمًا، وأمّا عدم رجائهم لتعظيم الله إيّاهم في دار الثواب فليس في حيّز الاستبعاد والإنكار مع أنّ في جَعْل الوقار بمعنى التوقير مِن التعسّف. وفي قوله:[٢] «و﴿لِلَّهِ﴾ بيانٌ للموقَّر ولو تأخّر لَكان صلةً للوقار»[٣] مِن التناقض ما لا يخفى، فإنّ كونه بيانًا للموقَّر يقتضي أن يكون التوقير صادرًا عنه تعالى والوقارُ وصفًا للمخاطَبين، وكونُه صلةً للوقار يوجِب كونَ الوقار وصفًا له تعالى.

وقيل: ما لكم لا تخافون لله عظَمةً وقُدرةً على أَخْذكم بالعقوبة، أي: أيُّ عُذر لكم في تَرْك الخوف منه تعالى.[٤] وعن سعيد بن جُبير / عن ابن [٢٢٩ظ] عبّاس رضي الله عنهما: «ما لكم لا تخشَون لله عقابًا ولا ترجُون منه ثوابًا»،

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٦/٤.
[٢] س + تعالى.
[٣] الكشّاف للزمخشري، ٤٦٦/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٥٢/٣.
[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٦/٤.

وعن مجاهدٍ والضحّاك: «ما لكم لا تُبالون لله عظمةً»،[١] قال قُطْرُب: «هي لغة حِجازيّة، يقولون: لم أرجُ، أي: لم أبالِ».[٢]

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي: متطابقةً بعضها فوق بعض.

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: منوِّرًا لوجه الأرض في ظلمة الليل، ونسبتُه إلى الكلّ مع أنّه في السماء الدنيا لِما أنّها محاطَة بسائر السماوات، فما فيها يكون في الكلّ، ولأنّ كلّ واحدة منها شفّافة لا تحجب ما وراءها، فيُرى الكلّ كأنّها سماء واحدة، ومِن ضرورة ذلك أن يكون ما في واحدةٍ منها كأنّه في الكلّ.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ يُزيل ظلمة الليل، ويُبصر أهل الدنيا في ضوئها وجهَ الأرض، ويشاهدون الآفاق كما يبصِر أهلُ البيت في ضوء السِّراج ما يحتاجون إلى إبصاره، وليس القمر بهذه المثابة، إنّما هو نور في الجملة.[٣]

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أي: أنشأكم منها فاستُعير الإنبات للإنشاء لكونه أدلَّ على الحدوث والتكوّن مِن الأرض، و﴿نَبَاتًا﴾ إمّا مصدر مؤكِّد لـ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ بحذف الزوائد، ويسمّى اسمَ مصدر، أو لِما يترتّب عليه مِن فعله، أي: أنبتَكم مِن الأرض فنبتّم نباتًا. ويجوز أن يكون الأصل: أنبتكم مِن الأرض إنباتًا فنبتُّم نباتًا، فيُحذف مِن الجملة الأولى المصدر ومِن الثانية الفعل اكتفاءً في كلّ منهما بما ذُكر في الأخرى، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾ [البقرة، ١٠٨/٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس، ١٠٧/١٠].

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بالدّفن عند موتكم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عند البعث والحشر ﴿إِخْرَاجًا﴾ محقَّقًا لا ريبَ فيه.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ تتقلّبون عليها تقلُّبكم على بُسُطكم في بيوتكم. وتوسيطُ ﴿لَكُمُ﴾ بين الجَعْل ومفعوليه مع أنّ حقّه التأخّر لِما مرّ مرارًا

---

[١] كلاهما بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣١/٨؛ واللباب لابن عادل، ٣٨٧/١٩.

[٢] القول في اللباب لابن عادل، ٣٨٧/١٩.

[٣] س - في الجملة.

مِن الاهتمام ببيان كون المجعول مِن منافعهم والتشويقِ إلى المؤخَر، فإنّ النفس عند تأخير ما حقُّه التقديم لا سيّما عند كون المقدَّم مُلوِّحًا بكونه مِن المنافع تبقى[1] مترقِّبةً له فيتمكَّن عند وروده لها فضلَ تمكُّن.

﴿لِتَسْلُكُواْ/ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ أي: طُرقًا واسعةً جَمْع "فجّ"، وهو الطريق الواسع. وقيل: هو المَسلَك بين الجبلين.[2] و﴿مِنْ﴾ متعلِّقة بما قبلها لِما فيه مِن معنى الاتّخاذ، أو بمضمر هو حال مِن ﴿سُبُلًا﴾، أي: كائنةً مِن الأرض، ولو تأخَّر لَكان صفةً لها. [٢٣٠و]

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ أعيدَ لفظ الحكاية لطول العهد بحكاية مناجاته لربّه، أي: قال مناجيًا له تعالى: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ أي: تمّوا على عصياني فيما أمرتُهم به مع ما بالغتُ في إرشادهم بالعِظة والتذكير.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: واستمرّوا على اتّباع رؤسائهم الذين أبطرتهم أموالهم وغرّتهم أولادهم، وصار ذلك سببًا لزيادة خسارهم في الآخرة فصاروا أسوةً لهم في الخَسار، وفي وصفهم بذلك إشعار بأنّهم إنّما اتّبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد لِما شاهدوا فيهم مِن شبهة مصحِّحة للاتّباع في الجملة. وقُرِئ: "وَوُلْدُهُ"[3] بالضمّ والسكون على أنّه لغة كـ"الحُزْن" أو جمع كـ"الأُسد".

﴿وَمَكَرُواْ﴾ عطفٌ على صلة ﴿مَن﴾ والجمع باعتبار معناها، كما أنّ الإفراد في الضمائر الأُول باعتبار لفظها. ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أي: كبيرًا في الغاية.

---

١ السياق: فإنّ النفس... تبقى...

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٣٩١/١٩.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وحمزة ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٩١/٢.

وقُرِئ بالتخفيف،[١] والأوّل أبلغ منه، وهو أبلغ مِن "الكبير"، وذلك احتيالهم في الدِّين وصدّهم للناس عنه وتحريشهم لهم على أذيّة نوح عليه السلام.

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: لا تتركوا عبادتها على الإطلاق إلى عبادة ربّ نوح ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ أي: ولا تذَرُنّ عبادة هؤلاء، خصّوها بالذِّكر مع اندراجها فيما سبق لأنّها كانت أكبرَ أصنامهم وأعظمَها عندهم، وقد انتقلت هذه الأصنام عنهم إلى العرب فكان وَدّ لكلب وسُواعٌ لهَمْدان ويغوثُ لمَذْحِج ويعوقُ لمُراد ونَسْر لحِمْيَر.

[٢٣٠ظ] وقيل: هي أسماء رجال / صالحين كانوا بين آدمَ ونوح. وقيل: مِن أولاد آدمَ عليه السلام، ماتوا فقال إبليسُ لمَن بعدهم: لو صوّرتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم وتتبرّكون بهم ففعلوا، فلمّا مات أولئك قال لمَن بعدهم: إنّهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم. وقيل: كان وَدّ على صورة رجل، وسُواعٌ على صورة امرأة، ويغوثُ على صورة أسد، ويعوقُ على صورة فرَس، ونَسْر على صورة نسر.[٢]

وقُرِئ: "وُدًّا"[٣] بضمّ "الواو" و"يَغُوثًا ويَعُوقًا"[٤] للتناسب، ومَنْعُ صرفهما للعُجمة والعَلَميّة.

﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ﴾ أي: الرؤساء ﴿كَثِيرًا﴾ خلقًا كثيرًا، أو الأصنام كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم، ٣٦/١٤].

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ على حكاية كلام نوح بعد ﴿قَالَ﴾، وبعد "الواو" النائبة عنه، أي: قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾، وقال: ﴿لَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾. ووَضْعُ الظّاهر موضعَ ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم المُفرط، وتعليلُ الدعاء عليهم به. والمطلوبُ هو الضّلال

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السّمّال وعيسى بن عمر الثقفي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٢.

[٢] الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٧/٤.

[٣] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩١/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش والأشهب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٢، شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٦.

في تمشية مكرهم ومصالح دنياهم أو الضياع والهلاك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر، ٤٧/٥٤]، ويؤيّده ما سيأتي مِن دعائه عليه السلام.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ أي: مِن أجل خطيئاتهم، و﴿مَا﴾ مزيدة بين الجارّ والمجرور للتوكيد والتفخيم، ومَن لم يرَ زيادتها جعَلها نكرةً وجعَل ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ بدلًا منها. وقُرِئ: "مِمَّا خَطَايَاهُمْ"[1] و"مِنْ خَطِيَّاتِهِمْ"،[2] أي: بسبب خطيئاتهم المعدودة وغيرها مِن خطاياهم. ﴿أُغْرِقُوا۟﴾ بالطوفان لا بسبب آخر ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ المراد إمّا عذابُ القبر فهو عَقيب الإغراق، وإن كانوا في الماء. عن الضحّاك أنّهم كانوا يُغرَقون مِن جانب ويُحرَقون مِن جانب،[3] أو عذابُ جهنّم،[4] والتعقيب لتنزيله منزلةَ المتعقّب لإغراقهم لاقترابه وتحقُّقه لا محالةَ. وتنكير "النار" إمّا لتعظيمها وتهويلها، أو لأنّه تعالى أعدّ لهم على حسب خطيئاتهم نوعًا مِن النّار.

﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي: لم يجد أحد منهم واحدًا مِن الأنصار. وفيه تعريضٌ باتّخاذهم آلهة مِن دون الله تعالى وبأنّها غير قادرة على نصرهم، وتهكّمٌ بهم.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ عطفٌ على نظيره السابق. وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾... إلخ، اعتراضٌ وُسِّط بين دُعائَيه عليه السلام للإيذان مِن أوّل الأمر، بأنّ ما أصابهم / مِن الإغراق والإحراق لم يصبهم إلّا [٢٣١و] لأجل خطيئاتهم التي عدّدها نوح وأشار إلى استحقاقهم للإهلاك لأجلها، لا أنّها حكاية لنفس الإغراق والإحراق، على طريقة حكاية ما جرى بينه عليه السلام وبينهم مِن الأحوال والأقوال وإلّا لأخّر عن حكاية دعائه هذا. و﴿ديّارًا﴾

---

١ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٩١/٢.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٤٦٧/٤.
٣ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣٣/٨؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٨/٤.
٤ السياق: إمّا عذاب القبر... أو عذاب جهنّم...

مِن الأسماء المستعمَلة في النفي العامّ، يقال: "ما بالدار ديّار أو ديّور" كـ"قيّام" و"قيّوم"، أي: أحدٌ، وهو "فَيْعال" مِن "الدَّور" أو مِن "الدَّار"، أصله "دَيْوَار" قد فُعل به ما فُعل بأصل "سيّد"، لا "فعّال" وإلّا لكان "دوّارًا".[١]

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ عليها كلًّا أو بعضًا ﴿يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ عن طريق الحقّ ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي: إلّا مَن سيفجُر ويكفر، فوَصَفهم بما يصيرون إليه،[٢] وكأنّه اعتذار ممّا عسى يرِد عليه مِن أنّ الدعاء بالاستئصال مع احتمال أن يكون مِن أخلافهم مَن يؤمن مُنكَر، وإنّما قاله لاستحكام عِلمه بما يكون منهم ومِن أعقابهم بعدما جرّبهم واستقرأ أحوالهم قريبًا مِن ألف سنةٍ.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ أبوه مُتَوَشْلِخُ وأمّه شمخا بنت أنوش كانا مؤمنين. وقيل: هما آدمُ وحوّاءُ.[٣] وقُرئ: "وَلِوَلَدَيَّ"[٤] يريد سامًا وحامًا. ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ﴾ أي: منزلي. وقيل: مسجدي. وقيل: سفينتي.[٥] ﴿مُؤْمِنًا﴾ بهذا القيد خرجت امرأته وابنه كنعان، ولكن لم يجزم عليه السلام بخروجه إلّا بعد ما قيل له: إنّه ليس مِن أهلك، وقد مرّ تفصيله في سورة هود.[٦] ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ عمّهم بالدّعاء إثرَ ما خصّ به مَن يتّصل به نسبًا ودينًا.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي: هلاكًا. قيل: غرِق معهم صبيانهم أيضًا، لكنّ لا على وجه العقاب لهم؛ بل لتشديد عذاب آبائهم وأمّهاتهم بإراءة هلاك أطفالهم الذين كانوا أعزّ عليهم مِن أنفسهم.[٧]

قال عليه السلام: «يهلِكون مَهلِكًا واحدًا ويصدرون مصادرَ شتّى»،[٨] وعن الحسن أنّه سئل عن ذلك فقال: «عَلِم الله براءتهم فأهلكهم بغير عذاب»،[٩]

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٨.
٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٨.
٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٨.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن بن عليّ والزُّهري وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٦.
٥ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٨.
٦ في الآية السادسة والأربعين منها.
٧ القول بمعناه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٨-٤٦٩.
٨ مسند أحمد، ٤١/٢٥٧ (٢٤٧٣٨)؛ وصحيح مسلم، ٤/٢٢١٠ (٢٨٨٤)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٩.
٩ ما وجدته في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٩.

وقيل: / أعقَم الله تعالى أرحامَ نسائهم وأيبَس أصلاب آبائهم قبل الطّوفان [٢٣١ظ]
بأربعين أو سبعين سنةً فلم يكن معهم صبيّ حين غرقوا.[١]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة نوح كان مِن المؤمنين الذين تُدرِكهم دعوة نوح عليه السلام».[٢]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٩.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧/٣٨٤ (نوح، ٧١/١)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٢٥٦ (نوح، ٧١/١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٩. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٧١

سُورَةُ نُوحٍ

مكية، ثمانٍ أو تسعٌ وعشرون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ﴾ أي: بإنذارِ ﴿قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ﴾، إن لم يُؤمنوا، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: مُؤلم في الدنيا والآخرة. ٢ ـ ﴿قَالَ: يَا قَوْمِ، إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: بيِّنُ الإنذار ٣ ـ ٤ ـ ﴿أَنِ﴾ أي: بأن أقول لكم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ، يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ـ مِن: زائدةٌ. فإن الإسلام يُغفَر به ما قبله، أو تبعيضيةٌ لإخراجِ حقوق العباد ـ ....

سُورَةُ نُوحٍ

قولُهُ: (أي: بِإِنذَارِ) أشارَ إلى أنَّ ﴿أن﴾ مصدَريَّةٌ، لكن لا يَصِحُّ مَعنًى؛ لأنَّه يَصيرُ التَّقديرُ: أرسَلنا نُوحاً إلى قومِهِ بإنذارِ قومِكَ، والعَجَبُ من البَيضاوِيِّ[1] أنَّهُ اختارَ هذا القَولَ ثمَّ قالَ: أو بأن قُلنا له: أنذِر، ثمَّ قالَ: ويجوزُ أن تكونَ مُفسِّرةً؛ لتضمُّنِ الإرسالِ مَعنى القَولِ، ولا يخفَى أنَّ إعرابَهُ الثَّاني أيضاً لا يَخلو عن تكلُّفٍ، فالمفسِّرَةُ هي المتعيِّنَةُ للتَّفسيرِ، والله أعلم.

قولُهُ: (في الدُّنيَا) الطُّوفانُ.

قولُهُ: (أي: بأَنْ أَقُولَ) قدَّرَ القولَ لصحَّةِ المعنى؛ إذ لا مَعنى لقولِهِ: ﴿نَذِير﴾ لعبادَةِ الله، والأظهَرُ هنا أيضاً أنَّها تفسيريَّةٌ؛ لأنَّ الإنذارَ يتضَمَّنُ مَعنى القَولِ.

قولُهُ: (لإِخرَاجِ) أو لأنَّ المغفورَ ما سبَقَ، وهو بعضُ الذُّنوبِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٤٨).

﴿ويُؤَخِّرْكُم﴾ بلا عذاب ﴿إلى أجَلٍ مُسَمًّى﴾: أجلِ الموت. ﴿إنَّ أجَلَ اللهِ﴾ بعذابكم، إن لم تؤمنوا، ﴿إذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ. لَو كُنتُم تَعلَمُونَ﴾ ذلك لآمنتم.

٥ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، إنِّي دَعَوتُ قَومِي لَيلاً ونَهارًا﴾ أي: دائمًا مُتّصلاً، ٦ ـ ﴿فلَم يَزِدْهُم دُعائيَ إلاّ فِرارًا﴾ عن الإيمان، ٧ ـ ٨ ـ ﴿وإنِّي كُلَّما دَعَوتُهُم لِتَغفِرَ لَهُم جَعَلُوا أصابِعَهُم في آذانِهِم﴾ لئلاّ يسمعوا كلامي، ﴿واستَغشَوا ثِيابَهُم﴾: غطَّوا رُؤوسهم بها لئلاّ يُبصروني، ﴿وأصَرُّوا﴾ على كُفرهم، ﴿واستَكبَرُوا﴾ تكبّروا عن الإيمان ﴿استِكبارًا، ثُمَّ إنِّي دَعَوتُهُم جِهارًا﴾ أي: بأعلى صوتي، ٩ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ﴿ثُمَّ إنِّيَ أعلَنتُ لَهُم﴾ صوتي، ﴿وأسرَرتُ لَهُم﴾ الكلامَ ﴿إسرارًا، فقُلتُ: استَغفِرُوا رَبَّكُم﴾ من الشِّرك ـ ﴿إنَّهُ كانَ غَفّارًا ـ يُرسِلِ السَّماءَ﴾ المطرَ، وكانوا قد مُنِعوه، ﴿عَلَيكُم مِدرارًا﴾: كثير الدُّرور، ١٢ ـ ﴿ويُمدِدْكُم بِأموالٍ وبَنِينَ، ويَجعَلْ لَكُم جَنّاتٍ﴾: بساتينَ، ﴿ويَجعَلْ لَكُم أنهارًا﴾ جارية. ....

قولُهُ: (أَجَلِ المَوتِ) أو هو أقصى ما قَدَّرَ لكم بشَرطِ الإيمانِ والطّاعةِ، (بِعَذَابِكُم) أو الأجلِ الذي قدَّرَهُ ﴿إذا جاءَ﴾ على الوَجهِ المقدَّرِ به أجلاً، وقيل: إذا جاءَ الأجلُ الأطوَلُ ﴿لا يُؤَخَّر﴾، فبادِروا في أوقاتِ الإمهالِ والتَّأخيرِ.

قولُهُ: (ذَلِكَ) وفيه أنَّهُم لانهِماكِهِم في حُبِّ الحَياةِ كأنَّهم شاكُّونَ في الموتِ، ولذا قالَ الغَزاليُّ[1]: ما يَقينٌ أشبَهُ بالشَّكِّ من الموتِ.

قولُهُ: (عنِ الإِيمَانِ) وإسنادُ الزِّيادةِ إلى الدُّعاءِ على السَّبَبيَّةِ.

قولُهُ: (لِئَلا ينْظرُونِي) كَراهَةَ النَّظَرِ إليَّ من فَرطِ كراهَتِهِم دَعوَتي.

قولُهُ: (عنِ الإِيمَانِ) أو عن اتِّباعي.

قولُهُ: (أي: بأَعلَى صَوتِي) ونصَبهُ على المصدَرِ؛ لأنَّه أحَدُ نَوعي الدُّعاءِ، أو على الحال؛ أي: مُجاهِراً.

قولُهُ: (الكَلامَ) أي: دَعَوتُهم مَرَّةً بعد أُخرى، على أيِّ وَجهٍ أمكَنَني، و﴿ثمَّ﴾ لتَراخي بَعضِها عن بَعضٍ.

قولُهُ: (مِنَ الشِّركِ) بالتَّوبَةِ.

قولُهُ: (المَطَرَ) أو السَّحاب، أو المظَلَّة.

قولُهُ: (مُنِعُوهُ) أربَعينَ سنَةً، وأعقَمَ أرحامَ نسائِهِم.

قولُهُ: (كَثِيرَ الدُّرُورِ) أي: السَّيلانِ.

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» (١/ ٧٣) فذكره بلفظ: قال بعضهم: ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت.

١٣ ـ ﴿ما لَكُم، لا تَرجُونَ لِلهِ وَقارًا﴾ أي: تؤمّلون وقارَ الله إياكم بأن تُؤمنوا، ١٤ ـ ﴿وقَد خَلَقَكُم أطوارًا﴾: جمعُ طَور. وهو الحال ـ فطورًا نطفةً وطورًا علقةً إلى تمام خلق الإنسان ـ والنظر في خلقه يُوجب الإيمانَ بخالقه؟

١٥ ـ ﴿أَلَم تَروا﴾: تنظروا: ﴿كَيفَ خَلَقَ اللهُ سَبعَ سَماواتٍ طِباقًا﴾ بعضُها فوق بعض، ١٦ ـ ﴿وجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ﴾ أي: في مجموعهنّ الصادقِ بالسماء الدنيا ﴿نُورًا، وجَعَلَ الشَّمسَ سِراجًا﴾: مِصباحًا مُضيئًا، وهو أقوى من نور القمر؟ ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ﴿واللهُ أنبَتَكُم﴾: خلقَكم ﴿مِنَ الأرضِ﴾ إذ خلق أباكم آدمَ منها ﴿نَباتًا، ثُمَّ يُعِيدُكُم فِيها﴾ مقبورِينَ، ﴿ويُخرِجُكُم﴾ للبعث ﴿إخراجًا، واللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ بِساطًا﴾: مبسوطة ﴿لِتَسلُكُوا مِنها سُبُلًا﴾: طُرقًا ﴿فِجاجًا﴾: واسعة.

٢١ ـ ﴿قالَ نُوحٌ: رَبِّ، إنَّهُم عَصَونِي، واتَّبَعُوا﴾ أي: السَّفَلَةُ والفُقراءُ ﴿مَن لَم يَزِدهُ مالُهُ ووُلْدُهُ﴾ ـ وهم الرُّؤساءُ المُنعَمُ عليهم بذلك. وولد بضمّ الواو وسكون اللام وبفتحهما........................

قولُهُ: (﴿وَقَاراً﴾) تَوقيراً؛ أي: تَعظيماً لمن عبدَهُ وأطاعَهُ، فتكونونَ على حالٍ تَأمُلونَ فيها تَعظيمَهُ إيَّاكُم، و﴿لله﴾ بَيانٌ للموقِّرِ بكَسرِ القافِ، ولو تَأخَّرَ لكانَ صلَةً للوَقارِ، وبهذا يَتبَيَّنُ ما في كَلامِ الشَّيخِ.

قولُهُ: (جَمعُ: طَورٍ) أي: تاراتٍ.

قولُهُ: (وَهوَ) الظَّاهِرُ أنَّه راجِعٌ إلى السِّراجِ، ولا يَصحُّ معنًى، ولذا قالَ البَيضاويُّ[1]: مَثَّلها به؛ لأنَّها تُزيلُ ظُلُماتِ اللَّيلِ عن وَجهِ الأرضِ كما يُزيلها السِّراجُ عمَّا حولَهُ؛ يعني: التَّشبيهُ لا يلزَمُ أن يكونَ من جميعِ الوجوهِ، ولا يَبعُدُ أن يرجِعَ إلى الضِّياءِ المستَفادِ من مصدَرِ قولِهِ: (مُضِيئاً) واللهُ أعلَمُ.

قولُهُ: (خَلَقَكُم) أي: أنشَأكُم منها، فاستُعِيرَ الإنباتُ للإنشاءِ؛ لأنَّه أدَلُّ على الحُدوثِ والتَّكَوُّنِ من الأرضِ، فأصلُهُ: أنبتَكُم إنباتاً فنَبتُّم نَباتاً، فاختُصِرَ اكتِفاءً بالدَّلالَةِ الالتِزاميَّةِ.

قولُهُ: (للبَعثِ) أو للحَشرِ.

قولُهُ: (مَبسُوطَةً) أو بساطاً يتَقلَّبونَ عليها.

قولُهُ: (طُرُقاً) و﴿من﴾ لتضَمُّنِ الفِعلِ مَعنى الاتِّخاذِ.

قولُهُ: (بذَلِكَ) أي: البَطِرينَ بأموالِهِم المغتَرِّينَ بأولادِهِم بحيثُ صارَ ذلك سَبَباً لزيادَةِ خَسارِهِم في الآخِرَة.

قولُهُ: (وبِفَتحِهِما) نافِعٌ وشاميٌّ وحَفصٌ[2].

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٤٩).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٥)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٧).

والأول قيل: جمع وَلَد بفتحهما كخُشْب وخَشَب. وقيل: بمعناه كبُخْل وبَخَل ـ ﴿إلاّ خسارًا﴾: طُغيانًا وكُفرًا، ٢٢ ـ ﴿ومَكَرُوا﴾ أي: الرؤساءُ ﴿مَكْرًا كُبّارًا﴾: عظيمًا جِدًّا بأن كذّبوا نُوحًا وآذَوه ومن اتبعه، ٢٣ ـ ﴿وقالُوا﴾ للسَّفلة: ﴿لا تَذَرُنَّ آلِهتَكُم، ولا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ ـ بفتح الواو وضمّها ـ ﴿ولا سُواعًا ولا يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسرًا﴾ هي أسماء أصنامهم. ٢٤ ـ ﴿وقَد أضَلُّوا﴾ بها ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس، بأن أمروهم بعبادتها، ﴿ولا تَزِدِ الظّالِمِينَ إلاّ ضَلالاً﴾: عطفٌ على «قد أضلّوا». دعا عليهم لمّا أُوحي إليه «أنّه لَن يُؤمِنَ مِن قَومِكَ إلاّ مَن قَد آمَنَ».

٢٥ ـ ﴿مِمّا﴾ ـ ما: صلة ـ ﴿خَطاياهُم﴾، وفي قِراءةٍ: «خَطِيئتِهِم» بالهمز، ﴿أُغرِقُوا﴾ بالطوفان، ﴿فأُدخِلُوا نارًا﴾ عُوقبوا بها عَقِبَ الإغراق تحت الماء،..........................

قولُهُ: (أي: الرُّؤَسَاءُ) عطفٌ على: ﴿لَم يَزِده﴾، والضَّميرُ لـ﴿مَنْ﴾ وجمعُهُ للمَعنى.

قولُهُ: (جِدًّا) فإنَّهُ أبلَغُ من كُبار، وهو من كَبيرٍ.

قولُهُ: (بأَن كَذَّبُوا) أو احتالوا في الدِّين وحَرَّشوا النَّاسَ على أذى نُوحٍ.

قولُهُ: (للسَّفَلَةِ) أو بَعضُهُم لبَعضٍ.

قولُهُ: (وضَمِّهَا) نافعٌ[1]؛ أي: عبادَتَها.

قولُهُ: (هي) الظَّاهِرُ: هي أو هُنَّ.

قولُهُ: (عطفٌ) الظَّاهرُ عُطِف على: ﴿رَبِّ إنَّهُم عَصَونِي﴾، وهو الملائِمُ لقَولِ الشَّيخِ: دَعا عليهم، قالَ القاضِي[2]: ولعَلَّ المطلوبَ هو الضَّلالُ في تَرويجِ مكرِهم ومصالِحِ دنياهُم، لا في أمرِ دينِهم أو الضَّياعُ والهَلاكُ[3].

قولُهُ: (﴿ما﴾ صِلَةٌ) للتَّأكيدِ؛ أي: من أجلِ خَطاياهُم.

قولُهُ: (وفي قِرَاءَةٍ) لغَيرِ البَصريِّ[4]، صَنيعُهُ هذا يُشيرُ إلى أنَّ قراءَتَهُ الخاصَّة كانت بَصريَّةً، وإلا فالأنسَبُ جَعلُ قراءَةِ الجُمهورِ أصلاً.

قولُهُ: (عُوقِبُوا بِهَا) يعني: في البَرزَخِ.

---

(١) انظر المصادر السابقة.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٥٠).

(٣) في (م): «الهلاك».

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٥)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٧).

﴿فلَم يَجِدُوا لَهُم مِن دُونِ﴾ أي: غيرَ ﴿اللهِ أنصارًا﴾ يمنعون عنهم العذاب.

٢٦ - ﴿وقالَ نُوحٌ: رَبِّ، لا تَذَرْ علَى الأرضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيّارًا﴾ أي: نازلَ دار - والمعنى: أحدًا.

٢٧ - ﴿إنَّكَ إن تَذَرْهُم يُضِلُّوا عِبادَكَ، ولا يَلِدُوا إلاَّ فاجِرًا كَفّارًا﴾ مَن يفجُر ويكفر. قال ذلك لِما تقدّم من الإيحاء إليه - ٢٨ - ﴿رَبِّ، اغفِرْ لِي ولِوالِدَيَّ﴾، وكانا مُؤمنَين، ﴿ولِمَن دَخَلَ بَيتِي﴾: منزلي أو مَسجدي ﴿مُؤمِنًا ولِلمُؤمِنِينَ والمُؤمِناتِ﴾ إلى يوم القيامة، ﴿ولا تَزِدِ الظّالِمِينَ إلاّ تَبارًا﴾: هلاكًا. فأُهلكوا.

قولُهُ: (العَذَابَ) لا عَذابَ الإغراقِ، ولا عَذابَ الإحراقِ، تَعرِيضٌ لهم باتِّخاذِ آلِهَةٍ من دُونِ الله لا تَقدِرُ على نَفعِهِم.

قولُهُ: (نَازِلَ دَارٍ) أو دائِراً، فيُقال: من الدَّارِ أو الدُّورِ.

قولُهُ: (مَن يَفجُرُ) مَجازٌ باعتِبارِ الصَّيرورَةِ والمآلِ.

قولُهُ: (لِمَا تَقَدَّم) ولمَّا جرَّبَهُم وتتبَّعَ أحوالَهُم ألفَ سَنَةٍ إلا خَمسينَ عاماً، فعرَفَ شيَمَهُم وطِباعَهُم.

قولُهُ: (وكَانَا مُؤمِنَينِ) وقالَ سَعيدُ بنُ جُبَيرٍ: والِدِهُ وجدِّهِ، أخرجَهُ ابنُ أبي حاتمٍ[1].

قولُهُ: (أو مَسجِدِي) أو سَفينَتي، والله أعلمُ.

* * *

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٢٩٥).

سورة نوح
عليه السلام

مكيَّة بالاتفاق، وهي ثمان وعشرون آية في الكوفي، وتسع في البصري والشامي، وثلاثون فيما عدا ذلك.

ووجه اتِّصالها بما قبلها على ما قال الجلال السيوطيُّ[1] - وأشار إليه غيره - أنه سبحانه لمَّا قال في سورة المعارج: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ عقَّبه تعالى بقصة قوم نوح عليه السلام المشتملةِ على إغراقهم عن آخرهم بحيث لم يَبْقَ منهم في الأرض ديَّار، وبدَّل خيراً منهم، فوقعت موقعَ الاستدلال والاستظهار لتلك الدعوى، كما وقعت قصة أصحاب الجنَّة في سورة «ن» موقعَ الاستظهار لما ختم به تبارك هذا، مع تواخي مطلع السورتين في ذكر العذاب الموعد به الكافرون.

ووجه الاتصال على قول مَن زعم أنَّ السائل هو نوح عليه السلام ظاهر، وفي بعض الآثار ما يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ يقرؤها على قوم نوح عليه السلام يوم القيامة، أخرج الحاكم عن ابن عباس مرفوعاً قال: «إنَّ الله تعالى يدعو نوحاً وقومَه يوم القيامة أوَّلَ الناس، فيقول: ماذا أجبتم نوحاً؟ فيقولون: ما دعانا وما بلَّغنا ولا نصحنا ولا أمرنا ولا نهانا. فيقول نوح عليه السلام: دعوتهم يا ربِّ دعاء فاشياً في الأوَّلين والآخِرين أمة بعد أمة، حتى انتهى إلى خاتم النبيين أحمدَ ﷺ، فانْتَسَخَه وقرأه وآمنَ به وصدَّقه. فيقول الله عزَّ وجلَّ للملائكة عليهم السلام: ادعوا أحمد وأمَّته. فيَدْعونهم، فيأتي رسولُ الله ﷺ وأمَّتُه يسعى نورهم بين أيديهم،

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور ص٨٨.

فيقول نوح عليه السلام لمحمَّد ﷺ وأمَّتِه: هل تعلمون أنِّي بلَّغتُ قومي الرسالة، واجتهدتُ لهم بالنصيحة، وجهدت أن أستنقذهم من النار سرّاً وجهاراً، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً. فيقول رسولُ الله ﷺ وأمَّتُه: فإنَّا نشهد بما أنشدتنا أنَّك في جميع ما قلت من الصادقين. فيقول قومُ نوح عليه السلام: وأنَّى علمتَ هذا أنت وأمَّتُك ونحن أوَّل الأمم وأنتُم آخِرُ الأمم؟! فيقول رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ حتى يختم السورة، فإذا ختمها، قالت أمَّتُه: نشهد أنَّ هذا لهو القصصُ الحقُّ، وما مِن إله إلا الله، وأنَّ الله لهو العزيز الحكيم. فيقول الله عزَّ وجلَّ عند ذلك: امتازوا اليومَ أيُّها المجرمون»(١).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ هو اسم أعجميٌّ، زاد الجواليقيُّ: معرَّب(٢). والكرمانيُّ: معناه بالسريانية: الساكن(٣)، وصُرفَ؛ لعدم زيادته على الثلاثة مع سكون وسطه، وليس بعربيٍّ أصلاً، وقول الحاكم في «المستدرك»(٤): إنما سُمِّيَ نوحاً؛ لكثرة نَوْحِه وبكائه على نفسه، واسمه: عبد الغفَّار. لا أظنُّه يصحُّ، وكذا ما ينقل في سبب بكائه من أنه عليه السلام رأى كلباً أجرب قذراً، فبصق عليه فأنطقه الله تعالى، فقال: أتعيبني أم تعيب خالقي؟! فندم وناح لذلك.

والمشهور أنه عليه السلام: ابن لَمْك(٥) ـ بفتح اللام وسكون الميم بعدها

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٦٧، والمستدرك ٢/ ٥٤٧-٥٤٨.
(٢) المعرَّب ص٣٧٨.
(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٢٤٨.
(٤) لم نقف عليه في مطبوعه، والقول ذكره العيني في عمدة القاري ١٥/ ٢١٧ دون عزوه للحاكم.
(٥) جاء في هامش الأصل: ويقال: لامك، بفتح الميم وكسرها، وكان تقياً صالحاً، وفي زمانه كثرت الجبابرة من ولد قابيل، عاش ثمان مئة سنة. منه.
وورد أيضاً: يقال: استخلفه إدريس بأمر الله تعالى قبل رَفْعِه، وهو فيما قيل: أول من ركب الخيل وجاهد، عاش تسع مئة واثنتين وثمانين سنة، وتوفي في أيلول. منه.

كاف ـ ابن مَتُّوشَلَخ ـ بفتح الميم وتشديد المثناة المضمومة بعدها واو ساكنة وفتح الشين المعجمة واللام والخاء المعجمة ـ ابن خَنُوخ ـ بفتح الخاء المعجمة[١] وضمِّ النون الخفيفة وبعدها واو ساكنة ثم خاء معجمة، وشاع: أخنوخ بهمزةٍ أوَّلَه، وهو إدريس[٢] عليه السلام ـ بن يَرْد ـ بمثناة من تحت مفتوحة ثم راء ساكنة مهملة ـ ابن مهلائيل[٣] بن قينان[٤] بن أنوش[٥] ـ بالنون والشين المعجمة ـ ابن شِيت[٦] ـ بالتاء المثناة آخِرَه[٧] ـ بن آدم عليه السلام، وهذا يدلُّ على أنه عليه السلام بعد إدريس عليه السلام.

وفي «المستدرك» أنَّ أكثر الصحابة ﷺ على أنَّه قبل إدريس[٨]، وفيه عن ابن عباس: كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون[٩]. وفيه أيضاً مرفوعاً: «بعث الله تعالى نوحاً لأربعين سنة، فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم، وعاش بعد الطوفان ستِّين سنة حتى كثر الناس وفشوا»[١٠].

وذكر ابنُ جرير[١١] أنَّ مولده كان بعد وفاة آدم عليه السلام بمئة وستَّة وعشرين عاماً، وفي «التهذيب» للنووي[١٢] رحمه الله تعالى أنه أطول الأنبياء عليهم السلام عُمُراً. وقيل: إنَّه أطول الناس مطلقاً عمراً، فقد عاش ـ على ما قال شدَّاد ـ ألفاً

(١) جاء في هامش الأصل: وقيل: بالحاء المهملة.
(٢) جاء في هامش الأصل: رفعه الله تعالى إليه وهو ابن ثلاث مئة وخمسين سنة. منه.
(٣) جاء في هامش الأصل: عاش تسع مئة وخمسة وستين. منه.
(٤) جاء في هامش الأصل: عاش سبع مئة وسبعين سنة.
(٥) جاء في هامش الأصل: عاش تسع مئة وستاً وستين سنة.
(٦) جاء في هامش الأصل: عاش تسع مئة وستاً وستين سنة. اهـ. ووقع في (م): شيث. بالثاء، وكذا في أكثر مصادر ترجمته.
(٧) قوله: بالتاء المثناة آخره. ليس في (م).
(٨) المستدرك ٢/ ٥٤٦.
(٩) المستدرك ٢/ ٥٤٦، وأخرجه أيضاً الطبري في التاريخ ١/ ١٧٨.
(١٠) المستدرك ٢/ ٥٤٦-٥٤٧.
(١١) في تاريخه ١/ ١٧٤.
(١٢) تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١٣٤.

وأربع مئة وثمانين سنة. ولم يُسمع عن أحد أنه عاش كذلك. يعني بالاتفاق؛ لئلا يَرد الخَضِرُ عليه السلام، وقد يجاب بغير ذلك.

وهو على ما قيل: أوَّل مَن شُرعت له الشرائع وسُنَّت له السنن، وأوَّل رسول أنذر على الشرك وأُهلكت أمَّته. والحقُّ أنَّ آدم عليه السلام كان رسولاً قبله أُرسل إلى زوجته حوَّاء ثم إلى بَنِيْه، وكان في شريعته ما نسخ بشريعة نوح في قولٍ، وفي آخر: لم يكن في شريعته إلا الدعوة إلى الإيمان.

ويقال لنوح عليه السلام: شيخ المرسَلِين، وآدم الثاني. وكان دقيقَ الوجه في رأسه طولٌ، عظيم العينين، غليظ العَضُدين، كثير لحم الفخذين، ضخم السُّرَّة، طويل اللِّحية والقامة، جسيماً. واختلف في مكان قبره؛ فقيل: بمسجد الكوفة. وقيل: بالجبل الأحمر، وقيل: بذيلِ جبلِ لبنان بمدينة الكرك.

وفي إسناد الفعل إلى ضمير العظمة مع تأكيد الجملة ما لا يَخفى من الاعتناء بأمر إرساله عليه السلام.

﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ قيل: هم سكان جزيرة العرب ومَن قَرُبَ منهم، لا أهل الأرض كافَّة؛ لاختصاص نبيِّنا ﷺ بعموم البعثة مِن بين المرسَلِين عليهم السلام، وما كان لنوح بعد قصَّة الغَرَق على القول بعمومه أَمْرٌ اتفاقي، واشتهر أنَّه عليه الصلاة والسلام كان يسكن أرضَ الكوفة وهناك أُرسل.

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي: أي أنذر قومك، على أنَّ «أنْ» تفسيريَّة؛ لِمَا في الإرسال من معنى القول دون حروفه، فلا محلَّ للجملة من الإعراب، أو: بأنْ أنذرهم، أي: بإنذارهم، أو: لإنذارهم، على أنَّ «أنْ» مصدريَّة وقبلها حرف جرٍّ مقدَّرٌ وهو الباء أو اللام، وفي المحلِّ بعد الحذف من الجرِّ والنصب قولان مشهوران، ونصَّ أبو حيَّان على جواز هذا الوجه في بحره هنا، ومنعه في موضع آخر[1].

وحَكَى المنعَ عنه ابنُ هشام في «المغني»[2]، وقال: زعم أبو حيَّان أنَّها لا توصل

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٣٨ و١/ ٣٨١ على الترتيب.
(٢) مغني اللبيب ص٤٤-٤٥.

بالأمر، وأنَّ كلَّ شيء سمع من ذلك فـ «أنْ» فيه تفسيريَّة، واستدلَّ بدليلين:

أحدهما: أنَّهما إذا قُدِّرا بالمصدر فات معنى الأمر.

الثاني: أنهما لم يقعا فاعلاً ولا مفعولاً، لا يصحُّ: أعجبني أنْ قُمْ، ولا: كرهت أنْ قُمْ، كما يصحُّ ذلك مع الماضي والمضارع.

والجواب عن الأوَّل: أنَّ فوات معنى الأمريَّة عند التقدير بالمصدر كفوات معنى المُضِيِّ والاستقبال في الموصولة بالمضارع والماضي عند التقدير المذكور، ثم إنه يُسلِّم مصدريَّة المخفَّفة مع لزوم نحو ذلك فيها في نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنْ غَضِبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾[1] [النور: ٩] إذ لا يفهم الدعاء من المصدر إلا إذا كان مفعولاً مطلقاً نحو: سقياً ورعياً.

وعن الثاني: أنه إنَّما منع ما ذكره لأنَّه لا معنى لتعليق الإعجاب والكراهية بالإنشاء، لا لِمَا ذكره، ثم ينبغي له أنْ لا يُسلِّم مصدريَّة «كي»؛ لأنها لا تقع فاعلاً ولا مفعولاً، وإنَّما تقع مخفوضة بلام التعليل، ثم ممَّا يُقْطَعُ به على قوله بالبطلان حكاية سيبويه: كتبت إليه بأن قم. واحتمال زيادة الباء ـ كما يقول ـ وهمٌ فاحشٌ؛ لأنَّ حروف الجرِّ مطلقاً لا تدخل إلا على الاسم أو ما في تأويله. انتهى.

وأجاب بعضهم عن الأول أيضاً بأنَّه عند التقدير يقدَّر الأمر، فيقال فيما نحن فيه مثلاً: إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه بالأمر بإنذارهم. وتعقِّب بأنَّه ليس هناك فِعْلٌ يكون الأمرُ مصدرَه كـ: أَمَرْنا أو نأمُر، ثم إنه يكون المعنى في نحو: أمرته بأن قم: أمرته بالأمر بالقيام، وأشار الزمخشريُّ إلى جواب ذلك وهو أنَّه إذا لم يَسبق لفظ الأمر أو ما في معناه من نحو: رسمت، فلا بدَّ من تقدير القول، لئلا يبطل الطلب، فيقال هنا: أرسلناه بأن قلنا له: أنذر، أي: بالأمر بالإنذار[2]، وإذا سبقه ذلك لا يحتاج إلى[3] تقديره؛ لأن مآل العبارات ـ أعني: أمرته بالقيام، و: أمرته بأن قم، و: أن قم، بدون الباء، على أنَّها مفسِّرة ـ إلى واحد.

---

(١) وهي قراءة نافع كما سلف عند تفسير الآية، وينظر شرح الدماميني للمغني ١/ ٦٢.
(٢) الكشاف ٤/ ١٦١.
(٣) في (م): إلا.

وفي «الكشف»: لو قيل: إنَّ التقدير: وأرسلناه بالأمر بالإنذار، من دون إضمار القول؛ لأنَّ الأمريَّة ليست مدلولَ جوهر الكلمة بل من متعلَّق الأداة، فيقدَّر بالمصدر تبعاً، وفي أمر المخاطب اكتفي بالصيغة تحقيقاً، لكان حسناً، وهذا كما أنَّ التقدير في: أن لا يزنيَ خيرٌ له: عدم الزنى، فيقدَّر النفي بالمصدر على سبيل التبعيَّة، وأمَّا إذا صرّح بالأمر، فلا يحتاج إلى تقدير مصدر للطلب أيضاً، هذا ولو قدر: أمرته، بالأمر بالقيام، أي: بأنْ يأمر نفسَه به مبالغة في الطلب، لم يبعد عن الصواب، ولمَّا فُهم منه ما فُهم من الأوَّل وأبلغ، استُعمل استعماله من غير ملاحظة الأصل، وادَّعى بعضهم أنَّ تقديرَ القول هنا ليس لئلا يفوتَ معنى الطلب، بل لأنَّ الباء المحذوفة للملابسة، وإرسالُ نوح عليه السلام لم يكن ملتبساً بإنذاره لتأخُّره عنه، وإنما هو ملتبس بقول الله تعالى له عليه السلام: «أَنذر»، ولمَّا كان هذا القول منه تعالى لطلب الإنذار، قيل: المعنى: أرسلناه بالأمر بالإنذار، وكأنَّ هذا القائل لا يبالي بفوات معنى الطلب كما يقتضيه كلام ابنِ هشام المتقدِّم آنفاً.

وبحث الخفاجيُّ(١) فيما ذكروه من الفوات، فقال: كيف يفوت معنى الطلب وهو مذكور صريحاً في «أنذر» ونحوه؟ وتأويله بالمصدر المسبوك تأويل لا ينافيه؛ لأنَّه مفهوم(٢) أخذوه من موارد استعماله، فكيف يبطل صريح منطوقه، فما ذكروه ممَّا لا وجهَ له وإن اتفقوا عليه، فاعرفه. انتهى.

وأقول: لعلَّهم أرادوا بفواتِ معنى الطلب فواتَه عند ذِكْر المصدر الحاصل من التأويل بالفعل، على معنى أنَّه إذا ذكر بالفعل لا يتحقَّق معنى الطلب، ولا يتَّحد الكلامان، ولم يريدوا أنَّه يفوت مطلقاً، كيف وتحقُّقه في المنطوق الصريح كنارٍ على عَلَم، ويؤيِّد هذا منعُهم بطلانَ اللازم المشار إليه بقول ابنِ هشام: إنَّ فوات معنى الأمريَّة عند التقدير بالمصدر كفوات المضيِّ والاستقبال. . إلخ، فكأنَّه قيل: لا نُسلِّم أنَّ هذا الفوات باطل، لم لا يجوز أن يكون كفوات معنى المضيِّ والاستقبال، وفوات معنى الدعاء في نحو: «أنْ غَضِبَ»، وقد أجمعوا أنَّ ذلك ليس

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢٤٨.

(٢) في الحاشية: لأنه مفهوم منه.

بباطل؛ لأنَّه فواتٌ عند الذكر بالفعل وليس بلازم، وليس بفواتٍ مطلقاً؛ لظهور أنَّ المنطوق الصريح متكفِّل به، فتدبَّر.

وقرأ ابن مسعود: «أنذر» بغير «أن»[١] على إرادة القول، أي: قائلين: أنذر.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾ عاجل، وهو ما حلَّ بهم من الطوفان، كما قال الكلبيُّ، أو: آجل، وهو عذاب النار، كما قال ابن عباس، والمراد: أَنذرهم مِن قَبْل ذلك؛ لئلا يبقى لهم عذرٌ ما أصلاً.

﴿قَالَ﴾ استئناف بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فما فَعَلَ عليه الصلاة والسلام بعد هذا الإرسال؟ فقيل: قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ منذِر موضِح لحقيقة الأمر، واللام في «لكم» للتقوية أو للتعليل، أي: لأجل نفعكم من غير أن أسألكم أجراً.

وقوله تعالى ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ متعلِّق بـ «نذير» على مصدريَّة «أنْ» وتفسيريتها، ومرَّ نظيره في «الشعراء»[٢].

وقوله سبحانه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ مجزوم في جواب الأمر، واختُلف في «من» فقيل: ابتدائيَّة، وإن لم تصلح هنا لمقارنة «إلى»، وابتداءُ الفعل من جانبه تعالى على معنى أنَّه سبحانه يبتدئهم بعد إيمانهم بمغفرة ذنوبهم إحساناً منه عزَّ وجلَّ وتفضُّلاً، وجوِّز أن يكون مِن جانبهم على معنى: أوَّل ما يحصل لهم بسبب إيمانهم مغفرةُ ذنوبهم، وليس بذاك.

وقيل: بيانيَّة، ورجوعها إلى معنى الابتدائيَّة استبعده الرضيُّ، ويقدَّر قبلها مبهم يفسَّر بمدخولها، أي: يغفر لكم أفعالكم التي هي الذنوب.

وقيل: زائدة على رأي الأخفش المجوِّز لزيادتها مطلقاً، وجزم بذلك هنا.

وقيل: تبعيضيَّة، أي: يغفر لكم بعضَ ذنوبكم. واختاره بعض.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٨٧، وتفسير الطبري ٢٣/ ٢٨٨، والكشاف ٤/ ١٦١.
(٢) عند قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨﴾ [الآية: ١٠٨].

واختُلف في البعض المغفور؛ فذهب قوم إلى أنَّه حقوق الله تعالى فقط السابقة على الإيمان، وآخرون إلى أنَّه ما اقترفوه قَبْلَ الإيمان مطلقاً؛ لظاهر ما ورد مِن أنَّ الإيمان يَجُبُّ ما قَبْلَه، واستشكل ذلك العزُّ بنُ عبد السلام في «الفوائد المنتشرة» وأجاب عنه. فقال: كيف يصحُّ هذا على رأي سيبويه الذي لا يرى كالأخفش زيادتها في الموجب، بل يقول: إنَّها للتبعيض، مع أنَّ الإسلام يَجُبُّ ما قَبْلَه بحيث لا يبقى منه شيء؟ والجواب: إنَّ إضافة الذنوب إليهم إنَّما تصدق حقيقةً فيما وقع، إذ ما لم يقع لا يكون ذنباً لهم، وإضافة ما لم يقع على طريق التجوُّز كما في: ﴿وَاحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] إذ المراد بها الأيمان المستقبَلَة، وإذا كانت الإضافة، تارة تكون حقيقة، وتارة تكون مجازاً، فسيبويه يجمع بين الحقيقة والمجاز فيها، وهو جائز، يعني عند أصحابه الشافعيَّة، ويكون المراد مِن بعض ذنوبكم البعضَ الذي وقع. انتهى.

ولا يَحتاج إلى حديث الجمع مَن خَصَّ الذنوبَ المغفورة بحقوق الله عزَّ وجلَّ، وهاهنا بحث وهو أن الحمل على التبعيض يأباه ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] وقد نصَّ البعليُّ(١) في «شرح الجمل» على أنَّ ذلك هو الذي دعا الأخفش للجزم بالزيادة هنا، وجعله ابنُ الحاجب حجَّة له، وردَّه بعض الأجلَّة بأنَّ الموجبة الجزئيَّة من لوازم الموجبة الكليَّة، ولا تناقضَ بين اللازم والملزوم، ومبناه الغفلةُ عن كون مدلول «مِن» التبعيضيَّة هي البعضيَّة المجرَّدة عن الكليَّة المنافية لها لا الشاملة لِمَا في ضمنها المجتمعة معها، وإلَّا لَمَا تحقَّق الفرق بينها وبين «مِن» البيانيَّة من جهة الحكم، ولَمَا تيسَّر تمشية الخلاف بين الإمام أبي حنيفة وصاحبيه فيما إذا قال: طلِّقي نفسَك مِن ثلاثٍ ما شئتِ. بناءً على أنَّ «من» للتبعيض عنده، وللبيان عندهما، قال في «الهداية»: وإن قال لها: طلِّقي نفسَك مِن ثلاثٍ ما شئتِ. فلها أن تطلِّق نفسَها واحدة أو ثنتين، ولا تَطلُق ثلاثاً

(١) شمس الدين، أبو عبد الله، محمد بن أبي الفتح الحنبلي، شارح كتاب «الجمل في النحو» لعبد القاهر الجرجاني، وصاحب «المطلع على أبواب المقنع»، توفي سنة (٧٠٩هـ). كشف الظنون ١/ ٥٩٩، والأعلام ٣٢٦.

عند أبي حنيفة، وقالا: تَطلُق ثلاثاً إن شاءت؛ لأنَّ كلمة «ما» محكمةٌ في التعميم، وكلمة «من» قد تستعمل للتمييز، فتحمل على تمييز الجنس، ولأبي حنيفة أنَّ كلمة «من» حقيقة في التبعيض و«ما» للتعميم، فيُعمل بهما[1]. انتهى. ولا خفاءَ في أنَّ بناء الجواب المذكور على كون «من» للتبعيض إنَّما يصحُّ إذا كان مدلولها حينئذٍ البعضيَّةَ المجردة المنافية للكليَّة، ومن هنا تعجب مِن صاحب «التوضيح» في تقرير الخلاف المذكور حيث استدلَّ على أولويَّة التبعيض بتيقُّنه، ولم يَدْرِ أنَّ البعض المراد قطعاً على تقدير البيان البعضُ العامُّ الشاملُ لِمَا في ضمن الكُلِّ، لا البعضُ المجرَّد المراد هاهنا، فبالتعليل على الوجه المذكور لا يتمُّ التقريب، بل لا انطباقَ بين التعليل والمعلّل على ما قيل، وصوّب العلَّامة التفتازانيّ حيث قال فيما علَّقه على «التلويح» مستدلًّا على أن البعضيَّة التي تدلُّ عليها «من» التبعيضيَّة هي البعضيَّة المجرَّدة المنافية للكليَّة لا البعضيَّة التي هي أعمُّ من أن تكون في ضمن الكُلِّ أو بدونه: لاتِّفاق النحاة على ذلك حيث احتاجوا إلى التوفيق بين قوله تعالى: (يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ فقالوا: لا يبعد أن يغفر سبحانه الذنوبَ لقومٍ وبعضَها لآخرين، أو خطاب البعض لقومِ نوح عليه السلام، وخطاب الكُلِّ لهذه الأمَّة، ولم يذهب أحد إلى أنَّ التبعيضَ لا ينافي الكليَّة. ولم يصوّب الشريف في ردِّه عليه قائلاً: وفيه بحثٌ؛ إذ الرضيُّ صرَّح بعدم المنافاة بينهما حيث قال: ولو كان أيضاً خطاباً لأمَّة واحدة، فغفرانُ بعضِ الذنوب لا يناقض غفرانَ كلِّها بل عدم غفران بعضها يناقض غفرانَ كلِّها = لأنَّ قول الرضيِّ غيرُ مرتضًى؛ لِمَا عرفْتَ مِن أنَّ مدلول التبعيضيَّة البعضيَّةُ المجرَّدة.

واعترض قول النحاة: أو خطاب البعض لقوم نوح عليه السلام وخطاب الكُلِّ لهذه الأمَّة = بأنَّ الإخبار عن مغفرة البعض ورد في مواضع، منها قوله تعالى في سورة «إبراهيم»: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الآية: ١٠] ومنها في سورة «الأحقاف»: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الآية: ٣١] ومنها ما هنا وهو الذي ورد في قوم نوح عليه السلام، وأما ما ذكر في «الأحقاف»

(١) الهداية (مع فتح القدير) ٣/ ١٢٤-١٢٥.

فقد ورد في الجِنِّ، وما ورد في «إبراهيم» فقد ورد في قوم نوح وعاد وثمود على ما أفصح به السياق، فكيف يصحُّ ما ذكروه؟

وقيل: جيء بـ «من» في خطاب الكفرة دون المؤمنين في جميع القرآن؛ تفرقةً بين الخطابين. ووجِّه بأنَّ المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفَّار مرتَّبةٌ على الإيمان، وحيث جاءت في خطاب المؤمنين مشفوعةٌ بالطاعة والتجنُّب عن المعاصي ونحو ذلك، فتتناول الخروج عن المظالم.

واعترض بأنَّ التفرقةَ المذكورة إنَّما تتمُّ لو لم يجئ الخطاب للكفرة على العموم، وقد جاءت كذلك كما في سورة الأنفال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الآية: ٣٨]. وقد أسلفنا ما يتعلَّق بهذا المقام أيضاً، فتذكَّر وتأمَّل.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الأمد الأقصى الذي قدَّره الله تعالى بشرط الإيمان والطاعة، وراءَ ما قدَّره عزَّ وجلَّ لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان، فإنَّ وصف الأجل بالمسمَّى وتعليق تأخيرهم إليه بالإيمان والطاعة صريح في أنَّ لهم أجلاً آخر لا يجاوزونه إن لم يؤمنوا، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما قدَّره عزَّ وجلَّ لكم على تقدير بقائكم على ما أنتم عليه ﴿إِذَا جَآءَ﴾ وأنتم على ما أنتم ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ فبادِروا إلى الإيمان والطاعة قبل مجيئه حتى لا يتحقَّق شرطه الذي هو بقاؤكم على الكفر والعصيان، فلا يجيء ويتحقَّق شرط التأخير إلى الأجل المسمَّى فتؤخَّروا إليه. وجوِّز أن يُراد به وقتُ إتيان العذاب المذكور في قوله سبحانه: (مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) فإنَّه أجل مؤقَّت له حتماً. وأيًّاما كان لا تناقضَ بين «يؤخركم» و«إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر» كما يتوهَّم.

وقال الزمخشري[1] في ذلك ما حاصله: إنَّ الأجل أجلان، و«أجل الله» حُكْمُه حكمُ المعهود، والمراد منه الأجل المسمَّى الذي هو آخِر الآجال، والجملة عنده

(١) ينظر الكشاف ٤/ ١٦١، وحاشية الشهاب ٨/ ٢٤٩.

تعليلٌ لِمَا فُهم من تعليقه سبحانه التأخير بالأجل المسمَّى وهو عدم تجاوز التأخير عنه. والأول هو المعوَّل عليه، فإنَّ الظاهر أنَّ الجملة تعليلٌ للأمر بالعبادة المستتبعة للمغفرة والتأخيرِ إلى الأجل المسمَّى، فلا بُدَّ أن يكون المنفي عند مجيء الأجل هو التأخير الموعود، فكيف يتصوَّر أن يكون ما فرِض مجيئه هو الأجل المسمَّى الذي هو آخِر الآجال؟

﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ أي: لو كنتم من أهل العلم لسارعتم لما آمركم به، لكنَّكم لستم مِن أهله في شيء، فلذا لم تُسارعوا، فجواب «لو» مما يتعلَّق بأوَّل الكلام، ويجوز أن يكون مما يتعلَّق بآخِره، أي: لو كنتم مِن أهل العلم لعلمتم ذلك، أي: عدم تأخير الأجل إذا جاء وقتُه المقدَّر له، والفعل في الوجهين منزَّل منزلةَ اللازم، ويجوز أن يكون محذوفاً؛ لقصد التعميم، أي: لو كنتم تعلمون شيئاً، ورجِّح الأوَّل بعدم احتياجه للتقدير. والجمعُ بين صيغتي الماضي والمضارع؛ للدلالة على استمرار النفي المفهوم مِن «لو»، وجعل العِلْم المنفي هو العلم النظري لا الضروري ولا ما يعمّه فإنَّه مما لا ينفى، اللَّهمَّ إلا على سبيل المبالغةِ.

﴿قَالَ﴾ أي: نوح عليه السلام مناجياً ربَّه عزَّ وجلَّ وحاكياً له سبحانه بقصد الشكوى ـ وهو سبحانه أعلم بحاله ـ ما جرى بينه وبين قومه مِن القيل والقال في تلك المدد الطوال بعد ما بذل في الدعوة غايةَ المجهود، وجاز في الإنذار كلَّ حدٍّ معهود، وضاقت عليه الحيل وعيَّت به العلل: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِى﴾ إلى الإيمان والطاعة ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾﴾ أي: دائماً من غير فتور ولا توانٍ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ مما دعوتهم إليه، وإسناد الزيادة إلى الدعاء مِن باب الإسناد إلى السبب على حدِّ الإسناد في: سرَّتني رؤيتُك.

و«فراراً»، قيل: تمييز، وقيل: مفعول ثانٍ، بناءً على تعدِّي الزيادة والنقص إلى مفعولين، وقد قيل: إنَّه لم يثبت وإن ذكره بعضهم.

وفي الآية مبالغات بليغة، وكان الأصل: فلم يجيبوني، ونحوه، فعبَّر عن ذلك بزيادة الفرار المستندة للدعاء، وأوقعت عليهم مع الإتيان بالنفي والإثبات.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ أي: إلى الإيمان، فمتعلَّق الفعل محذوف، وجوّز جعله منزّلاً منزلة اللازم، والجملة عطف على ما قبلها، وليس ذلك من عطف المفصَّل على المجمل كما توهّم حتى يقال: إنَّ الواو من الحكاية لا من المحكي.

﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: بسبب الإيمان ﴿جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: سدُّوا مسامعهم عن استماع الدعوة، فهو كناية عمَّا ذكر، ولا منعَ من الحمل على الحقيقة، وفي نسبة الجعل إلى الأصابع وهو منسوبٌ إلى بعضها وإيثارِ الجعل على الإدخال ما لا يخفى ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: بالغوا في التغطّي بها كأنَّهم طلبوا من ثيابهم أن تغشاهم؛ لئلَّا يَرَوْه، كراهةَ النظر إليه مِن فَرط كراهة الدعوة، ففي التعبير بصيغة الاستفعال ما لا يخفى مِن المبالغة، وكذا في تعميم آلة الإبصار وغيرها مِن البدن بالستر مبالغة في إظهار الكراهة، ففي الآية مبالغة بحسب الكيف والكمِّ.

وقيل: بالَغُوا في ذلك؛ لئلا يعرفَهم عليه السلام فيدعوهم. وفيه ضعف؛ فإنَّه قيل عليه: إنَّه يأباه ترتُّبه على قوله: «كلما دعوتهم»، اللهم إلا أن يجعل مجازاً عن إرادة الدعوة، وهو تعكيس للأمر وتخريب للنظم.

﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ أي: أكبُّوا على الكفر والمعاصي وانهمكوا وجَدُّوا فيها، مستعار من: أصرَّ الحمارُ على العانة[1]: إذا صرَّ أذنيه ـ أي: رفعهما ونصبهما مستويَيْن ـ وأقبل عليها يكدمها[2] ويطردها، وفي ذلك غاية الذمِّ لهم، وعن جارِ الله: لو لم يكن في ارتكاب المعاصي إلا التشبيه بالحمار لكفى به مزجرة، كيف والتشبيه في أسوأ أحواله وهو حال الكَدْم والسِّفاد.

وما ذكر من الاستعارة قيل: في أصل اللغة، وقد صار الإصرار حقيقة عرفيَّة في الملازمة والانهماك في الأمر. وقال الراغب: الإصرار: التعقُّد في الذَّنْب والتشدُّد فيه، والامتناع من الإقلاع عنه، وأصله مِن: الصَّرِّ، أي: الشَّدِّ[3]. ولعلَّه لا يأبى ما تقدَّم بناء على أنَّ الأصل الأوَّل الشَّدُّ، والأصل الثاني ما سمعت أوَّلاً.

(١) العانة: جماعة الحمير الوحشية. فقه اللغة للثعالبي ص٢٠٤.
(٢) الكَدْم: العضُّ بأدنى الفم. «مختار الصحاح» (كدم).
(٣) المفردات (صر).

﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ من اتِّباعي وطاعتي ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧﴾ عظيماً، وقيل: نوعاً من الاستكبار غير معهود، والاستكبار: طلب الكِبْر مِن غير استحقاق له.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩﴾ أي: دعوتهم مرَّة بعد مرَّة، وكرَّة غبَّ كرَّة، على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة، وهو تعميم لوجوه الدعوة بعد تعميم الأوقات، وقوله: «ثم إني دعوتهم جهاراً» يشعر بمسبوقيَّة الجهر بالسِّرِّ وهو الأليق بمَن همُّه الإجابة؛ لأنَّه أقرب إليها؛ لما فيه من اللطف بالمدعوِّ، فـ «ثم» لتفاوت الوجوه، وإن الجهار أشدُّ من الإسرار، والجمع بينهما أغلظ من الإفراد.

وقال بعض الأجلَّة: ليس في النظم الجليل ما يقتضي أنَّ الدعوة الأولى كانت سرًّا فقط، فكأنه أُخِذَ ذلك من المقابلة ومِن تقديم قوله: «ليلاً»، وذكرِهم بعنوان قومه، وقولِه: «فراراً» فإنَّ القرب ملائم له.

وجوّز كون «ثم» على معناها الحقيقي، وهو التراخي الزماني، لكنه باعتبار مبدأ كلٍّ من الإسرار والجِهار ومنتهاه، وباعتبار منتهى الجمع بينهما؛ لئلا ينافي عموم الأوقات السابق، ويحسن اعتبار ذلك، وإن اعتبر عمومها عرفيًّا كما في: لا يضع العصا عن عاتقه.

و«جهاراً» منصوب بـ «دَعَوْتُهم» على المصدريَّة؛ لأنَّه أحد نوعي الدعاء، كما نصب القرفصاء في: قعدتُ القرفصاءَ عليها؛ لأنَّها أحدُ أنواع القعود، أو أريد بـ «دعوتهم»: جاهرتهم. أو: صفة لمصدر محذوف، أي: دعوتهم دعاءً جِهاراً، أي: مجاهَراً ـ بفتح الهاء ـ به، أو: مصدر في موقع الحال، أي: مجاهِراً، بزنة اسم الفاعل.

﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ بالتوبة عن الكفر والمعاصي، فإنَّه سبحانه لا يغفر أن يشرك به، وقال: «ربّكم»، تحريكاً لداعي الاستغفار ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠﴾ دائم المغفرة، كثيرها للتائبين، كأنهم تعلَّلوا وقالوا: إنْ كنَّا على الحقِّ فكيف نتركه، وإن كنَّا على الباطل فكيف يَقْبلنا ويلطف بنا جلَّ وعلا بعد ما عكفنا عليه دهراً طويلاً؟! فأمرهم بما يَمحقُ ما سلف منهم مِن المعاصي ويجلب إليهم المنافع، ولذلك

وعدهم على الاستغفار بأمور هي أحبُّ إليهم وأوقع في قلوبهم من الأمور الأخروية، أعني ما تضمَّنه: «يرسل السماء» إلخ، وأَحبِّيتُهم لذلك؛ لِمَا جبلوا عليه من محبَّة الأمور الدنيويَّة:

والنفسُ مولعةٌ بحبِّ العاجلِ[1]

قال قتادة: كانوا أهلَ حبٍّ للدنيا، فاستدعاهم إلى الآخرة مِن الطريق التي يحبُّونها. وقيل: لمَّا كذَّبوه عليه الصلاة والسلام بعد تكرير الدعوة حبس الله تعالى عنهم القَطْر، وأعقمَ أرحام نسائهم أربعين سنة، وقيل: سبعين سنة، فوعدهم أنهم إن آمنوا يرزقهم الله تعالى الخِصْبَ، ويدفع عنهم ما هم فيه، وهو قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ أي: كثير الدُّرُور، أي: السيلان، و«السماء»: السحاب أو المطر، ومن إطلاقها على المطر وكذا على النبات أيضاً قولُه:

إذا نزل السماءُ بأرض قومٍ رعيناه وإن كانوا غضاباً[2]

وجوِّز أن يراد بها المُظِلَّة على ما سمعت غيرَ مرَّة، وهي تذكَّر وتؤنَّث، ولا يأبى تأنيثها وصفها بـ «مدراراً»، وأنَّ صيغ المبالغة كلَّها ـ كما صرَّح به سيبويه ـ يشترك فيها المذكَّر والمؤنَّث. وفي «البحر»[3]: إنَّ مفعالاً لا تلحقه التاء إلا نادراً.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ﴾ أي: بساتين ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ فيها أو مطلقاً ﴿أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾ جارية، وأعاد فِعْلَ الجعل دون أن يقول: يجعل لكم جنات وأنهاراً؛ لتغايرهما، فإنَّ الأوَّل ممَّا لفعلهم مدخل فيه بخلاف الثاني، ولذا قال: «يمددكم بأموال وبنين» ولم يُعِدِ العامل، كذا قيل، وهو كما ترى.

ولعلَّ الأولى أن يقال: إنَّ الإعادة للاعتناء بأمر الأنهار، لِمَا أنَّ لها مدخلاً عاديّاً أكثريّاً في وجود الجنَّات وفي بقائها مع منافعَ أُخَرَ لا تخفى، ورعاية لمدخليتها في بقائها الذي هو أهمُّ مِن أصل وجودها مع قوَّة هذه المدخليَّة أُخِّرت

(١) عجز بيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٧٣٧، وصدره:
إنــي لآمــل مــنــك خــيــراً عــاجــلاً
(٢) سلف ١١/ ٥٠٨.
(٣) ٨/ ٣٣٩.

عنها، وأن ترك إعادة العامل مع البنين؛ لأنَّه الأصل، أو لأنه لمَّا كان الإمداد أكثرَ ما جاء في المحبوب، ولا تكمل محبوبيَّة كلٍّ من الأموال والبنين بدون الآخر، ترك إعادة العامل بينهما؛ للإشارة إلى أنَّ التفضُّل بكلٍّ غير منغِّص بفقد الآخر، وتأخير البنين، قيل: لأنَّ بقاء الأموال غالباً بهم لا سيما عند أهل البادية، مع رمز إلى أنَّ الأموال تصل إليهم آخِرَ الأمر، وهو مما يسرُّ المتموِّل كما لا يخفى، فتأمَّل.

وقال البقاعيُّ: المراد بالجنَّات والأنهار ما في الآخرة[1]. والجمهور على الأوَّل.

وروي عن الربيع بنِ صبيح أنَّ رجلاً أتى الحسن وشكا إليه الجَدْبَ، فقال له: استغفر الله تعالى. وأتاه آخر فشكا إليه الفقرَ، فقال له: استغفرِ الله تعالى. وأتاه آخر، فقال: ادع الله سبحانه أن يرزقني ابناً. فقال له: استغفر الله تعالى. وأتاه آخر فشكا إليه جفافَ بساتينه، فقال له: استغفر الله تعالى. فقلنا: أتاك رجال يشكونَ ألواناً ويسألون أنواعاً، فأمرتهم كلَّهم بالاستغفار؟ فقال: ما قلتُ مِن نفسي شيئاً إنَّما اعتبرتُ قولَ الله عزَّ وجلَّ حكايةً عن نبيِّه نوح عليه الصلاة والسلام أنَّه قال لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ الآية.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ إنكار لأن يكون لهم سببٌ مّا في عدم رجائهم لله تعالى وقاراً، على أنَّ الرجاء بمعنى الخوف، كما أخرجه الطستي عن ابنِ عباس مجيباً به سؤالَ نافع بنِ الأزرق منشداً قولَ أبي ذؤيب:

إذا لَسَعتْه النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَها وحالفها في بيتِ نُوْب عواسِلِ[2]

أو على أنَّه بمعنى الاعتقاد، كما أخرجه عنه ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ وجماعة[3]، وعبَّر به بالرجاء التابع لأدنى الظَّنِّ مبالغةً، و«لا ترجون» حال من ضمير المخاطبين، والعامل فيها معنى الاستقرار في «لكم» على أنَّ الإنكار متوجِّه

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥١، وفي نظم الدرر للبقاعي ٢٠/ ٤٣٨. «ويجعل لكم» أي: في الدارين.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٦٨، والبيت سلف ١١/ ٣٨.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٦٨، والعظمة لأبي الشيخ (٧٥)، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٣/ ٢٩٥.

إلى السبب فقط مع تحقُّق مضمون الجملة الحاليَّة، لا إليهما معاً، و«لله» متعلِّق بمضمر وقع حالاً من «وقاراً»، ولو تأخَّر لكان صفة له.

والوقار كما رواه جماعة عن الحبر بمعنى العظمة؛ لأنَّه على ما نقل الخفاجيُّ عن «الانتصاف»[1] وَرَدَ في صفاته تعالى بهذا المعنى ابتداءً، أو لأنَّه بمعنى التؤدة، لكنها غيرُ مناسبة له سبحانه فأطلقت باعتبار غايتها وما يتسبَّب عنها من العظمة في نفس الأمر، أو في نفوس الناس، أي: أيّ سبب حصل لكم حالَ كونكم غير خائفين أو غير معتقدين لله تعالى عظمةً موجبة لتعظيمه سبحانه بالإيمان به جلَّ شأنه والطاعة له تعالى ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ أي: والحال أنَّكم على حال منافية لما أنتم عليه بالكليَّة وهو أنَّكم تعلمون أنَّه عزَّ وجلَّ خلقكم مدرجاً لكم في حالات: عناصر ثم أغذية ثم أخلاطاً ثم نُطَفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم خَلْقاً آخر، فإنَّ التقصير في توقير مَن هذا شأنه في القدرة القاهرة والإحسان التامِّ مع العلم بذلك مما لا يكاد يصدر عن العاقل، فالجملة حال من فاعل «لا ترجون» مقرِّرة للإنكار، والأطوار: الأحوال المختلفة، وأنشدوا قوله:

فإن أفاقَ فقد طارت عَمايَتُه والمرء يُخْلَقُ طوراً بعد أطوار[2]

وحَمْلُها على ما سمعت من الأحوال مما ذهب إليه جمع، وعن ابنِ عباس ومجاهد ما يقتضيه، وإن اقتصرا على ذكر النطفة والعَلَقة والمضغة، وقيل: المراد بها الأحوال المختلفة بعد الولادة إلى الموت من الصِّبا والشباب والكهولة والشيوخة والقوَّة والضعف. وقيل: من الألوان والهيئات والأخلاق والمِلل المختلفة. وقيل: من الصِّحَّة والسقم، وكمال الأعضاء ونقصانها، والغنى والفقر، ونحوها.

هذا، وقيل: الرجاء بمعنى الأمل كما هو الأصل المعروف فيه، والوقار بمعنى التوقير كالسلام بمعنى التسليم، وأريد به التعظيم، و«لله» بيان للموقَّر المعظَّم، فهو خبر مبتدأ محذوف، أي: إرادتي لله، أو متعلِّق بمحذوف يفسِّره المذكور، أي:

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥١، والانتصاف ٤/ ١٦٣.
(٢) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٤٩، والعَماية: الضلالة.

وقاراً لله، ولم يعلّق بالمذكور بناء على ما صحّح ـ على ما فيه ـ من أنَّ معمولَ المصدر مطلقاً لا يتقدَّم عليه، ولو تأخَّر لكان صلة له، على ما في «الكشاف»[(١)] وفيه: أنَّ المعنى: ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيمَ الله تعالى إياكم في دار الثواب. وحاصله: ما لكم لا ترجون أن تُوقَّروا وتُعظَّموا، على البناء للمفعول، فكأنه قيل: لِمَن التوقير؟ أي: مَن الذي يعظِّمنا ويختصّ به إعظامه إيَّانا؟ فقيل: لله، وفسَّره بقوله: على حال.. إلخ، إشارة إلى أنَّه ينعي عليهم اغترارَهم، كأنَّه قيل: ما لكم مغترِّين غير راجين. وجعل الحثّ على الرجاء كناية عن الحثّ على الإيمان والعمل الصالح؛ لاقتضائه انعقاد الأسباب، بخلاف الغرور، وهي كناية إيمائيَّة إذ لا واسطة، ولو جعلت رمزيَّة ـ لخفاء الفَرْق بين الرجاء والغرور على الأكثر ـ لكان وجهاً، قاله في «الكشف».

وتعقَّب ذلك مفتي الديار الروميَّة ـ عليه الرحمة ـ بأنَّ عدم رجاء الكفرة لتعظيم الله تعالى إياهم في دار الثواب ليس في حيِّز الاستبعاد والإنكار، مع أنَّ في جعل الوقار بمعنى التوقير من التعسُّف، وفي جعل «لله» بياناً للموقّر ودعوى أنَّه لو تأخَّر لكان صلة للوقار من التناقض ما لا يخفى، فإنَّ كونه بياناً للموقّر يقتضي أن يكون التوقير صادراً عنه تعالى، والوقار وصفاً للمخاطبين، وكونه صلة للوقار يوجب كون التوقير صادراً عنهم والوقار وصفاً له عزَّ وجلَّ[(٢)]. انتهى.

وأجيب عن أمر التناقض بأنَّك إذا قلت: ضَرْبٌ لزيد، جاز أن يكون زيد فاعلاً وأن يكون مفعولاً، وكفى شاهداً صحَّة الإضافتين، فعند التأخُّر يحتمل أن يكون الوقار بمعنى التوقير صادراً منه تعالى، فيكون الوقار وصفاً للمخاطبين، ويحتمل أن يكون متعلِّقاً به فيكون التوقير صادراً عنهم والوقار وصفاً له تعالى، غاية ما في الباب أنَّه لما قدَّم «لله» وامتنع تعلُّقه بالمصدر المتأخِّر صار بياناً، وعيَّنت القرينة إرادة صدور التوقير عنه عزَّ وجلَّ، وأين هذا من التناقض؟ نعم يبقى الكلام في القرينة، ولعلَّها السياق بناء على أنَّ القوم استبعدوا أن يُقبلوا ويَلطف الله تعالى بهم

(١) ٤/ ١٦٣.
(٢) تفسير أبي السعود ٩/ ٣٨-٣٩.

إن هم تركوا باطلهم، فيكون هذا من تتمَّة إزالة الشبهة فيما سمعت مِن قولهم: كيف يَقبلُنا ويلطف بنا.. إلخ، ويعلم مِن هذا الجوابُ عن قوله: إنَّ عدم رجاء الكفرة لتعظيم الله تعالى ليس في حَيِّز الاستبعاد، كما لا يخفى، وعليه قيل: يكون قوله تعالى: «وقد خلقكم» إلى قوله سبحانه: «فجاجاً» للدلالة على أنَّه جلَّ شانه لا يزال ينعم عليكم مع كفركم فكيف لا يلطف بكم ويوقِّركم إذا آمنتم، وتفسَّر الأطوار بما يعتري الإنسان في أسنانه من الأمور المختلفة كالصبا والشباب والكهولة وغيرها مما يكون بعضه في حال الكفر ويصلح لأن يمتنّ به، ويُلتزم كون الإعادة في الأرض من النِّعَم عندهم بناء على أنَّ فيها سترَ فظاعة الأبدان على أسهل وجه بعد حلول الموت الضروري في هذه النشأة.

والإنصاف بعد هذا كلِّه ـ تمَّ أم لم يتمَّ ـ أنَّ الوجه المذكور متكلَّف بعيدٌ عن الظاهر بمراحل.

وقيل: المعنى: ما لكم لا تخافون لله تعالى حِلْماً وتَرْكَ معاجَلةٍ بالعقاب فتؤمنوا، فالرجاء بمعنى الخوف، والوقار بمعنى الحلم، حقيقةٌ كما هو ظاهر كلام الراغب(1)، أو استعارة له؛ لاشتراكهما في التأنِّي، أو مجاز إذ لا يتخلَّف الحلم عن الوقار عادةً، وفي رواية عن ابن عباس تفسيره بالعاقبة حيث قال: أي: لا تخافون لله عاقبة، وهو من الكناية حينئذٍ أخذاً من الوقار بمعنى الثبات، وعن مجاهد والضحَّاك أنَّ المعنى: ما لكم لا تبالون لله تعالى عظمة. قال قطرب: هذه لغة أهل الحجاز وهذيل وخزاعة ومضر، يقولون: لم أَرْجِ، أي: لم أُبالِ. وأَظْهَرُ المعاني ما ذكرناه أوَّلاً.

ولمَّا ذكر من آيات الأنفس ما ذكر أتبعه بشيء من آيات الآفاق، ولبُعد أحد الأمرين عن الآخر رتبةً لم يأتِ بالعطف، بل قطع فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ أي: متطابقةً بعضُها فوق بعض، وتفسير التطابق بالتوافق في الحسن والاشتمال على الحِكَم وجودة الصنع ما تَرى في خَلْق الرحمن مِن تفاوتٍ عدولٌ عن الظاهر الذي تطابقت عليه الأخبار مِن غير داعٍ إليه.

---

(1) المفردات (وقر).

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ منوِّراً لوجه الأرض في ظلمة الليل، وجعله فيهنَّ مع أنَّه في إحداهنَّ وهي السماء الدنيا، كما يقال: زيد في بغداد، وهو في بقعة منها، والمرجِّح له الإيجاز والملابسة بالكليَّة والجزئيَّة، وكونها طباقاً شفافةً.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ يزيل ظلمةَ الليل، ويبصر أهلُ الدنيا في ضوئها وجهَ الأرض ويشاهدون الآفاق كما يبصر أهلُ البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره، وتنوينُه للتعظيم، وفي الكلام تشبيه بليغ، ولكون السراج أعرف وأقرب جعل مشبَّهاً به، ولاعتبار التعدِّي إلى الغير في مفهومه بخلاف النور كان أبلغَ منه، ولعلَّ في تشبيهها بالسراج القائم ضياؤه به[1] لا بطريق الانعكاس رمزاً إلى أنَّ ضياءَها ليس منعكساً إليها مِن كوكب آخر، كما أنَّ نور القمر منعكس عليه من الشمس؛ لاختلاف تشكُّلاته بالقُرب والبُعد منها، مع خسوفه بحيلولة الأرض بينه وبينها، وجزم أهل الهيئة القديمة بذلك، وفي رواية ـ لا أظنُّها تصحُّ ـ أنَّ ضياء الشمس مفاضٌ عليها من العرش، وأظنُّ أنَّ مَن يقول: إنَّها تدور على كوكب آخر ـ مِن أهل الهيئة الجديدة ـ يقول باستفادتها النورَ مِن غيرها.

ثم الظاهر أنَّ المراد: وجَعَل الشمس فيهنَّ، فقيل: هي في السماء الدنيا في فلك في ثخنها، وقيل: في السماء الرابعة، وهو المشهور عند متقدِّمي أهل الهيئة، واستدلُّوا عليه بما هو مذكور في كتبهم، وفي «البحر»[2] حكاية قول: إنَّها في الخامسة، ولا يكادُ يصحُّ. ومما يُضحِك الصبيان فضلاً عن فحول ذوي العرفان ما حكي فيه أيضاً أنَّها في الشتاء في الرابعة، وفي الصيف في السابعة.

وذهب متأخِّرو أهل الهيئة إلى أنَّها مركز للسيارات وعدُّوا الأرضَ منها، ولم يعدُّوا القمرَ؛ لدورانه على الأرض، وهو بينها وبين الشمس عندهم، وسنعمل إن شاء الله تعالى رسالةً في تحقيق الحقِّ، والحقُّ عند ذَوِيه أظهر من الشمس.

---

(١) قوله: به، ساقط من (م).

(٢) ٨/ ٣٤٠.

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ أي: أنشأكم منها، فاستُعير الإنبات للإنشاء؛ لكونه أدلَّ على الحدوث والتكوُّن مِن الأرض، لكونه محسوساً وقد تكرَّر إحساسه، وهم وإن لم ينكروا الحدوثَ جُعلوا بإنكار البعث كمَن أنكره، ففي الكلام استعارة مصرّحة تبعيَّة.

و«من» ابتدائيَّة داخلة على المبدأ البعيد، و«نباتاً» قال أبو حيان[1] وجماعة: مصدر مؤكِّد لـ «أنبتكم» بحذف الزوائد، والأصل إنباتاً، أو نصب بإضمار فعل، أي: فنبتُّم نباتاً، وفي «الكشف»: إنَّ الإنبات والنبات من الفعل والانفعال، وهما واحد في الحقيقة، والاختلاف بالنسبة إلى القيام بالفاعل والقابل، فلا حاجةَ إلى تضمين فعل آخر ولا تقديره، ثم إنَّ الإنبات إنْ حُمل على معناه الوضعي فلا احتياج إلى التقدير، إذ هو في نفسه متضمِّن للنبات، كما أشرنا إليه، فيكون «نباتاً» نصباً بـ «أنبتكم» لهذا التضمُّن، وإن حُمل على المتعارف مِن إطلاقه على مقدَّمة الإنبات من إخفاء الحَبِّ في الأرض مثلاً، فالوجه الحمل على أنَّ المراد: أنبتكم فنبتم نباتاً؛ ليكون فيه إشعار بنحو النكتة التي جرت في قوله تعالى: ﴿فَانبَجَسَتْ﴾ [الأعراف: ١٦٠] من الدلالة على القدرة وسرعة نفاذِ حكمها.

وجوّز أن يكون الأصل: أنبتكم من الأرض إنباتاً، فنبتُّم نباتاً، فحذف من الجملة الأولى المصدر ومن الثانية الفعل؛ اكتفاءً بما ذكر في الأخرى، على أنَّه مِن الاحتباك، وقال القاضي: اختُصِرَ اكتفاءً بالدلالة الالتزامية. وفيه على ما قال الخفاجيُّ الإشعار المذكور[2]، فتأمَّل.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الأرض بالدَّفْن عند موتكم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عند البعث والحشر ﴿إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ محقَّقاً لا ريبَ فيه، وعطف «يعيدكم» بـ «ثم» لما بين الإنشاء والإعادة من الزمان المتراخي الواقع فيه التكليف الذي به استحقُّوا الجزاءَ بعد الإعادة، وعطف «يخرجكم» بالواو دون «ثم» مع أنَّ الإخراج كذلك؛ لأنَّ أحوال البرزخ والآخرة في حكم شيء واحد، فكأنه قضية واحدة ولا يجوز أن

---

(١) البحر ٨/ ٣٤٠.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥٢، وبهامشه تفسير القاضي البيضاوي.

يكون بعضها محقَّقَ الوقوع دون بعض، بل لا بُدَّ أن تقع الجملة لا محالةَ وإن تأخَّرت عن الإبداء.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾ تتقلَّبون عليها كالبساط، وليس فيه دلالة على أنَّ الأرضَ مبسوطةٌ غيرُ كريَّة كما في «البحر»[1] وغيره؛ لأنَّ الكرة العظيمةَ يَرى كلُّ مَن عليها ما يليه مسطَّحاً. ثم إنَّ اعتقاد الكريَّة أو عدمها ليس بأمر لازم في الشريعة، لكنَّ كريتها كالأمر اليقيني وإن لم تكن حقيقية، ووجه توسيط «لكم» بين الجعل ومفعوله الصريح يُعلم ممَّا مرَّ غيرَ مرَّة..

﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا﴾ طرقاً ﴿فِجَاجًا ۝٢٠﴾ واسعات، جمع: فجٌّ، فهو صفة مشبَّهة نعت لـ «سبلاً»، وقال غير واحد: هو اسم للطريق الواسعة. وقيل: اسم للمسلَك بين الجبلين، فيكون بدلاً أو عطفَ بيان. و«من» متعلِّقة بما قبلها لتضمُّنه معنى الاتِّخاذ، وإلا فهو يتعدَّى بـ «في»، أو بمضمر هو حال من سبلاً، أي: سبلاً كائنة مِن الأرض، ولو تأخَّر لكان صفة لها.

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ أعيد لفظ الحكاية لطول العهد بحكاية مناجاته لربِّه عزَّ وجلَّ، أي: قال عليه السلام مناجياً له تعالى شاكياً إليه عزَّ وجلَّ: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ أي: داموا على عصياني فيما أَمرتهم به مع ما بالغت في إرشادهم بالعظة والتذكير ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١﴾ أي: واستمرُّوا على اتِّباع رؤسائهم الذين أَبطرتهم أموالهم وغرَّتهم أولادهم، وصار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة، فصاروا أُسوةً لهم في الخسار، والظاهر أنَّ اتِّباع عامَّتهم وسفلتهم لأولئك الرؤساء وفي وصفهم بذلك إشعار بأنَّهم اتَّبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد، لا لِمَا شاهدوا فيهم مِن شبهة مصحِّحَة للاتِّباع في الجملة.

وقرأ ابن الزبير والحسن والنخعي والأعرج ومجاهد والأخوان وابن كثير وأبو عمرو ونافع في رواية خارجة عنه: «وَوُلْدُهُ» بضمِّ الواو وسكون اللام[2]،

---

(١) ٨/ ٣٤٠.

(٢) التيسير ص٢١٥، والنشر ٢/ ٣٩١ عن الأخوين وابن كثير وأبي عمرو، والكلام من البحر ٨/ ٣٤١، وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٥.

فقيل: هو مفردٌ لغةٌ في وَلَد ـ بفتحهما ـ كالحَزَن والحُزْن، وقيل: جمع له كالأَسَد والأُسْد. وفي «القاموس»[1]: الوَلَد محرَّكة، وبالضمِّ والكسر والفتح: واحدٌ وجمعٌ، وقد يُجمَع على أولاد ووِلْدَة وإِلْدَة ـ بكسرها ـ ووُلْد بالضمِّ. انتهى.

وقرأ بالكسر والسكون الحسن أيضاً والجحدري وقتادة وذرٌّ وطلحة وابن أبي إسحاق وأبو عمرو في رواية[2].

﴿وَمَكَرُوا﴾ عطف على صلةِ «مَن»، والجمع باعتبار معناها كما أنَّ الإفراد في الضمائر الأُوَل باعتبار لفظها، وكأنَّ فيه إشارة إلى اجتماعهم في المكر ليكون أشدَّ وأعظم. وقيل: عطف على «عَصَوْني»، والأوَّل أنسب؛ لدلالته على أنَّ المتبوعين ضَمُّوا إلى الضلال الإضلالَ، وهو الأوفق بالسياق، فإنَّ المتبادر أنَّ ما بعده من صفة الرؤساء أيضاً، واعتبارُ ذلك العطف على أنَّ المعنى: مكر بعضهم ببعض، وقال بعضهم لبعض، خلافُ المتبادر.

﴿مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: كبيراً في الغاية، فهو من صيغ المبالغة، قال عيسى بنُ عمر: هي لغة يمانية، وعليها قول الشاعر:

بيضاء تصطادُ القلوبَ وتَستبي ... بالحُسْن قَلْبَ المسلم القُرَّاءِ

وقوله:

والمرءُ يُلْحِقُه بفِتْيانِ النَّدى ... خُلُقُ الكريمِ وليس بالوُضَّاءِ[3]

---

(١) مادة (ولد).

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٢، والكشاف ٤/ ١٦٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٧٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٤١.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٤١، والبيتان من قصيدة واحدة أنشدها أبو صدقة الدُّبَيْري للفراء كما ذكر ذلك ابن السكيت في إصلاح المنطق ص١٢٣-١٢٤، وكذا عزاه لأبي صدقة الجوهريُّ في الصحاح (قرأ) و(وضأ)، والتوحيدي في البصائر والذخائر ٨/ ٦٣-٦٤ (وعبارته فيه: قال الفراء في النوادر: وأنشدني أبو صدقة الزهري لفلان)، وابن منظور في اللسان (وضأ)، والزبيدي في تاج العروس (قرأ) و(وضأ).
في حين نسبها السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٢٧٨ ليزيد بن تركي، وسماه في اللسان (قرأ): زيد بن تركي الزبيدي، وفي تاج العروس (قرأ): زيد بن ترك الدُّبَيْري، وقال: هو الصحيح. اهـ. وسماه الصغاني في العباب الزاخر (قرأ): زيد بن تركي أخو يزيد.

وقد سمع بعضُ الأعراب الجفاة رسولَ الله ﷺ يقرأ هذه الآية، فقال: ما أفصح ربَّك يا محمَّد[١]!

وإذا اعتبر التنوين في «مكراً» للتفخيم زاد أمر المبالغةِ في مكرهم، أي: كبيراً في الغاية، وذلك احتيالهم في الدين وصدُّهم للناس عنه، وإغراؤهم وتحريضهم على أذيَّة نوح عليه السلام.

وقرأ عيسى وابن محيصن وأبو السَّمَّال: «كُبَاراً» بتخفيف الباء[٢]، وهو بناءُ مبالغةٍ أيضاً إلا أنَّها دون المبالغة في المشدَّد، ومثل كُبَّار في ذلك[٣] حُسَّان وطُوَّال وعُجَّاب وجُمَّال، إلى ألفاظ كثيرة.

وقرأ زيد بن عليٍّ وابن محيصن فيما روى عنه وهب بن واضح: «كِباراً» بكسر الكاف وفتح الباء[٤]، قال ابن الأنباري: هو جمعُ كبير، كأنَّه جعل «مكراً» مكان ذنوب أو أفاعيل، يعني فلذلك وصف بالجمع.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: لا تتركوا عبادتها على الإطلاق إلى عبادة ربِّ نوح عليه السلام ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: ولا تتركوا عبادة هؤلاء، خصُّوها بالذكر مع اندراجها فيما سبق؛ لأنَّها كانت أكبرَ أصنامهم ومعبوداتهم الباطلة وأعظمَها عندهم، وإن كانت متفاوتةً في العِظَم فيما بينها بزعمهم، كما يُومئ إليه إعادة «لا» مع بعضٍ وتَرْكُها مع آخر.

وقيل: أفرد يَعُوق ونَسْر عن النفي؛ لكثرة تكرار «لا» وعدم اللبس.

وقد انتقلت هذه الأصنام إلى العرب؛ أخرج البخاريُّ وابنُ المنذر وابنُ مردويه عن ابنِ عباس قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح عليه السلام في العرب بَعْدُ: أمَّا وَدٌّ فكانت لكلب بدومة الجَنْدل، وأمَّا سُوَاع فكانت لهذيل[٥]، وأمَّا يَغُوث

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٤١.

(٣) أي: في مجيئه بالتخفيف والتشديد.

(٤) القراءات الشاذة ص١٦٢، والبحر ٨/ ٣٤١، والكلام وما بعده منه.

(٥) في هامش الأصل: وقيل: لهمذان. انتهى منه.

فكانت لمراد[١]، ثم لبني غُطَيْف عند سبأ، وأمَّا يَعُوق فكانت لهَمْدان[٢]، وأما نَسْر فكانت لحِمْيَر لآل ذي الكَلاع، وكانت هذه الأسماءُ أسماءَ رجال صالحين مِن قوم نوح، فلمَّا هَلَكوا أوحى الشيطانُ إليهم أنِ انْصِبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبَد، حتى إذا هلك أولئك ودَرَس العِلْم عُبِدَت[٣].

وأخرج أبو الشيخ في «العظمة» عن محمد بنِ كعب القرظي أنَّه قال: كان لآدَمَ عليه السلام خمسة بنين: وَدٌّ، وسُواع.. إلخ، فكانوا عُبَّاداً، فمات رجل منهم فحزنوا عليه حزناً شديداً، فجاءهم الشيطانُ فقال: حزنتم على صاحبكم هذا؟ قالوا: نعم. قال: هل لكم أن أصوِّر لكم مِثْلَه في قِبْلَتِكم، إذا نظرتم إليه ذكرتموه؟ قالوا: [لا]، نكره أن تجعل لنا في قِبْلَتنا شيئاً نُصلِّي إليه[٤]. قال: فأجعله في مؤخَّر المسجد؟ قالوا: نعم. فصوَّره لهم حتى مات خمستُهم، فصوَّر صورهم في مؤخَّر المسجد، فنقَصت الأشياء حتى تركوا عبادةَ الله تعالى وعبدوا هؤلاء، فبعث الله تعالى نوحاً عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده وتَرْكِ عبادتها، فقالوا ما قالوا[٥].

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن عروة بنِ الزبير أنَّ وَدّاً كان أكبرَهم وأبرَّهم، وكانوا كلُّهم أبناءَ آدمَ عليه السلام[٦].

وروي أنَّ وَدّاً أوَّلُ معبود مِن دون الله سبحانه وتعالى؛ أخرج عبد بن حميد عن أبي مطهر قال: ذكروا عند أبي جعفر رضي الله عنه يزيد بنَ المهلَّب، فقال: أَمَا إنَّه قُتلَ في أوَّل أرض عُبد فيها غيرُ الله تعالى، ثم ذكر ودّاً وقال: كان رجلاً مسلماً وكان محبَّباً

---

(١) في هامش الأصل: وقيل: مراده. انتهى منه.
(٢) في هامش الأصل: وقيل: لمذحج. انتهى منه.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٦٩، والبخاري (٤٩٢٠).
(٤) في الأصل و(م): عليه. والمثبت من مصدر التخريج.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٣٦٩، والعظمة (١٠٦٩)، وما بين حاصرتين منهما.
(٦) الدر المنثور ٦/ ٢٦٩ بنحوه.

في قومه، فلمَّا مات عسكروا حول قبره في أرض بابل وجَزِعوا عليه، فلما رأى إبليسُ جزعَهم تَشَبَّه في صورة إنسان ثم قال: أرى جزعَكم على هذا، فهل لكم أن أصوِّر لكم مِثْلَه فيكون في ناديكم فتذكرونه به؟ قالوا: نعم. فصوَّر لهم مِثْلَه، فوضعوه في ناديهم فجعلوا يذكرونه به، فلما رأى ما بهم مِن ذِكْره قال: هل لكم أن أجعلَ لكم في منزلِ كلِّ رجل منكم تمثالاً مثله فيكون في بيته فيذكر به؟ فقالوا: نعم، ففعل فأقبلوا يذكرونه به، وأدرك أبناءهم فجعلوا يَرَون ما يصنعون به وتناسلوا، ودَرَسَ أَمْرُ ذِكْرهم إياه حتى اتَّخذوه إلهاً يعبدونه مِن دون الله تعالى، فكان أوَّلُ مَن عبد غير الله تعالى في الأرض وَدّاً[١].

وأخرج ابن المنذر وغيره عن أبي عثمان النهدي أنه قال: رأيت يغوثَ وكان مِن رصاص يُحمَل على جمل أَجْرَد ويسيرون معه لا يهيجونه حتى يكون هو الذي يَبْرُك، فإذ بَرَك نزلوا، وقالوا: قد رضي لكم المنزلَ. فينزلون حوله ويضربون عليه بناءً[٢].

وقيل: يبعد بقاءُ أعيان تلك الأصنام وانتقالها إلى العرب[٣]، فالظاهر أنَّه لم يَبْقَ إلا الأسماء، فاتَّخذت العربُ أصناماً وسمَّوها بها. وقالوا أيضاً: عبد وَدّ وعبد يَغوث، يعنون أصنامَهم، وما رآه أبو عثمان منها مسمًّى باسم ما سلف.

ويحكى أنَّ وَدّاً كان على صورة رجل، وسُواعاً كان على صورة امرأة، ويَغوث كان على صورة أسد، ويَعوق كان على صورة فرس، ونَسْراً كان على صورة نسر، وهو منافٍ لما تقدَّم أنَّهم كانوا على صور أناس صالحين، وهو الأصحُّ.

وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة بخلاف عنهم: «وُدّاً» بضمِّ الواو[٤]، وقرأ الأشهب العقيلي: «ولا يغوثاً ويعوقاً» بتنوينهما[٥]، قال صاحب اللوامح: جعلهما فعولاً؛

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٦٩-٢٧٠.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٦٩.
(٣) جاء في هامش الأصل و(م): قد أخرج الإفرنج في حدود الألف والمئتين والستين أصناماً وتماثيل من أرض الموصل كانت منذ نحو من ثلاثة آلاف سنة، فلا تغفل. انتهى منه.
(٤) التيسير ص٢١٥، والنشر ٢/ ٣٩١ عن نافع وأبي جعفر، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٢.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٣٤٢، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٦٢ عن الأعمش.

فلذلك صرفهما، وهما في قراءة الجمهور صفتان من الغَوْث والعَوْق يفعل منهما، وهما معرفتان، فلذلك منعا الصرفَ؛ لاجتماع الثِّقَلين اللَّذيْن هما التعريف ومشابهة الفعل المستقبل.

وتعقَّبه أبو حيان[1] فقال: هذا تخبيط؛ أمَّا أوَّلاً فلا يمكن أن يكونا فعولاً؛ لأنَّ مادة يغث مفقودةٌ، وكذلك يعق، وأمَّا ثانياً فليستا بصفتين؛ لأنَّ يفعلا لم يَجِئ اسماً ولا صفةً، وإنَّما امتنعا من الصرف؛ للعلميَّة ووزن[2] الفعل إن كانا عربيين، وللعلميَّة والعجمة إن كانا عجميين.

وقال ابنُ عطية[3]: قرأ الأعمش: «ولا يغوثاً ويعوقاً» بالصرف، وهو وهم؛ لأنَّ التعريف لازم، وكذا وزن الفعل. وأنت تعلم أنَّ الأعمش لم ينفرد بذلك، وليس بوهم، فقد خرَّجوه على أحد وجهين.

أحدهما: أنَّ الصَّرْفَ؛ للتناسب، كما قالوا في: ﴿سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا﴾[4] [الإنسان: ٤] وهو نوع من المشاكلة، ومعدود من المحسِّنات.

وثانيهما: أنَّه جاء على لغة مَن يصرف جميعَ ما لا ينصرف عند عامَّة العرب، وذلك لغة حكاها الكسائيُّ وغيره، لكن يَرِدُ على هذا أنَّها لغةٌ غيرُ فصيحة لا ينبغي التخريج عليها.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ أي: الرؤساء ﴿كَثِيرًا﴾ خَلْقاً كثيراً، أي: قبل هؤلاء الموصين بأن يتمسَّكوا بعبادة الأصنام، فهم ليسوا بأوَّل مَن أضلُّوهم، ويشعر بذلك المُضِيُّ والاقتران بـ «قد» حيث أشعر ذلك بأنَّ الإضلال استمرَّ منهم إلى زمن الإخبار بإضلال الطائفة الأخيرة، وجوّز أن يراد بالكثير هؤلاء الموصين، وكان الظاهر: وقد أضلَّ الرؤساء إيَّاهم، أي: الموصين المخاطبين بقوله: «لا تذرنَّ آلهتكم» فوضع «كثيراً» موضعَ ذلك على سبيل التجريد.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٤٢.
(٢) جاء في هامش الأصل: وهو المناسب لصرف سواع. انتهى منه.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦.
(٤) قرأ نافع والكسائي وأبو بكر وهشام بتنوين «سلاسلا». التيسير ص٢١٧، وستأتي.

وقال الحسن: «وقد أضلوا» أي: الأصنام. فهو كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وضمير العقلاء لتنزيلها منزلتهم عندهم وعلى زعمهم، ويحسِّنه على ما في «البحر»[١] عودُ الضمير على أقرب مذكور، ولا يخفى أنَّ عودَه على الرؤساء أظهرُ؛ إذ هم المحدَّث عنهم، والمعنى فيهم أمكن.

والجملة قيل: حاليَّة، أو معطوفة على ما قبلها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ قيل: عطف على: «ربِّ إنهم عصوني» على حكاية كلامِ نوح عليه السلام بَعْدَ «قال» والواوِ النائبةِ عنه، ومعناه: قال: ربِّ إنَّهم عصوني، وقال: لا تزد.. إلخ، أي: قال هذين القولين على أنَّ الواو مِن كلام الله تعالى؛ لأنَّها داخلة في الحكاية وما بعدها هو المحكيُّ، وإليه ذهب الزمخشريُّ[٢]، وإنَّما ارتكب ذلك؛ فراراً من عطف الإنشاء على الخبر. وقيل: عطف عليه، والواو من المحكي، والتناسب إنشائيَّةً وخبريَّةً غيرُ لازم في العطف، كما قاله أبو حيان[٣] وغيره، وفيه خلاف.

وفي «الكشف»: لك أن تجعله من باب: ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] أي: فاخذلهم ولا تزدهم، وفي العدول إلى الظالمين إشعارٌ باستحقاقهم الدعاء عليهم، وإبداء لعذره عليه السلام، وتحذير ولطف لغيرهم، وفيه أنَّه بعضُ ما يتسبَّب من مساويهم، وهو معنًى حَسَنٌ، فعنده العطف على محذوف إنشائي، ولعلَّ الأَوْلى أن يقال: إنَّ العطف على «ربِّ إنَّهم عصوني»، والواو من المحكي، والتناسب حاصل.

وقال الخفاجيُّ[٤]: الظاهر أنَّ الغرضَ من قوله: «ربِّ إنَّهم» إلخ، الشكاية وإبداء العَجْز واليأس منهم، فهو طلب للنصرة عليهم، كقوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦] ولو لم يقصد ذلك تكرَّر مع ما مرَّ منه عليه السلام،

---

(١) ٨/ ٣٤٢.
(٢) الكشاف ٤/ ١٦٤.
(٣) البحر ٨/ ٣٤٢.
(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥٣.

فحينئذ يكون كنايةً عن قوله: اخذلهم، أو انصرني، أو أظهر دينك، أو نحوه، فهو من عطف الإنشاء على الإنشاء من غير تقدير، ويشهد له أنَّ الله تعالى سمَّى مِثْلَه دعاءً حيث قال سبحانه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ [الدخان: ٢٢]، فتدبَّر.

وهو حسن خالٍ عن التكلُّف وارتكاب المختلف فيه إلا أنَّ في الشهادة دغدغةً.

والمراد بالضلال المدعوِّ بزيادته؛ إمَّا الضلال في ترويج مكرهم ومصالح دنياهم، فيكون ذلك دعاءً عليهم بعدم تيسير أمورهم، وإمَّا الضلال بمعنى الهلاك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾ [القمر: ٤٧] وهو مأخوذ من الضلال في الطريق؛ لأنَّ مَن ضلَّ فيها هلك، فيكون المعنى: أهلكهم. وفسَّره ابنُ بحر بالعذاب، وهو قريب مما ذكر. وقيل: هو على ظاهره، أعني الضلال في الدين والدعاء بزيادته إنَّما كان بعد ما أوحي إليه عليه السلام أنَّه لن يُؤمنَ مِن قومك إلا من قد آمن، ومآله الدعاء عليهم بزيادة عذابهم. ويحتاج إلى دليل. وبما سمعتَ[1] ينحلُّ ما يُقال: إنَّ طلب الضلال ونحوه إمَّا غيرُ جائز مطلقاً، أو [غير جائز] إذا دُعيَ به على وجه الاستحسان، وبدونه وإن كان جائزاً لكنَّه غيرُ ممدوح ولا مرضي، فكيف دعا بذلك نوح عليه السلام عليهم؟

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ﴾ أي: من أجل خطيئاتهم ﴿أُغۡرِقُواْ﴾ بالطوفان لا مِن أجل أمرٍ آخرَ، فـ «من» تعليليَّة، و«ما» زائدة بين الجارِّ والمجرور؛ لتعظيم الخطايا في كونها مِن كبائر ما يُنهى عنه، ومن لم يَرَ زيادتها جعلها نكرةً وجعل «خطيئاتهم» بدلاً منها، وزعم ابنُ عطيَّة[2] أنَّ «مِن» لابتداء الغاية، وهو كما ترى.

وقرأ أبو رجاء: «خِطيَّاتِهم» بإبدال الهمزة ياءً وإدغامها في الياء. وقرأ الجحدري وعبيد عن أبي عمرو: «خَطِيئَتِهم» على الإفراد مهموزاً[3].

---

(١) من كون الضلال المدعوِّ بزيادته إما الضلال في ترويج مكرهم ومصالح دنياهم، وإما الضلال بمعنى الهلاك. حاشية الشهاب ٨/ ٢٥٣، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦.

(٣) القراءتان في القراءات الشاذة ص١٦٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٣.

وقرأ الحسن وعيسى والأعرج بخلاف عنهم وأبو عمرو: «خَطَايَاهُم» جمع تكسير[١].

وقرأ عبد الله: «من خطيئاتهم ما أغرقوا» بزيادة «ما» بين «خطيئاتهم» و«أغرقوا»[٢]، وخرّج على أنّها مصدريّة، أي: بسبب خطيئاتهم إغراقهم.

وقرأ زيد بن علي: «غُرِّقوا» بالتشديد بدل الهمزة[٣]، وكلاهما للنقل.

﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ هي نار البرزخ، والمراد عذاب القبر، ومَن مات في ماء أو نار أو أكلته السِّباعُ أو الطير مثلاً أصابه ما يصيب المقبورَ مِن العذاب. وقال الضَّحَّاك: كانوا يُغرَقون من جانب ويُحرَقون بالنار مِن جانب. وأنشد ابنُ الأنباري[٤]:

الخَلْق مجتمعٌ طَوراً ومفترِقٌ والحادثات فنونٌ ذاتُ أطوارِ
لا تَعجبنَّ لأضدادٍ إذا اجتمعت فاللهُ يجمع بين الماءِ والنارِ

ويجوز أن يراد بها نار الآخرة، والتعقيب على الأوّل ظاهر، وهو على هذا لعدم الاعتداد بما بين الإغراق والإدخال، فكأنَّه شبَّه تخلُّل ما لا يعتدُّ به بعدم تخلُّل شيء أصلاً، وجوّز أن تكون فاءُ التعقيب مستعارةً للسببيَّة؛ لأنَّ المسبَّب كالمتعقِّب للسبب، وإن تراخى عنه لفَقْد شرط أو وجود مانع.

وتنكير النار؛ إما لتعظيمها وتهويلها، أو لأنَّه عزَّ وجلَّ أعدَّ لهم على حسب خطيآتهم نوعاً من النار. ولا يخفى ما في «أغرقوا فأدخلوا ناراً» من الحُسن الذي لا يجارى، ولله تعالى درُّ التنزيل.

﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: فلم يجد أحدهم واحداً من الأنصار، وفيه تعريضٌ لاتِّخاذهم آلهة مِن دونه سبحانه وتعالى وبأنَّها غيرُ قادرة على نصرهم، وتهكُّمٌ بهم.

---

(١) التيسير ص٢١٥، والنشر ٢/ ٣٩١ عن أبي عمرو، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٣ والكلام منه.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٤٣، والقراءة ذكرها الفراء في معاني القرآن ٣/ ١٨٩.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٤٣، والدر المصون ١٠/ ٤٧٧.
(٤) هو أبو بكر ابن الأنباري كما في تفسير الثعلبي ١٠/ ٤٧، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢٦٧.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ عطف على نظيره السابق، وقولهُ تعالى: «مما خطيآتهم» إلخ، اعتراضٌ وسط بين دعائه عليه السلام للإيذان مِن أوّل الأمر بأنَّ ما أصابهم مِن الإغراق والإحراق لم يصبهم إلا لأجل خطيآتهم التي عدَّها نوح عليه السلام وأشار إلى استحقاقهم للهلاك لأجلها، لا أنَّه حكاية لنفس الإغراق والإحراق على طريقة حكاية ما جرى بينه عليه السلام وبينهم من الأحوال والأقوال، وإلَّا لأُخِّر عن حكاية دعائه هذا. قاله مفتي الديار الروميَّة عليه الرحمة[1].

وما قيل: إنَّه عطف على «لم يجدوا»، أو على جملة «مما خطيآتهم» إلخ، وليس المرادُ حقيقةَ الدعاء، بل التشفِّي وإظهار الرضا بما كان مِن هلاكهم = بعيدٌ غاية البُعْد، والمعروف أنَّ هذا الدعاء كان قبل هلاكهم.

والديَّار: مِن الأسماء التي لا تُستعمل إلا في النفي العامِّ، يقال: ما بالدارِ ديَّار، أو: ديُّور، كقَيَّام وقَيُّوم، أي: ما بها أحد، وهو فَيْعال مِن الدار، أو: من الدُّور، كأنَّه قيل: لا تذر على الأرض مِن الكافرين مَن يسكن داراً، أو: لا تَذَر عليها منهم مَن يدور ويتحرَّك، وأصله: دَيْوار، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، وأدغمت الياء في الياء، وليس بفعَّال، وإلا لكان دوَّاراً، إذ لا داعي للقلب حينئذٍ، و«من الكافرين» حال منه، ولو أُخِّر كان صفةً له.

والمراد بالكافرين قومُه الذين دعاهم إلى الإيمان والطاعة فلم يجيبوا، فإن كان الناسُ منتشرين في مشارق الأرض ومغاربها نحو انتشارهم اليوم وكانت بعثته لبعضٍ منهم كسكان جزيرة العرب ومَن يَقرُب منهم فذاك، وإن كانوا غيرَ منتشرين كذلك، بل كانوا في الجزيرة وقريباً منها، فإن كانت البعثة لبعضهم أيضاً فكذلك، وإن كانت لكلِّهم، فقد استشكل بأنَّه يلزم عموم البعثة، وقد قالوا بأنَّه مخصوصٌ بنبيِّنا ﷺ؟

---

(١) تفسير أبي السعود ٩/ ٤١.

وأجيب: بأنَّ ذلك العموم ليس كعموم بعثتِه ﷺ، بل لانحصار أهل الأرض في قطعة منها، فهو انحصار ضروريٌّ وليس عموماً من كلِّ وجه، وهذا نحو ما يقال في بعثة آدمَ عليه السلام إلى زوجته وأولادِه، فإنَّهم حينئذٍ ليسوا إلا كأَهل بيت واحد.

على أنَّه قيل: لا إشكال، ولو قلنا بانتشار الناس إذ ذاك كانتشارِهم اليوم وإرسالهِ إليهم جميعاً؛ لأنَّ العموم المخصوص بنبيِّنا عليه الصلاة والسلام هو العموم المندرجُ فيه الإنس والجِنُّ إلى يوم القيامة، بل الملائكة عليهم السلام، بل وبل، والمشهور أنَّه عليه السلام كان مبعوثاً لجميع أهلِ الأرض وأنه ما آمن منهم إلا قليل، واستدلَّ عليه بهذا الدعاء وعموم الطوفان.

وتُعقِّب بأنَّ الأرض كثيراً ما تُطلَق على قطعة منها، فيحتمل أن تكون هنا كذلك، سلَّمنا إرادة الجميع لكن الدعاء على الكافرين وهم مَن بُعث إليهم فدعاهم ولم يجيبوه، وكونهم مَن عدا أهل السفينة أوَّل المسألة، والطوفان لا نسلِّم عمومه، وإن سلِّم لا يقتضي أن يكون كلُّ مَن غرق به مكلَّفاً بالإيمان به عليه السلام عاصياً بتركه، فالبلاء قد يعمُّ الصالحَ والطالحَ، لكن يَصدرون مصادرَ شتَّى كما ورد في حديث خسف البيداء، ويرشد إلى هذا أنَّ أولادَهم قد أُغرقوا ـ على ما قيل ـ معهم، وقد سُئلَ الحسن عن ذلك، فقال: عَلِمَ اللهُ تعالى براءَتهم فأهلكهم بغير عذاب، نعم الحكمة في إهلاك هؤلاء زيادة عذاب في آبائهم وأمهاتهم إذا أبصروا أطفالَهم يغرقون، وزعم بعضهم أنَّ الله تعالى أعقم أرحامَ نسائهم وأَيبسَ أصلاب رجالهم قبل الطوفان بأربعين ـ أو: سبعين ـ سنة، فلم يكن معهم صبيٌّ حين أُغرقوا، ويحتاج إلى نقل صحيح، وحِكَم الله عزَّ وجلَّ لا تُحصى، فافهم.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ أي: على الأرض، كلًّا أو بعضاً ﴿يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ عن طريق الحقِّ، ولعلَّ المراد بهم مَن آمن به عليه السلام، وبإضلالهم إيَّاهم ردُّهم إلى الكفر بنوعٍ مِن المكر، أو المراد بهم مَن ولد منهم ولم يَبلغ زمن التكليف، أو مَن يولد مِن أولئك المؤمنين ويُدعَى إلى الإيمان، وبإضلالهم إيَّاهم صدُّهم عن الإيمان، وفي بعض الأخبار: أنَّ الرجل منهم كان يأتي بابنه إليه عليه السلام، ويقول: احذر هذا؛ فإنَّه كذَّاب، وإنَّ أبي أوصاني بمثل هذه الوصيَّة. فيموت الكبير

وينشأ الصغير على ذلك، قيل: ومِن هنا قال عليه السلام: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ أي: مَن سيَفجُر ويكفر، فوصفهم بما يصيرون إليه لاستحكام عِلْمه بذلك بما حصل له من التجربة ألفَ سنة إلا خمسين عاماً، ومثله قوله عليه السلام: «إن تذرهم يضلوا عبادك»، وقيل: أراد مَن جُبل على الفجور والكفر، وقد عَلمَ كلَّ ذلك بوحي، كقوله سبحانه: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

وعن قتادة ومحمد بنِ كعب والربيع وابن زيد أنَّه عليه السلام ما دعا عليهم إلا بعد أن أَخرج اللهُ تعالى كلَّ مؤمن مِن الأصلاب وأعقم أرحامَ نسائهم، وأيّاً ما كان فقوله: «إنك» إلخ اعتذار ممَّا عسى أن يقال مِن أنَّ الدعاء بالاستئصال مع احتمال أن يكون مِن أخلافِهم مَن يؤمن، ممَّا لا يليق بشأنِ الأنبياء عليهم السلام.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ أراد أباه: لمك بن مَتُّوشَلَخ، وقد تقدَّم ضَبْطُ ذلك[1]، وأمه: شمخى ـ بالشين والخاء المعجمتين بوزن سَكْرى ـ بنت أُنُوش ـ بالإعجام بوزن أصول ـ وكانا مؤمنين، ولولا ذلك لم يجز الدعاء لهما بالمغفرة.

وقيل: أراد بهما آدم وحواء.

وقرأ ابن جبير والجحدري: «ولوالِدِيْ» بكسر الدال وإسكان الياء[2]، فإمَّا أن يكون قد خصَّ أباه الأقربَ، أو أراد جميع من وَلَدَوه إلى آدم عليه السلام، ولم يكفر ـ كما قال ابن عباس ـ لنوحٍ أبٌ ما بينه وبين آدمَ عليه السلام.

وقرأ الحسين بن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجههما ورضي عنهما وزيد بنُ عليِّ بنِ الحسين رضي الله عنه ويحيى بن يعمر والنخعيُّ والزهريُّ: «وَلِوَلَدَيَّ»[3] تثنية: وَلَد، يعني ساماً وحاماً على ما قيل، وفي رواية: إنَّ ساماً كان نبيّاً.

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): لكن قيل في لمك: إنه بفتحتين، ويقال فيه: لامك، كهاجر، ومتوشلخ على ما في جامع الأصول: بضم الميم وفتح الفوقية وفتح الواو وبسكون الشين المعجمة وكسر اللام وبالخاء المعجمة. انتهى منه.

(٢) القراءات الشاذة ص١٦٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٣، والكلام وما بعده منه.

(٣) القراءات الشاذة ص١٦٢، والبحر المحيط ٨/ ٣٤٣.

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ﴾ قيل: أراد منزله، وقيل: سفينته. وقال الجمهور وابنُ عباس: أراد مسجدَه. وفي رواية عن الحبر: أنَّه أراد شريعته، استعار لها اسم البيت، كما قالوا: قبَّة الإسلام، وفسطاط الدين.

والمتبادر المنزل، وتخرج امرأته وابنه كنعان بقوله: ﴿مُؤۡمِنٗا﴾ وقيل: يمكن أنَّه لم يجزم بخروج كنعان إلا بعد ما قيل له: إنَّه ليس من أهلك.

﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أي: من كلِّ أمة إلى يوم القيامة، وهو تعميم بعد التخصيص، واستغفر ربَّه عزَّ وجلَّ إظهاراً لمزيد الافتقار إليه سبحانه وحبًّا للمستغفر لهم مِن والديه والمؤمنين.

وقيل: إنَّه استغفر لمَّا دعا على الكافرين؛ لأنَّه انتقام منهم. ولا يخفى أنَّ السياق يأباه، وكذا قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ٢٨﴾ أي: هلاكاً، وقال مجاهد: خساراً. والأوَّل أظهر.

وقد دعا عليه السلام دعوتين؛ دعوة على الكافرين ودعوة للمؤمنين، وحيث استُجيبت له الأولى، فلا يبعد أن تُستجاب له الثانية، والله تعالى أكرم الأكرمين.

ومعظم آيات هذه السورة الكريمة وغيرها نصٌّ في أنَّ القوم كفرةٌ هالكون يوم القيامة، فالحكم بنجاتهم كما يقتضيه كلام الشيخ الأكبر - قدِّس سرُّه - في فصوصه مما يُبرأ إلى الله تعالى منه، كزعم أنَّ نوحاً عليه السلام لم يَدعهم على وجه يقتضي إيمانهم مع قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقصارى ما أقولُ: ربِّ اغفر لي ولوالديَّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات.

(سورة نوح)

(عليه الصلاة والسلام، مكيّة، وهي ثمان وعشرون آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ قيل: معناه **(بالسريانية)** الساكن ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله: **(سورة نوح، عليه الصلاة والسلام، مكية)** بالاتفاق **(وهي ثمان وعشرون آية)** ومائتان وأربع وعشرون كلمة وتسعمائة وتسعة وتسعون حرفً. **وقوله:** **(ثمان)** بكسر النون إن أعلّ إعلال قاضٍ فيكون منقوصًا وإعرابه على الياء المحذوفة وبرفع النون إن حذفت الياء اعتباطًا وتخفيفًا لا لعلّة تصريفية فيكون كيد ودم.

قوله: **(بالسريانية) في المزهر في علوم اللغة** أخرج ابن عساكر في التاريخ عن ابن عباس أن آدم عليه السلام كان لغته في الجنة العربية فلما عصى سلبه الله العربية فتكلّم بالسريانية، فلما تاب ردّ الله عليه العربية قال عبد الملك بن حبيب: كان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة عربيًا إلى أن بعد العهد وطال حرّف وصار سريانيًّا وهو منسوب إلى أرض سورنه وهي أرض الجزيرة بها كان نوح عليه السلام وقومه قبل الغرق، قال: وكان يشاكل اللسان العربي إلّا أنه محرّف وهو

خوّف **(أصله بأن** ﴿أَنذِرْ﴾) فحذف الجار وأوصل الفعل. ومحله عند **(الخليل)** جرّ، وعند غيره نصب، أو «أن» مفسّرة بمعنىٰ «أي» لأن في الإرسال معنىٰ القول ﴿قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عذاب الآخرة أو الطوفان.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه إظهارًا للشفقة ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ مخوف ﴿مُّبِينٌ﴾ أبين لكم رسالة الله بلغة تعرفونها ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحدوه و«أن» هذه نحو ﴿أَنْ أَنذِرْ﴾ **(في الوجهين)** ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ واحذروا عصيانه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه، وإنما إضافة إلى نفسه لأن الطاعة قد تكون لغير الله تعالىٰ بخلاف العبادة ﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ جواب الأمر ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ للبيان كقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: الآية ٣٠]. أو للتبعيض لأن ما يكون بينه وبين الخلق يؤاخذ به بعد الإسلام كالقصاص وغيره كذا في شرح التأويلات. ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو وقت موتكم ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي الموت ﴿إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لو كنتم تعلمون ما يحلّ بكم من الندامة عند انقضاء أجلكم لآمنتم. قيل: إن الله تعالى قضىٰ مثلًا أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة وإن لم يؤمنوا أهلكهم على رأس تسعمائة، فقيل لهم: آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمىٰ أي تبلغوا ألف سنة، ثم أخبر أن الأجل إذا جاء لا يؤخّر كما يؤخّر هذا الوقت. وقيل: إنهم كانوا يخافون على أنفسهم الإهلاك من قومهم بإيمانهم وإجابتهم لنوح عليه السلام، فكأنه عليه السلام أمّنهم من ذلك ووعدهم أنهم

كان لسان جميع مَن في سفينة نوح إلّا رجلًا واحدًا يقال له: جرهم فكان لسانه لسان العربي الأول.اهـ. **قوله**: **(أصله بأن** ﴿أَنذِرْ﴾) ولما كان فعل الإرسال لا يتعدّى إلى مفعول ثانٍ بدون توسط حرف الجر قدر الباء الجارّة فحذف الجار وأوصل الفعل فمحل ﴿أَنْ أَنذِرْ﴾ النصب على نزع الخافض أو الجر على إرادته. **قوله**: **(الخليل)** بن أحمد كان إمامًا في النحو وعنه أخذ سيبويه علوم الأدب.

قوله: **(في الوجهين)** يعني المصدرية والتفسيرية لأن الإنذار يتضمن معنى القول.

بإيمانهم يبقون إلى الأجل الذي ضرب لهم لو لم يؤمنوا أي أنكم إن أسلمتم بقيتم إلى أجل مسمى آمنين من عدوكم.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾﴾ (دائبًا) بلا فتور ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ عن طاعتك، ونسب ذلك إلى دعائه لحصوله عنده وإن لم يكن الدعاء سببًا للفرار في الحقيقة وهو كقوله: ﴿(وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا) إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: الآية ١٢٥]. والقرآن لا يكون سببًا لزيادة الرجس وكان الرجل يذهب بابنه إلى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقول: احذر هذا فلا يغرّنك فإن أبي قد وصّاني به ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمان بك ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي ليؤمنوا فتغفر لهم فاكتفى بذكر المسبب ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ سدّوا مسامعهم لئلّا يسمعوا كلامي ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ وتغطّوا بثيابهم لئلّا يبصروني كراهة النظر إلى وجه مَن ينصحهم في دين الله ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ وأقاموا على كفرهم ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ وتعظموا عن إجابتي، وذكر المصدر دليل على فرط استكبارهم.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾﴾ مصدر في موضع الحال أي مجاهرًا، أو مصدر دعوتهم كـ «قعد (القرفصاء)» **لأن الجهار أحد نوعي الدعاء**) يعني أظهرت لهم الدعوة في المحافل ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ أي خلطت دعاءهم بالعلانية بدعاء السر، فالحاصل أنه دعاهم ليلًا ونهارًا في السر، ثم دعاهم جهارًا،

قوله: (دائبًا) أي دائمًا. **قوله**: (﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾) ضعف اعتقاد ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ [التوبة: الآية ١٢٥] أي كفرًا.

قوله: (**القرفصاء**) بضم قاف وسكون راء وضم فاء بمدّ وقصر هي جلسة المحتبي بيديه والاحتباء أن يجلس بحيث يكون ركبتاه منصوبتين وبطنا قدميه موضوعين على الأرض ويداه موضوعتين على ساقيه. **قوله**: (**لأن الجهار أحد نوعي الدعاء**) فيكون مفعولًا مطلقًا بغير لفظه نوعيًا.

ثم دعاهم في السر والعلن، وهكذا يفعل الآمر بالمعروف يبتدىء بالأهون ثم بالأشد فالأشد، فافتتح بالناصحة في السر فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة، فلما لم تؤثر ثلّث بالجمع بين الإسرار والإعلان. و«ثُم» تدلّ على تباعد الأحوال لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما.

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ من الشرك لأن الاستغفار طلب المغفرة، فإن كان المستغفر كافرًا فهو من الكفر، وإن كان عاصيًا مؤمنًا فهو من الذنوب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ لم يزل غفارًا لذنوب مَن ينيب إليه ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ المطر ﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ (**كثيرة الدرور**) ومفعال يستوي فيه المذكر والمؤنّث ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ يزدكم أموالًا وبنين ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ جارية لمزارعكم وبساتينكم، وكانوا يحبون الأموال والأولاد فحرّكوا بهذا على الإيمان. وقيل: لما كذّبوه بعد طول تكرير الدعوة حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة أو سبعين، فوعدهم أنهم إن آمنوا رزقهم الله (**الخصب**) ورفع عنهم ما كانوا فيه. وعن عمر ﷺ أنه خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار فقيل له: ما رأيناك استسقيت! فقال: لقد استسقيت (**بمجاديح السماء**) التي يستنزل بها المطر. شبه عمر الاستغفار (**بالأنواء**) الصادقة التي لا تخطىء وقرأ الآيات. وعن الحسن أن رجلًا شكا إليه الجدب فقال: استغفر الله. وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قلّة النسل،

قوله: (**كثيرة الدرور**) أي السيلان. **قوله**: (**الخصب**) في المصباح الخصب وزان حمل النماء والبركة وهو خلاف الجدب.اهـ. **قوله**: (**بمجاديح السماء**) واحدها مجدح وهو نجم من النجوم، وقيل: هو الدَّبَران، وقيل: هي ثلاثة كواكب كالأثافي تشبيهًا بالمجدح الذي له شعب وهي عند العرب من الأنواء الدالّة على المطر فجعل عمر الاستغفار مشبّهًا بالأنواء مخاطبًا لهم بما يعرفون وكانوا يزعمون أن من شأنها المطر لا أنه يقول بالأنواء. **قوله**: (**بالأنواء**) جمع نَوْءٍ بفتح نون وسكون واو فهمزة زعموا أن المطر لأجل أن الكواكب ناء أي غاب أو طلع.

وآخر قلّة **(ريع أرضه)**، فأمرهم كلهم بالاستغفار. فقال له **(الربيع بن صبيح)**: أتاك رجال يشكون أبوابًا فأمرتهم كلهم بالاستغفار فتلا الآيات.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ لا تخافون لله عظمة. **(عن الأخفش)** قال: والرجاء هنا الخوف لأن مع الرجاء طرفًا من الخوف ومن اليأس والوقار العظمة.

قوله: (ريع أرضه) في المصباح الريع الزيادة والنماء. اهـ غَلَّة أرضه لأنه زيادة. **قوله: (الربيع بن صبيح)** بفتح المهملة السعدي البصري صدوق وكان عابدًا مجاهدًا. قال الرامهرمزي هو أول مَن صنّف الكتب بالبصرة مات سنة ستين رحمه الله.

قوله: (عن الأخفش) الأخافش ثلاثة أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد أحد شيوخ سيبويه وهو الأخفش الأكبر والثاني أبو الحسن سعيد بن مَسْعَدة تلميذ سيبويه وهو الأخفش الأوسط. والثالث أبو الحسن عليّ بن سليمان تلميذ المبَرِّد وهو الأخفش الأصغر وحيث يطلق الأخفش وهو الأوسط المشهور فإن أريد الأكبر أو الأصغر قيدوه. وكان الأخفش الأوسط المذكور من أئمة العربية وأخذ النحو عن سيبويه وكان أكبر منه وكان يقول ما وضع سيبويه في كتابه شيئًا إلّا وعرضه عليّ، وكان يرى أنه أعلم به مني وأنا اليوم أعلم به منه. وحكى أبو العباس ثعلب عن آل سعيد بن سالم، قالوا: دخل الفرّاء على سعيد المذكور فقال لنا قد جاءكم سيّد أهل اللغة وسيّد أهل العربية. فقال الفرّاء: أما ما دام الأخفش يعيش فلا، وله من الكتب المصنفة كتاب الأوسط في النحو وكتاب تفسير معاني القرآن وكتاب المقاييس في النحو وكتاب الاشتقاق وكتاب العروض وكتاب القوافي وكتاب معاني الشعر وكتاب الملوك وكتاب الأصوات وكتاب المسائل الكبير وكتاب المسائل الصغير وغير ذلك. وكان أجلع والأجلع الذي لا ينضم شفتاه على أسنانه. والأخفش الصغير العينين مع سوء بصرهما وكانت وفاته سنة خمس عشرة ومائتين، وقيل: سنة إحدى وعشرين ومائتين رحمه الله تعالى وكان يقال له الأخفش الأصغر فلما ظهر علي بن سليمان المعروف بالأخفش أيضًا صار هذا وسطًا.

(أو لا تأملون له توقيرًا) أي تعظيمًا. والمعنىٰ ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ في موضع الحال أي ما لكم لا تؤمنون بالله والحال هذه، وهي حال موجبة للإيمان به لأنه خلقكم أطوارًا أي تارات وكرّاتٍ خلقكم أولًا نطفًا ثم خلقكم علقًا ثم خلقكم مضغًا ثم خلقكم عظامًا ولحمًا، نبّههم أولًا على النظر في أنفسكم لأنها أقرب، ثم على النظر في العالم وما سوّى فيه من العجائب الدالّة على الصانع بقوله:

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ بعضًا على بعض ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي في السمٰوات وهو في السماء الدنيا، لأن بين السمٰوات ملابسة من حيث إنها طباق فجاز أن يقال فيهن كذا وإن لم يكن في جميعهن كما يقال: في المدينة كذا وهو في بعض نواحيها. وعن ابن عباس وابن عمر ﷺ: أن الشمس والقمر وجوهما مما يلي السمٰوات، وظهورهما مما يلي الأرض، فيكون نور القمر محيطًا بجميع السمٰوات لأنها لطيفة لا تحجب نوره ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ مصباحًا يبصر أهل الدنيا في ضوئها كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره، وضوء الشمس أقوى من نور القمر، وأجمعوا على أن الشمس في السماء الرابعة ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أنشأكم **(استعير الإنبات للإنشاء)**

قوله: **(أو لا تأملون له توقيرًا)** على أن الرجاء على أصله وهو الأمل والطمع في حاشية العلّامة الشهاب عليه رحمة الله الوهّاب الرجاء يكون بمعنى التأميل وبمعنى الخوف وكلاهما جائز هنا.اهـ. والوقار اسم بمعنى التوقير كالسلام بمعنى التسليم.

قوله: **(استعير الإنبات للإنشاء)** استعارة أصلية ثم اشتقّ من الإنبات المستعار لفظ ﴿أَنْبَتَكُمْ﴾ فصار استعارة تبعية حمل الكلام على الاستعارة لتعذّر حمله على الحقيقة لأن الإنبات إخراج فروع ما رسخ عروقه في الأرض ولا شك أن إيجاد الإنسان ليس على هذا الوجه وإنشاء بني آدم من الأرض إما بواسطة إنشاء أبيهم آدم عليه السلام منها أو من حيث إنه تعالى خلق كل واحد منهم من النطفة المتولّدة من

﴿نَبَاتًا﴾ (فنبتم ﴿نَبَاتًا﴾) ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بعد الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿إِخْرَاجًا﴾ أكده بالمصدر أي أيّ إخراج.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾ (مبسوطة) ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا﴾ لتتقلبوا عليها كما يتقلّب الرجل على بساطه ﴿سُبُلًا﴾ طرقًا ﴿فِجَاجًا﴾ واسعة أو مختلفة.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ فيما أمرتهم به من الإيمان والاستغفار ﴿وَٱتَّبَعُوا۟﴾ أي السفلة والفقراء ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ﴾ أي الرؤساء وأصحاب الأموال والأولاد (﴿وَوَلَدُهُۥٓ﴾ **مكي وعراقي غير عاصم وهو جمع ولد**) كأسد وأسد ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ في الآخرة ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ معطوف على ﴿لَّمْ يَزِدْهُ﴾ وجمع الضمير وهو راجع إلى «مَن» لأنه في معنى الجمع. والماكرون هم الرؤساء،

الغذاء المتولدّ من النبات المتولّد من الأرض والنكتة في العدول إلى المجاز كون الإنبات أدلّ على الحدوث لأنهم إذا كانوا نباتًا كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات. **قوله:** (**فنبتم** ﴿نَبَاتًا﴾) يعني أن نباتًا منصوب بفعل مقدر وهو نبتم وحذف لدلالة ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ عليه التزامًا فإن النبات لازم للإنبات ومطاوع له والملزوم يدل على لازمه.

قوله: (**مبسوطة**) أي لا مسنمة.

قوله: (﴿وَوَلَدُهُۥٓ﴾) بضم[1] الواو الثانية وإسكان اللام (**مكيّ**) أي ابن كثير المكيّ (**وعراقيّ غير عاصم**) إذا اجتمع أهل الكوفة والبصرة، قيل عراقي أي أبو عمرو (بصري) وسهل (بصري) ويعقوب (بصري) وحمزة (كوفي) وعليّ (كوفي) وخلف (كوفي). وقرأ الباقون أي نافع (مدني) وابن عامر (شامي) وعاصم وأبو جعفر (مدني) بفتح الواوين واللام. **قوله:** (**وهو جمع ولد**) بفتحهما.

---

(١) وكسر الواو شاذ ١٢ منه.

ومكرهم احتيالهم في الدين وكيدهم لنوح **(وتحريش الناس)** على أذاه وصدّهم عن الميل إليه ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾ عظيمًا **(وهو أكبر من الكبار وقرىء به وهو أكبر من الكبير)**.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَقَالُوا﴾ أي الرؤساء لسفلتهم ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ على العموم أي عبادتها ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ **(بفتح الواو وضمّها وهو قراءة نافع)**، لغتان: صنم على صورة رجل ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾ هو على صورة امرأة ﴿وَلَا يَغُوثَ﴾ هو على صورة أسد ﴿وَيَعُوقَ﴾ هو على صورة فرس وهما لا ينصرفان للتعريف ووزن الفعل إن كانا عربيين، وللتعريف والعجمة إن كانا أعجميين ﴿وَنَسْرًا﴾ هو على صورة نسر أي هذه الأصنام الخمسة على الخصوص، وكأنها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم فخصّوها بعد العموم، وقد انتقلت هذه الأصنام عن قوم نوح إلى العرب؛ فكان ودّ **(لكلب)**، وسواع **(لهمدان)**، ويغوث **(لمذحج)**، ويعوق **(لمراد)**، ونسر

قوله: **(وتحريش[١] الناس)** أي حملهم.

قوله: **(وهو أكبر من الكبار وقرىء به وهو أكبر من الكبير)** يعني أن كبار بالضم والتشديد من أوزان المبالغة أبلغ من كبار بالضم والتخفيف كما أن المخفف أبلغ من كبير ونحوه طوال وطوال وطويل والتثقيل هي القراءة المشهورة والتخفيف شاذّ. **قوله:** **(وقرىء به)** قراءة عيسى وأبو السمال وابن محيصن.

قوله: **(بفتح الواو وضمها وهو قراءة نافع)** **عبارة الخطيب** قرأ نافع بضم الواو والباقون بفتحها. **قوله:** **(لكلب)** **في الصحاح ولسان العرب** كلب حيّ من قضاعة. اهـ. **قوله:** **(لهمدان)** بسكون الميم **في الصحاح ولسان العرب** هَمْدَانُ قبيلة من اليمن. اهـ. **قوله:** **(لمذحج)** بفتح الميم وسكون الذال المعجّمة وكسر الحاء المهملة بعدها جيم معجّمة على وزن مسجد وهو أبو قبيلة من اليمن وهو مَذْحِجُ بن يخابر بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ. **قوله:** **(لمراد)** كغراب وهو أبو قبيلة من اليمن وهو مراد بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ وكان اسمه يحابر فتمرّد

---

(١) بالحاء المهملة والشين المعجمة بمعنى الإغراء والتحريض ١٢ منه..

(لحمير). وقيل: هي أسماء رجال صالحين كان الناس يقتدون بهم بين آدم ونوح، فلما ماتوا صوروهم ليكون ذلك أدعى لهم إلى العبادة، فلما طال الزمان قال لهم إبليس: إنهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤)﴾

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ أي الأصنام كقوله: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٦] ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس أو الرؤساء ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ عطف على ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد ﴿قَالَ﴾ وبعد الواو **(النائبة عنه)**، ومعناه قال رب إنهم عصوني وقال: لا تزاد الظالمين أي قال هذين القولين وهما في محل النصب لأنهما مفعولا ﴿قَالَ﴾ ﴿إِلَّا ضَلَالًا﴾ هلاكًا كقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾.

﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥)﴾

﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ (**﴿خطاياهم﴾ أبو عمرو**) أي ذنوبهم ﴿أُغْرِقُوا﴾ بالطوفان ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ عظيمة وتقديم ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ لبيان أن لم يكن إغراقهم بالطوفان وإدخالهم في النيران إلا من أجل خطيئاتهم. وأكد هذا المعنى بزيادة «ما» وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا، فإن كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم، وإن كانت كبراهن والفاء في ﴿فَأُدْخِلُوا﴾ للإيذان بأنهم عذبوا بالإحراق عقيب الإغراق فيكون دليلًا على إثبات عذاب القبر ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله.

فسمي مرادًا وهو فُعَال على هذا القول. **قوله**: **(لِحميَرٌ)** بكسر فسكون وهو أبو قبيلة من اليمن وهو حِمْيَر بن سبأ بن يشجُب بن يَعربُ بن قحطانَ.

قوله: **(النائبة عنه)** أي عن لفظ قال: **قوله**: (﴿تَبَارًا﴾) هلاكًا.

قوله: (**﴿خطاياهم﴾**) بفتح الطاء وبعدها ألف وبعد الألف ياء وبعد الياء ألف وضم الهاء على وزن قضاياهم (أبو عمرو) وقرأ الباقون ﴿خَطِيئَاتِهِمْ﴾ بكسر الطاء وبعدها ياء تحتية ساكنة وبعد الياء همزة مفتوحة بعدها ألف وبعد الألف تاء

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ أي أحدًا يدور في الأرض وهو فيعال من الدور **(وهو من الأسماء المستعملة في النفي العام)** ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ ولا تهلكهم ﴿يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ يدعوهم إلى الضلال ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ إلا مَن إذا بلغ فجر وكفر وإنما قال ذلك لأن الله تعالى أخبره بقوله: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: الآية ٣٦].

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ وكانا مسلمين واسم أبيه **(لمك)**، واسم أُمه **(شمخى)**، وقيل: هما آدم وحواء **(وقريء «ولولَدَيّ» يريد سامًا وحامًا)** ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ﴾ منزلي أو مسجدي أو سفينتي ﴿مُؤْمِنًا﴾ لأنه علم أن مَن دخل بيته مؤمنًا لا يعود إلى الكفر ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى يوم القيامة. خصّ أولًا مَن

فوقية مكسورة وكسر الهاء على وزن قضياتهم وكل واحد من لفظ الخطايا والخطيئات جمع خطيئة إلا أن الأول جمع تكسير والثاني جمع سلامة.

قوله: **(وهو من الأسماء المستعملة في النفي العام)** إشارة إلى الأمرين الأول أنه لا يستعمل في الإثبات، والثاني أنه لا يستعمل في النفي الخاص.

قوله: **(لمك)** بفتح اللام والميم وفي جامع الأصول والإتقان أنه ساكن الميم، وفيه لغة أخرى لامك كهاجر بن متوشلخ بضم الميم وفتح التاء الفوقيّة وفتح الواو وسكون الشين المعجّمة وكسر اللام وبالخاء المعجّمة كما في جامع الأصول. وفي الإتقان أنه بفتح الميم وتشديد التاء المضمومة وسكون الواو وفتح الشين واللام. **قوله:** (شمخى) بالشين والخاء المعجمتين بوزن سكرى بنت أنوش بالإعجام بوزن قبول. **قوله:** (وقريء «ولولَدَيّ») تثنية ولد يعني ابنيه **(يريد سامًا وحامًا)**. قرأه الحسن بن عليّ رضي الله تعالى عنهما ويحيىٰ بن يعمر والنخعي. قيل: كان لنوح عليه الصلاة والسلام ثلاثة أولاد سام وحام ويافث فلما استوت

يتصل به لأنهم أولى وأحق بدعائه، ثم عمّ المؤمنين والمؤمنات ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكافرين ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ هلاكًا فأهلكوا. قال ابن عباس ﵄: دعا نوح ﵇ بدعوتين: إحداهما للمؤمنين بالمغفرة، وأخرى على الكافرين بالتبار، وقد أجيبت دعوته في حق الكفار بالتبار فاستحال أن لا تستجاب دعوته في حقّ المؤمنين. واختلف في صبيانهم حين أغرقوا فقيل: أعقم الله أرحام نسائهم قبل الطوفان بأربعين سنة فلم يكن معهم صبي حين أغرقوا. وقيل: علم الله براءتهم **(فأهلكوا بغير عذاب)** والله أعلم.

سفينة نوح عليه الصلاة والسلام على الجودي وخرج من السفينة بمن معه مات مَن كان معه من الرجال والنساء إلا هذه الأولاد الثلاثة فتناسلوا وتوالدوا فالناس كلهم بعد طوفان نوح عليه السلام لم يتناسلوا إلا منهم فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب والسند والهند والنوبة والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم، ويافث أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك. **قوله: (فأهلكوا بغير عذاب)** كما يموتون بسائر الأسباب فكم من صبي يموت بالغرق والحرق والهدم وغيرها، وكان ذلك زيادة في تعذيب الآباء والأمهات إذا أبصروا أطفالهم يغرقون ومنه قوله عليه السلام في مثله: يهلكون مهلكًا واحدًا ويصدرون مصادر شتى.

تمّت سورة نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام

والحمد لله ربّ العالمين